إسرائيليات

..وما بعد العدوان

أحمد بهاء الدين



الطبعة الرابعة • دار الهلال

أحمد بهاء الدين



(الطبعة الرابعة)

مقدمة

مع ان اسرائيل موضوع تطرقه الصحافة والاذاعات فى شتى أنحاء البلاد العربية كل يوم بل وكل ساعة .. فان ما نعرفه عنها قليل !

يخيل لى ان أكثر حديثنا يتجه الى « اسرائيل بمعناها المباشر ، الماثل للعين المجردة » ، أى اسرائيل الدولة التى قامت بالغزو ، والتى تحتل من الأرض العربية مساحة محددة . اسرائيل التى قامت بفعل قوى أجنبية ، وما زالت تستمر بفعل هذه القوى . اسرائيل التى لا تقنع بما حققت : بل انها لا تكف عن طلب المزيد من المهاجرين ، وعينها دائما على المزيد من التوسع ..

اسرائيل ، بهذا المعنى المباشر الماثل للعين المجردة ، نتحدث عنه كل يوم وكل ساعة .. ولكن الذى لا نتحدث عنه كثيرا ، ولا نتوقف عنده الا نادرا هو : اسرائيل بمعنى التحدى الحضارى الذى تنطوى عليه .. التحدى الحضارى لهذه الأمة العربية . فقد كان قيام اسرائيل فى حد ذاته علامة من علامات ضعف المنطقة العربية وتخلفها الحضارى

***

مهما كانت القوى التى ساهمت فى اقامة اسرائيل ، فلا مفر من الاعتراف بأن الحركة الصهيونية النشيطة هى التى لعبت الدور الأساسى ، وهى التى جعلت تدخل هذه القوى الدولية لحسابها أمرا ممكنا

ومهما كانت ــ أيضا ــ هذه القوى التى ضحت بمصالح العرب : فلا مفر من الاعتراف بأن الحركة العربية كانت على درجة من الضعف والتفكك وعدم الدراية بحقائق العصر ، جعلت انتصار هذه القوى عليها سهلا وممكنا

تلك هى الحقائق التى يجب أن نواجهها .. واذا لم نعترف بهذه

الحقائق ونواجهها ، فكأننا لم نتعلم من كارثة فلسطين شيئا !

واذا كنا لا نعترف بهذه الحقائق ، فكأننا لا نعرف — بعد — أبعاد الصدام مع اسرائيل ..

ان هذا الصدام ليس معركة عسكرية وليس معركة سياسية . انه شيء أوسع من هذا وأعمق . انه معركة حضارية . والحرب والسياسة ليستا سوى عنصرين عابرين من عناصر واحتمالات المعركة الكبرى الطويلة الأمد ، هي هذه المعركة الحضارية ..

***

والكيان العربي الذي يستطيع أن يواجه تحدي اسرائيل ، ويتخطاه .. ليس مجرد حشد عسكري قوي أو عمل سياسي بارع . ان هذه أيضا عناصر هامة : ولكن الأهم منها أن يكون هذا الكيان نفسه مستكملا سائر أسباب القوة الحضارية : من تقدم مادي ومعنوي وثقافي وعلمي ..

ولكي نفهم التحدي الذي تفرضه اسرائيل علينا ، يجب أن نفهمها من الداخل .. يجب أن نفهم العوامل القديمة والجديدة التي تدخل في تكوين هذا التحدي .. سواء كانت هذه العوامل موجودة في التاريخ القديم أو في التاريخ المعاصر .. سواء كانت هذه العوامل موجودة داخل اسرائيل أو خارج حدودها .. سواء كانت هذه العوامل موجودة في مجال السياسة ، أو الاقتصاد ، أو الفكر ، أو الفن ، أو التراث ..

انني أطالب بأن تكون الجبهة التي نواجه عليها اسرائيل أوسع من الكيلومترات التي تتكون منها حدودها الجغرافية .. لأن هذه الجبهة بالفعل ، شئنا أم أبينا ، أطول من هذه الحدود .. وأعمق من المسافة التي تفصل بين خطوط الهدنة .. والبحر !

والكتاب الذي بين يديك محاولة في هذا الاتجاه ..

احمد بهاء الدين

الفصل الأول :

مدخل إلى إسرائيل

هذا الكتاب بالغ الأهمية ..

انه لا يستعرض تاريخ الحركة الصهيونية أو تاريخ اسرائيل .. ولكنه يركز على نقطة واحدة هى : العمل الدبلوماسى الصهيونى ، الذى كان يتم دائما على كل مستويات السلطة والنفوذ فى أوروبا وأمريكا ..

انه يروى قصة الحركة الصهيونية وهى تضغط على أبواب الخليفة التركى ، ثم القيصر الألمانى ، ثم رئاسة الوزارة الانجليزية .. وأخيرا : البيت الأبيض والكونجرس فى الولايات المتحدة ..

ومؤلف الكتاب شاب اسمه « الن تايلور » والعنوان الأصلى للكتاب هو Prelude To Israel أى « مدخل الى اسرائيل » . والكتاب نفسه مطبوع فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فهو لا يمكن أن يتهم بأنه متحيز ضد الصهيونية ، لأى سبب من الأسباب ..

وليست قيمة الكتاب فى انه وثيقة خطيرة ضد الحركة الصهيونية وضد اسرائيل وضد الدول التى ساعدتها على أن تقوم .. ولكن قيمته أيضا فى انه درس خطير للعرب ، يفتح عيونهم على ما يدور فى هذا العالم من تيارات تحتية ومن أساليب فى العمل السياسى ..

يقول المؤلف : ان هدفه من هـذا الكتاب هو الكشف عن جـذور الصهيونيه كحركة سياسية ، وكيف تبلورت أهدافها ثم كيف انطلقت تعمل فى سبيل تحقيق هذه الأهداف

ومن البدء ، ينبه المؤلف الى أن القول الشائع بأن الصهيونية حـركة دينية ، قول غير صحيح .. فهى فى الواقع حركة سياسية ، قامت تحمل الرد السياسى على نزعة معاداة السامية ، ذلك الرد الذى تلخص فى : خلق دولة صهيونية ، واعطاء « اليهودية » صفة القومية

انها حركة سياسية ، غير دينية ، قامت فى شرق أوربا من جراء اضطهاد اليهود فى روسيا وبولندا وألمانيا .. ولكنها ، طمعا فى تأييد يهود العالم ، عمدت الى استخدام تلك الفكرة الرومانتيكية ، « فكرة العودة » .. ومن هنا خلط الناس بين « الصهيونية » وبين « اليهودية » ، رغم ان الصهيونية فى أساسها حركة غير دينية

الخطأ الثانى الشائع ، الذى يقول المؤلف انه يريد أن ينفيه ، هو : الوهم الذى يظن أن قيام دولة اسرائيل جاء مصادفة ، نتيجة للامل اليهودى القديم فى العودة الى فلسطين . وهذا غير صحيح . فالحقيقة التى يريد أن يثبتها الكتاب هى ان اسرائيل قامت نتيجة للجهد المخطط المنظم الذى بذلته الحركة الصهيونية . ان الصهيونية تبدو لمن يتأملها تأملا عابرا ، حركة مليئة بالفرق والشـيع والأحزاب ، ولـكن من يحلل سياسـتها وتصرفاتها ، يجدها تتم فى ترتيب وتنسيق عجيبين ، يوحى بوجود قيادة واحدة على الدوام . ويقول المؤلف هنا : انه قد يكون من المتعـذر أن نثبت وجود قيادات عليا تقوم بهذا التخطيط . ولكن النظر الى انسجام تصرفاتها يجزم بوجود هذا التصميم المدروس

ملاحظة ثالثة وأخيرة يسجلها المؤلف فى تقديمه للكتاب ، هى : ان كلمة الصهيونية فى كتابه انما تنصرف الى الصهيونية السياسية . ففى بدء الحركة الصهيونية كانت هناك صهيونيتان على الأقل : صهيونية ثقافية ، تهتم ببعث اللغة اليهودية والثقافة اليهودية ، وصهيونية سياسية لا تسـتهدف

سوى اقامة الدولة اليهودية

وهـذه الصهيونية السياسية ، كانت فى البدء مستعدة لاقامة الدولة فى أى مكان آخر ممكن ، غير فلسطين ، مما يؤكد أنهـا كانت منصرفة فى الدرجة الأولى الى إسباغ صفةالقوميةالسياسية علىالعنصر اليهودى ، وان فكرة « العودة » الدينية الى فلسطين لم تظهر الا فيما بعد ، َتورقة رابحة لا غير ..

فكرة الصهيونية فى حد ذاتها ، عاشت خلال قرون طويلة كُناحية من نواحى اليهودية والمسيحية على السواء . فى اليهودية كانت تعيش تتيجة ربط اليهودية بالمملكة العبرية القديمة فى فلسطين . وفى المسيحية ، بدأت توجد منذ عصر كرومويل حين كان هناك اعتقاد بأن مرور ألف عام على رسالة المسيح سيضمن اعادة اليهود الى فلسطين

ولكن الصهيونية كحركة صهيونية ، ليست سوى مولود من مواليد القرن التاسع عشر . فقد بدا لبعض الوقت ان حركة التحرر والمساواة التى بدأت تغزو أوروبا سوف تحل مشكلة اليهود . ولكن اعترض ذلك عقبتان : العقبة الأولى جاءت من اليهود أنفسهم ، الذين كرهوا مايحمله هذا التحرر من احتمال اندماجهم فى الآخرين .. حتى ان ناحوم جولدمان ، الرئيس الحالى للحركة الصهيونية العالمية ، يقول : « ان اقامة دولة يهودية هدفه حفظ الشعب اليهودى من خطر التحرر والاندماج » . أما العقبة الثانية فكانت من أوروبا نفسها : فحين بدأ التسامح الدينى يسود ، أخذ التعصب القومى الذى كان بارزا فى القرن التاســع عشر يتخذ مظهرا عنيفا ، جعل عملية تقبل اندماج اليهود فى القوميات البازغة يصبح صعبا من جديد ..

ثم جاء حادث هام : هو حادث اغتيال القيصر اسكندر الثانى فى روسيا عام ١٨٨١ ، فقد أرادت السلطات الروسية وقتها أن تجعل من اليهود كبش الفداء فى هذا الحادث ، فاندلعت عاصفة من ذبح اليهود واضطهادهم أدت الى موجة من الهجرة الى غرب أوروبا وأمريكا . ولكن ثلاثة آلاف

من المهاجرين اليهود ذهبوا فى ذلك العام الى فلسطين . وفى عام ١٨٨٢ أقاموا « مستعمرة ريشون ليزيون » بالقرب من يافا

وفى نفس العـــام ، ظهرت فى روســيا لأول مرة حركة عرفت باسم Chibbath Zion أى « حب صهيون » ، وكان أنصــارها يتجمعون فى حلقات اسمها « أحباء صهيون »

كانت أهداف هذه الجماعات هى الهجرة الى فلسطين واحيــاء اللغة العبرية . وهكذا ظهرت لأول مرة بذور الصهيونية السياسية.

وقد تم الاعتراف بهذه الجماعات فى عام ١٨٩٠ تحت اسم « جمعية مساعدة الصناع والمزارعين اليهود فى سوريا وفلسطين »

كان رئيس هذه الحركة يحمل اسم « ليون بنسكر Leon Pinsker » . وكان قبل ذلك رئيسا لاحدى جماعات أحبــاء صهيون . وهو فى الواقع أول من دعا الى اقامة وطن قومى لليهود ، دون التمسك بأى مكان معين لهذا الوطن ..

ولكن هذه الحركة لم تلبث أن تصدت لها معارضتان : الأولى من اليهود أنفسهم ، الذين عارضوا فكرة الوطن اليهودى أيا كان ، والمعارضة الثانية من الامبراطورية العثمانية اذ أصــدر البــاب العالى عام ١٨٨٨ فرمانا يقضى بمنع أية هجرة جماعية يهودية الى أراضى الدولة العثمانية ، ولا يسمح للحجاج اليهود بقضاء أكثر من ثلاثة أشهر فى فلسطين ..

وتجمدت الحركة تماما ..

أما الرجل الذى دفع بهذه الحركة الى الوجود مرة أخرى فهو يهودى مجرى ، تعلم فى فيينا ، اسمه تيودور هرزل

كان هرزل قانونيا بدراسته ، ولكنه كان يعمل صحفيا يراسل احدى صحف فيينا من باريس ، حين أثيرت « قضية دريفوس » الشهيرة فى فرنسا ، عام ١٨٩٤

وأدرك هرزل ما تنطوى عليه ظروف هذه القضية من نزعة عدائية للسامية . ووصل هرزل الى نتيجة هى انه اذا كانت فرنسا بلد الحريات

يمكن أن تهب عليها عاصفة من هذا النوع ، فمعنى ذلك انه من الممكن أن تتخذ معاداة السامية أشكالا أشد عنفا وقسوة من سائر بلاد أوروبا التى ليس لها أى حظ من التحرر الفرنسى ..

وفى صيف نفس السنة ، ١٨٩٤ ، أصدر هرزل كتابا صغيرا بعنوان « الدولة اليهودية » : يدعو فيه الى اقامة مستعمرة يهودية تحت وصاية انجلترا ، تكون فى فلسطين أو فى الأرجنتين ، على أن تتطور بعد ذلك الى دولة يهودية قومية مستقلة ذات سيادة

ولا شـــك ان حديث هرزل عن امكان اقامة وطن قومى لليهـــود فى الأرجنتين ، يستوقف النظر . فهو يدل على ان الحركة الصهيونية ظهرت الى الوجود لأسباب سياسية فقط هى الرد على حركة معاداة السامية ، وليس لتحقيق نبوءات اليهودية القديمة فى العودة الى فلسطين . وقد بقى جوهر الصهيونية هكذا دائما سياسيا تماما ، وغير دينى . صحيح ان فكرة « العودة » الرومانتيكية قد أدخلت عليها بعد ذلك ، ولكن لا لسبب سوى الاستفادة من جاذبيتها فى كسب الأنصار . أما الحركة الصهيونية فقد بقيت على الدوام كما ولدت : حركة عملية واقعية لا مذهبية .. حركة سياسية للرد على مشكلة سياسية معينة ، لا لتحقيق نبوءة دينية

كان لنشر كتاب هرزل ردود فعل مختلفة ، ولكنه جمع حوله عددا لا بأس به من الأنصار ، شجعه على الدعوة الى عقد أول مؤتمر صهيونى عالمى ، وهى الفكرة التى سبق أن اقترحها نفس الرجل الذى نحت كلمة « صهيونية » وهو ناثان برنباوم Nathan Birnbaum

وفى أغسطس عام ١٨٩٧ ، انعقد أول مؤتمر صهيونى عالمى ، فى مدينة « بال » السويسرية ، وفى خطاب الافتتاح ، قال هرزل : « اننا هنا لنضع حجر الأساس فى بناء البيت الذى سوف يأوى الأمة اليهودية » . ثم اقترح برنامجا من ثلاث نقط :

أولا ـ تشجيع القيام بحركة هجرة منظمة واسعة النطاق الى فلسطين

ثانيا ـ الحصول على اعتراف دولى بشرعية هذا التوطن فى فلسطين

ثالثا ـ انشاء منظمة دائمة لضم صفوف يهود العالم أجمع وراء القضية الصهيونية ..

ويقول المؤلف : ان هذه الأهداف الثلاثة ظلت وما تزال هى المهمات الأساسية للحركة الصهيونية : جمع اليهود فى فلسطين . الحصول على تأييد الدول الأجنبية . وكسب اليهود الى صف الفكرة الصهيونية

واذا كان هرزل قد استخدم كلمة « دولة » فى التعبير عن هدف الصهيونية ، الا أن المؤتمر فى قراراته النهائية فضّل استخدام كلمة Heimstatte أى Homestead حتى لايحدث رد فعل عنيف

ويرى المؤلف ان هرزل أثناء مناقشة الصياغة وهل يقال دولة أو وطن قومى ، قال : « لاتهم الصياغة ! .. سيقرأها اليهود على أى حال على انها « دولة يهودية »

وقبل أن يتم المؤتمر أعماله ، كان قد فرغ من وضع أول نظام للمنظمة الصهيونية العالمية ، بما فيها من أجهزة قيادية وأجهزة تقوم مقام وزارة الخارجية فى أى بلد . فمنذ عام ١٨٩٧ كان قد تم وضع الخطة ، ورسم الأهداف واقامة « جهاز حكومة » يتولى التخطيط والتنفيذ

وانطلق هرزل ، بوصفه أول رئيس للمنظمة الصهيونية العالمية ، الى العمل ..

كان هرزل يعلم جيدا ، ان حجر الأساس فى اقامة هذا الحلم ، هو : موافقة الدول الأجنبية ذات الشأن ، نفس الخط الذى لم تتركه الصهيونية لحظة واحدة ، قبل قيام دولة اسرائيل وبعد قيامها ..

ولجأ هرزل أول الأمر الى أحد الحكام الأقوياء فى أوروبا ؛ هو الامبراطور غليوم الثانى : بداية المرحلة وراء الأقوياء من ألمانيا الى انجلترا ثم الى أمريكا ..

لجأ هرزل الى القيصر غليوم الثانى الذى كانت تراوده أحلام قدسية فى الشرق ، اذ قابله فى القسطنطينية ، عام ١٨٩٨ ، خلال رحلة القيصر فى أرجاء الامبراطورية العثمانية . واقترح هرزل على القيصر اقتراحا

خبيثا : اقترح عليه انشاء شركة لاستثمار الأراضى ، يباشرها الصهيونيون تحت حماية ألمانيا واشرافها . وقال القيصر : انه سيفكر فى الأمر . وطارد هرزل القيصر حتى قابله مرة ثانية خلال نفس الرحلة ، فى فلسطين ، يوم ٢ نوفمبر عام ١٨٩٨

ولكن القيصر كان قد عقد عزمه على الرفض . وقال ان مثل هـذا العمل سوف تعتبره الامبراطورية التركية تدخلا غير مباشر فى شئونها . وقد يثير الدول الأخرى المتربصة بنهاية الامبراطورية التركية المريضة : انجلترا وفرنسا وروسيا ..

وقرر هرزل أن يقصـد الباب العالى مباشرة . وفى مايو عام ١٩٠١ توصل الى مقابلة السلطان العثمانى فى القسطنطينية . وطرح عليه نفس الموضوع بشكل آخر ملائم له ، هو : أن يقوم اليهود بمساعدة السلطان على اعادة تنظيم المالية التركية المرتبكة ، واستثمار الأراضى المهملة فى الامبراطورية مقابل السماح بالهجرة الى فلسطين . ولكن السلطان قال : انه لايستطيع أن يسمح بهجرة يهودية جماعية الى فلسطين

وازاء هذا الفشل ، نقل هرزل نشـاطه الى الدولة التى اقترحها من قبل ، كراعية للحركة الصهيونية ، وهى انجلترا ..

وفى عام ١٩٠٢ ، دخلت المنظمة الصهيونية فىمباحثات جدية معالحكومة الانجليزية بقصد اقناع انجلترا بمنح الحركة جزءا من شبه جزيرة سيناء ، يقيمون فيها وطنهم القومى ، كجزء من الامبراطورية البريطانية

كانت انجلترا فى ذلك الوقت تحتل مصر ، التى تتبعها شـبه جزيرة سيناء ، وكانت سيناء بذلك أقرب مكان ، تحت النفوذ الانجليزى ، الى فلسطين ، ولا شك أن الحركة الصهيونية اختارتها ، رغم جفاف الطبيعة فيها كنقطة ملائمة للوثوب على فلسطين عندما يحين الوقت . فضلا عن ان سيناء أيضا مكان جرت فيه ذكريات دينية يهودية . ولنتذكر هنا ، ان بن جوريون ، بعد هـذه المباحثات بنصف قرن ، انتهز فرصـة حرب السويس التى شنها على مصر بالاشتراك مع انجلترا نفسها ، ليقف فى

برلمان دولة اسرائيل ويعلن ضم سيناء الى اسرائيل !

المهم ، ان المباحثات توقفت .. لأن انجلترا ، كما يقول المؤلف ، وجدت معارضة مصرية .. لسنا نعرف قصتها بالضبط ، ولكنها فى رأى المؤلف : كانت أول اشارة الى معارضة العرب فى اقامة وطن قومى يهودى على أرضهم ..

وبعد سنة ، توصل هرزل الى عقد مشروع اتفاق آخر مع الحكومة البريطانية يقضى بمنح أوغندا للمنظمة الصهيونية بقصد تعميرها والتوطن فيها ، وقدم هرزل هذا المشروع الى المؤتمر الصهيونى السادس ، ولكن يبدو أن المؤتمر لم يتحمس للفكرة كثيرا ، أو وجدها محتاجة الىدراسة ، فقرر فقط ارسال بعثة الى أوغندا لدراسة امكانياتها

ومات هرزل عام ١٩٠٥ ، قبل اتخاذ أى قرار نهائى فى الموضوع ، فكانت النتيجة ان الحركة الصهيونية انقسمت بعد موته الى فريقين : فريق يرى ان المخرج الوحيد لليهود هو الاسراع بقبول أى عرض لاقامة دولتهم ، فى فلسطين أو فى غيرها ، وفريق يرى انه اما فلسطين والا فلا لأن فلسطين هى المكان الوحيد الذى يمكن أن ينجذب يهود العالم اليه

فلما جاء المؤتمر الصهيونى السابع عام ١٩٠٥ ، انتصر الفريق الثانى ، واتخذ المؤتمر قرارا يعلن ان الحركة الصهيونية يجب أن تستهدف اقامة وطن اليهود القومى فى فلسطين بالذات

ومن عام ١٩٠٥ ، الى عام ١٩١٤ ، يوم نشبت الحرب العالمية الأولى ، كان التوطن اليهودى فى فلسطين يتزايد فى صمت والحاح ، حتى وصل عدد المستوطنين الجدد الى ١٢ ألفا ، يعيشون فى تسع وخمسين مستعمرة

وكان النفوذ الصهيونى ، قد هاجر بنفس الكثافة الى لندن حيث تركز هناك : فانجلترا كانت القوة العالمية الكبرى ، التى يمكنها أن تمنح اليهود مايشاءون ..

كانت الحرب العالمية الأولى نقطة تحول تاريخية ، بل وفرصة ذهبية للحركة الصهيونية ..

فها هى الامبراطورية التركية ، واضعة اليد على فلسطين ، تدخل فى صـــدام مسلح حاسم مع انجلترا ، التى بدأت تتقبل الحركة الصهيونية وتبحث عن طريقة مناسبة لاستخدامها . والرهان على انهيار الامبراطورية التركية المريضة وانتصار انجلترا والحلفاء ليس صعبا . لهذا كان طبيعيا أن تجد الحركة الصهيونية فى هذه الحرب فرصتها الذهبية ، بشرط : أن تضع كل ثقلها الى جانب انجلترا وأن تتأكد من حصـــولها على الثمن المناسب ..

وبرز فى هذه المرحلة اسم « حاييم وايزمان » . وكانت ترشحه لقيادة الحركة الصهيونية ظروف كثيرة

فهو من جهة ، كان أحد الداعين الى تآلف واندماج كل التيارات فى الحركة الصهيونية ، والى ضرورة الجمع فىآن واحد بين الجوهر السياسى للحركة والورقة العاطفية الرابحة .. ورقة « العودة »

وهو من جهة أخرى ، كان قد توطن فى انجلترا وبدأ نشاطا سياسيا واسعا بالفعل . ففى سنة ١٩٠٤ هاجر هذا الكيميائى الروسى الى لندن حيث عاش وبدأ يتصل بالكتاب والصحفيين والساسة من جميع الأحزاب

وكان أول نجاحين له هما : أولا ، توصله الى عقد صداقة قوية مع لورد بلفور ، الذى لم يكن قد أصبح وزيرا بعد ، والذى قال مرة وهو يقدم وايزمان الى بعض أصـــدقائه : « هــذا هو الرجل الذى جعلنى صهيونيا ! » ..

وثانيا ، توصله الى كسب « ســكوت » رئيس تحرير المانشستر جارديان ، احدى الصحف الكبرى ذات النفوذ

وكان « سكوت » هــذا هو الذى عرف وايزمان الى بعض الوزراء الانجليز لأول مرة : عرّفه على « هربرت صامويل » ، الوزير اليهودى ، كما عرفه على « لويد جورج » الذى أصبح رئيسا للوزراء فيما بعد : وهكذا بدأ تمهيد الأرض لكى تمارس الدبلوماسية الصهيونية عملهـــا وتؤتى ثمارها ..

ويتساءل المؤلف : ترى ماهو السبب الدفين وراء تلك الموجة من تأييد الصـــهيونية ، التى نمت ، ويا للغرابة ، فى هــذا المجتمع الانجليزى المسيحى ؟ ..

ويورد المؤلف رد المؤرخ الانجليزى الكبير ارنولد توينبى على هذا السؤال ..

يقول توينبى : ان المصدر الأول لهذه الموجة هو شعور دفين بالذنب لدى بعض غير اليهود ، الذين هم فى قرارة نفوسهم معادون للسامية ، رغم عدم رضاهم العقلى عن هذا الشعور ، فهم « يكفرون » عنه بتأييد اليهود علنا . والمصدر الثانى فى رأيه هو أن هذا نموذج انجلو سكسونى من نماذج المكيافيلية الممتزجة بالفرنسية !!

أى نموذج من قدرة الانجلوسكسون على مزج أهدافهم السياســية والمصلحية بشعارات تبدو انسانية

وأظن أن هذا التفسير الثانى هو الأصدق ، مع عدم استبعاد التفسير الأول استبعادا نهائيا ..

فمصلحة الانجليز فى تبنِّى هذه الحركة الصهيونية واضحة : فحيثما حلّ الاســتعمار الانجليزى نجده يعمد الى أقرب مشكلة من مشاكل الأقليات فيخلقها اذا لم تكن موجودة ، وينمّيها اذا كانت موجودة ، وذلك بقصد اســتخدامها فى خلق مشــكلة تصرف الشعب عن مشــكلته مع الاحتلال . ولكى يوجد دائما « نقطة ضعف » داخلية فى المجتمع يبنى عليها وجوده ، واستمرار تدخله . ولكى يكون له فى النهاية قطاع من المجتمع مستفيد من وجود الاستعمار ومرتبط به

وفى منطقة كبرى بالغة الخطورة كالمنطقة العربية .. وابان ثورة عربية كانت تتبلور تحت جنح الظــلام التركى المنسحب .. لمــاذا لايوجــد هذا الجسم الطارىء الغريب ، هذا الجسم الصهيونى ، الذى قدم نفسه لانجلترا بالتأكيد على انه مندوب لها ، وقطعة مرتبطة بها ، أبقى لها فى المنطقة من أى جيش مسلح ؟

فاذا غطت انجلترا هذه المصلحة بغطاء انسانى شفاف هو : الرغبة فى حل المشكلة اليهودية .. واذا كسبت الى جانب ذلك تأييد كل اليهود لها ، وتحولهم الى شبه عملاء لحسابها ، بأموالهم وانتشارهم الأوربى الكبير .. فلماذا ترفض انجلترا كل هذا الاغراء ..

ويضيف المؤلف الى هذا كله : ان كثيرا من الغربيين قد خلطوا بين الصهيونية والليبرالية ، وهى نزعة التحرر الانسانى والمساواة . فظنوا ان الصهيونية تحاول حلاً مشكلة اليهود ، وحل مشكلة اليهود خطوة منطقية مع موجة التحرر الانسانى والمساواة . وجهلوا بسبب هـذا الخلط ان « المتحررين » حقا هم اليهود الداعون الى اندماج اليهود فى المجتمعات التى يعيشـون فيها ، أما اليهود الصهيونيون ، فهم انما يقدمون حلا عنصريا دينيا متعصبا ، وليس حلا انسانيا متحررا متسامحا ..

المهم ، ان الأداة الصهيونية فى انجلترا بدأت تتحرك ، بدرجة عالية من التنظيم والدراية ..

ففى نوفمبر ١٩١٤ ، كتب « حاييم وايزمان » الى صديقه رئيس تحرير المانشستر جارديان شارحا الخط الصهيونى فقال بالحرف الواحد :

« من الممكن الآن أن نقول انه اذا وقعت فلسـطين فى دائرة النفوذ البريطانى ، واذا شجعت انجلترا بعد ذلك توطن اليهود هناك ، كمستعمرة بريطانية ، فاننا نستطيع أن نوجد خلال الثلاثين سنة القادمة حوالى مليون يهودى فى تلك البلاد : فيطورونها ، وينقلون الحضارة اليها ، ويكونون بمثابة حرس فعال لقناة السويس »

وقد أسعفهم فى هذا الجزء الأخير أن لورد كتشنر كان من رأيه أيضا ان فلسطين هى الموقع الاستراتيجى الذى يجب الاعتماد عليه للدفاع عن قناة السويس فى المدى الطويل .. فأخذوا ينشرون هذا ويذيعونه ..

تلك اذن هى الخطة الصهيونية لمرحلة الحرب العالمية الأولى :

١ ــ أن ينتصر الحلفاء ، وعلى رأسهم انجلترا

٢ ــ أن تكون فلسطين من نصيب انجلترا

٣ ــ أن تسهل انجلترا استيطان اليهود فى فلسطين

٤ ــ أن ينتهى الأمر بسيطرة اليهود على فلسطين ، فى مقابل استمرارهم فى خدمة مصالح انجلترا بحراسة قناة السويس لحسابهم

ويلاحظ المؤلف ان كلَّ هذه النقط الأربع قد تحققت

وأضيف : انها تحققت حتى وقوع حرب السويس . فاشتراك اسرائيل مع انجلترا فى الهجوم على مصر ، بمناسبة تأميم قناة السويس ، فىالمؤامرة المشهورة ، هو حدث غريب ساقته الظروف لتأكيد تنفيذ البند الرابع من هذا « التفاهم » ..

وأظن أن نظرة المصلحة الانجليزية فى موضوع الصهيونية كلها ، منذ مطلع القرن العشرين ، أصبحت واضحة تماما .. غير محتاجة الى تحليلات توينبى النفسية !

وفى ذلك الوقت كان لويد جورج وهربرت صمويل قد بدآ فى اقناع سائر الوزراء الانجليز بهذه السياسة . حتى تعهد سير ادوارد جراى وزير الخارجية باقامة مثل هذه الدولة فى المستقبل ، منضما بذلك الى أنصار الصهيونية فى مجلس الوزراء البريطانى

ولكن هذه السياسة ، مع ذلك توقفت قليلا مصطدمة بعقبتين :

العقبة الأولى : هى ان اسكويث رئيس الوزراء كان مرتبطا بسياسة احلال العرب محل الأتراك كأصدقاء وحلفاء لانجلترا فى الشرق الأوسط

والعقبة الثانية : ان كتلة كبرى من اليهود ، كانوا يرون ان حل مشكلة اليهود هو الذوبان فى المجتمع الأوروبى ، وأن خلق دولة صهيونية معناه زيادة النزعة المعادية للسامية فى أوروبا ، بدلا من اطفائها ..

ويروى المؤلف انه فى تلك الأثناء ، عرف وايزمان من لويد جورج ، الذى كان رئيسا للجنة المجهود الحربى ، ان انجلترا تبحث عن طريقة علمية لانتاج مادة الاسيتون واستخدامها فى انتاج المتفجرات بكميات كبيرة . وعكف وايزمان سنة كاملة فى أبحاث متصلة لهذا الغرض ، حتى نجح أخيرا فى انتاج المادة المطلوبة . وبناء على ذلك ، وبتوسط لويد

جورج ولورد بلفور الذى كان قد أصبح وزيرا ، تم تعيين حاييم وايزمان فى مركز مرموق فى وزارة البحرية البريطانية . ويقول المؤلف ان وايزمان انطلق يعمل فى المجهود الحربى البريطانى دون أن يثير موضوع فلسطين . ولكن بلفور قال له مرة « أتعلم أنك بعد الحرب قد تحصل على القدس التى تريدها » فسبب انهماك وايزمان فى عمله ، والثمن الذى كان يتوقعه ، لم يكن خافيا على أحد

فى تلك المرحلة بالضبط ، أى فى سنة ١٩١٥ ، بدأت الحكومة البريطانية تتخذ لأول مرة خطوات جدية ورسمية فى اتجاه الصهيونية . وهى خطوات يقول المؤلف انها كانت مشوبة بالحذر ، لعلم الوزراء المؤيدين للصهيونية بميل رئيس الوزراء « اسكويث » الى التزام جانب العرب ..

ففى مارس ١٩١٥ ، أرسل سير ادوارد جراى وزير خارجية انجلترا الى سير ادوارد بوكانان سفير انجلترا فى سان بطرسبورج ، عاصمة روسيا القيصرية فى ذلك الوقت .. أرسل اليه مذكرة يشرح فيها رأى الحكومة البريطانية فى العلاقة بين فلسطين والصهيونية العالمية . كانت المذكرة تقول ان فلسطين هى الثمن الذى يمكن بواسطته كسب تأييد اليهودية العالمية كلها الى جانب الحلفاء . وكانت تقول أيضا انه لو أطلقت المنافسة بين العرب واليهود فى فلسطين فسوف تقع فلسطين تحت ادارة اليهود ..

وكانت تعليمات وزير الخارجية البريطانية الى سفيره تقضى بتسليم المذكرة الى « سازانوف » وزير الخارجية الروسى . ورد الروس على المذكرة بالموافقة ، بشرط المحافظة على مصالح الكنيسة الروسية فى الأراضى المقدسة ..

وفى نفس السنة ، عين « مارك سايكس » مساعدا لوزير الحرب البريطانى ، وأصبح الشرق الأوسط بالذات داخلا فى اختصاصه . وبالتالى كان لابد أن تتجه شبكة الدبلوماسية الصهيونية الى هذا الوجه الجديد ، بغية اصطياده . وبالفعل تولى أمره صهيونى انجليزى اسمه « موسى

جاستر » ، اعترف سايكس بعد ذلك بأنه كان الرجل الذى حوله الى نصير للصهيونية ، بعد توليه منصبه الخطير

وبعد وصول مذكرة سير ادوارد جراى الى سان بطرسبورج بقليل ، وصل سايكس الى العاصمة الروسية ، حيث بدأ مباحثاته الشهيرة التى انتهت باتفاقية « سايكس ــ بيكو » المعروفة فى التاريخ العربى

كان المنطق الذى استخدمه سايكس هو : ان اليهود الامريكان يمكن أن يفيدوا قضية الحلفاء فائدة عظيمة بمساهمتهم فى اقناع أمريكا بدخول الحرب فعلا الى جانب الحلفاء . وقال سايكس لجورج بيكو وزير خارجية فرنسا : ان اعطاء الصهيونية حق اقامة وطن قومى فى فلسطين هو الورقة الوحيدة التى يمكن بها كسب يهود العالم بما فيهم يهود أمريكا . وعلى الفور أرسلت الحكومة الفرنسية أستاذا يهوديا فرنسيا ، اسمه فكتور باخ الى الولايات المتحدة ليقنع يهودها بأن انجلترا وفرنسا تضمنان حماية المستعمرات اليهودية فى فلسطين بعد الحرب . ولكن مهمة باخ فشلت فى أمريكا . فلم يكن اليهود هناك وقتها مهتمين بالأمر ، فبدأ سايكس نفسه يفقد اهتمامه بالصهيونية بعد أن وجد انها لن تسهم فى جر أمريكا الى الحرب ..

ولكن اتفاقية سايكس ــ بيكو لم تقض على أى حال بتسليم فلسطين الى العرب ، انما قضت بتسليمها للانجليز ، مما أبقى الفرصة مفتوحة على مصراعيها أمام الدبلوماسية الصهيونية لمواصلة العمل ..

وفى أكتوبر سنة ١٩١٦ ، توصل الى سايكس صهيونى آخر ، أرمنى الأصل ، اسمه جيمس مالكولم ، نجح فى اثارة اهتمام سايكس من جديد بفائدة الحركة الصهيونية اذ أقنعه بأن هناك قاضيا صــهيونيا كبيرا فى أمريكا ، هو القاضى برنديس « الذى تحمل اسمه الجامعة الأمريكية التى أعطت بن جوريون دكتوراة فخرية منذ سنوات » ، وان هذا القاضى له نفوذ خاص لدى الرئيس الأمريكى ويلسون ، وبالتالى يستطيع أن يساهم فى اقناع ويلسون بدخول الحرب الى جانب الحلفاء ضد ألمانيا .

واقتنع سايكس من جديد بهذه الفكرة ، فعاد يستحث مجلس الوزراء البريطانى على قبول فكرة الدخول فى مفاوضات مباشرة مع المنظمة الصهيونية العالمية حول فلسطين . وأخيرا وافق مجلس الوزراء البريطانى . واختير مالكولم هذا وسيطا بين الطرفين . وبدأ ممثلو الصهيونية العالمية فى انجلترا يستعدون لانتهاز الفرصة الكبيرة التى انفتحت أمامهم ..

كان طلبهم الأول هو أن يسمح لهم باستخدام وسائل الاتصال الانجليزية للاتصال بالصهيونيين فى مختلف أنحاء العالم . وببساطة غريبة وافق مجلس الوزراء البريطانى على هذا الطلب الذى بدا له عاديا . ولم ينتبه ، فى رأى المؤلف الى أن هذه سابقة خطيرة فى التعامل الرسمى مع الصهيونية ، وفى أن وسائل المواصلات والاتصال البريطانية انما بدأت تستخدم فى الايحاء الى يهود العالم كلهم بأن بريطانيا تؤيد الحركة الصهيونية بالذات من بين سائر التيارات اليهودية

وفى تلك المباحثات ، قدم الصهيونيون الى الحكومة الانجليزية مذكرة بعنوان « برنامج لانشاء ادارة جديدة فى فلسطين من وجهة نظر الحكومة الصهيونية » . وكانت المذكرة تقترح انشاء شركة يهودية شبه حكومية تحت رعاية حكومتى انجلترا وفرنسا ، مهمتها تشجيع اليهود على التوطن فى فلسطين واستثمارها ..

وكانت سنة ١٩١٦ سنة سعيدة فى حياة الحركة الصهيونية . فقد ترك اسكويث رئاسة الوزارة ، وحل محله لويد جورج ، الذى كان قد انضم الى معسكر الصهيونية بالفعل ، كما عين لويد بلفور وزيرا للخارجية . وبهذا أصبحت القضية الصهيونية مكسوبة مقدما

***

بعد شهرين بالضبط من تشكيل الوزارة البريطانية الجديدة ، قرر مجلس الوزراء تكليف مارك سايكس بالدخول فى مفاوضات رسمية مع الحركة الصهيونية . وانعقدت الجلسة الأولى فى بيت « موسى جاستر » ، الرجل الذى جاء ــ منذ قليل ــ ان سايكس قال عنه انه هو الذى كسبه

الى هذه الصهيونية ..

حضر من الجانب الصهيونى موسى جاستر وهربرت صمويل ، وحاييم وايزمان وهارى ساشر ، وقد تكلموا جميعا فى ضرورة اعطاء اليهود صفة قومية ووضعا رسميا فى فلسطين ، مع منح نفس القومية لكل يهود العالم فى نفس الوقت ، دون أن يكون لها أثر على وضعهم فى بلادهم من الناحية السياسية . كما طالبوا باباحة الهجرة الى فلسطين دون أى قيد

وقال سايكس ان هناك بعض الاعتبارات التى قد تحول دون تحقيق هذه المطالب كلها : فروسيا مترددة ، والعرب سوف يعارضون ، وفرنسا ما زالت تطالب بأن تكون « سوريا الكبرى » كلها من نصيبها بعد الحرب ، بما فيها فلسطين

وكانت نقطة الارتكاز فى حديث الجانب الصهيونى : ان الكيان الصهيونى الذى سيولد سيكون جزءا من الامبراطورية البريطانية ، وحارسا مضمونا لها فى المنطقة ..

ويقول المؤلف معقبا على هذا الاجتماع : انه بالرغم من ان سكان فلسطين كانوا من العرب ، الا أن الصهيونيين لم يحسبوا حتى تلك اللحظة حسابهم قط . ولم يناقشوا موقفهم فى أى مؤتمر من مؤتمراتهم السنوية . لذلك فقد خرج الصهيونيون من هذا الاجتماع وفى ذهنهم أن المشكلة الحقيقية ، بعد كسب انجلترا ، هى اقناع فرنسا أيضا ..

وقد حلّ الصهيونيون مشكلة روسيا بالموافقة على مبدأ اقامة هيئات دولية تشرف على الأماكن المقدسة . فبقيت فرنسا التى تطالب بسوريا كلها بما فيها فلسطين .. ثم ايطاليا ، التى يوجد فيها نفوذ البابا المسيحى ..

وفى ٨ فبراير ١٩١٧ رتّب سايكس لقاء بين سوكولوف وزير خارجية روسيا وجورج بيكو وزير خارجية فرنسا فى مقر السفارة الفرنسية بلندن ، وقال سوكولوف ان الصهيونيين يعتقدون انه من المهم جدا لمصالحهم أن تكون انجلترا هى التى تشرف على فلسطين بعد الحرب . ونجح سوكولوف فى كسب جورج بيكو ، ولكن بقى أن يكسب بقية

الوزارة الفرنسية ، التى كان معظم أفرادها يتمسكون بضرورة استيلاء فرنسا على سوريا الكبرى كلها ، وكان المتحمسون لهذا الهدف يسمون « بالحزب السورى »

وفى مارس سافر سوكولوف مع سايكس،والصهيونىالارمنى مالكولم الى باريس .. حيث بدءوا الضغط على الجهات الفرنسية ذات النفوذ . ومن هناك سافر سايكس مع سوكولوف الى روما حيث يقول المؤلف « ان سوكولوف استطاع ، بعـد جهد شديد ، أن يزيل مخـاوف بابا المسيحيين بشأن مستقبل الفئات غير اليهودية فى فلسطين ، فى حالة اقامة وطن قومى لليهود هناك »

وعندما عاد سايكس وسوكولوف من روما الى باريس ، قدم اليه « جول كامبون » سكرتير عام وزارة الخارجية الفرنسية مذكرة باسم الحكومة الفرنسية تعبِّر فيها عن تأييدها لمطالب الحركة الصهيونية

ماذا تغير فى ذلك الوقت ، فجعل الفريق المؤيد للصهيونية فى الوزارة الفرنسية ينتصر ؟ ..

انه تدخل مباشر من البارون ادموند روتشيلد ، الذى كان وايزمان قد أقنعه منذ زمن بالانضمام الى جانب وجهة النظر الصهيونية داخل اليهودية العالمية ، فكان روتشيلد يحمل معه كل ثقل تلك الأسرة المالية الشهيرة ، ذات الدور الطويل فى تاريخ السياسة الاوروبية ..

هكذا أعلن بلفور انه مستعد لاصـدار بيان يعلن فيه تأييـد انجلترا الرسمى لمطالب اليهود فى فلسطين : ففرنسا موافقة ، وروسيا موافقة ، والبابا موافق ، والقاضى الصهيونى الأمريكى برانديس أكد له من جديد ان الرئيس الامريكى ويلسون موافق

وصدر وعد بلفور الشهير ..

صدر محتويا على ثلاث نقط :

أولا ــ تأييد انجلترا لاقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين

ثانيا ــ تعاون انجلترا مع اليهود لهذا الهدف

ثالثا ــ ان لا يؤثر هذا على حقوق المجتمعات غير اليهودية الموجودة فى فلسطين ، ولا على حقوق اليهود المقيمين فى مختلف أنحاء العالم

وكان هذا أقل مما طلبه اليهود . ولكن كان نقطة تحول بالنسبة لهم . وسهل الأمر لهم نجاحهم فى دفع لويد جورج الى الادلاء بتصريح قال فيه : « انه اذا أصبح اليهود أغلبية فى فلسطين ، فانه من الممكن عندئذ أن تصبح فلسطين (كومنولث يهودى) .. »

أى : يا أيها اليهود ! عليكم بالهجرة ! ويوم تصبحون أغلبية ، ستكون لكم فلسطين ..

***

بالرغم من أن الحركة الصهيونية كانت تتجه بسرعة الى التركيز على الولايات المتحدة الامريكية ، الا أن بريطانيا بقيت مركزا رئيسيا للنشاط الصهيونى ، طالما أن بريطانيا ما زالت هى الدولة المنتدبة فى فلسطين . وعلى هذا ظل حاييم وايزمان وكثيرون من قادة الحركة الصهيونية يركزون التأثير الصهيونى على مركز السلطة فى بريطانيا

وكان هذا بالطبع يقتضى منهم أيضا الالحاح فى توجيه الرأى العام الوجهة التى تجعل مهمتهم فى التأثير على الجهات العليا أكثر سهولة .. مع استمرارهم فى نفس الوقت فى كسب شتى العناصر اليهودية غير الصهيونية الى جانبهم من جهة ، وفى مواصلة الهجرة الى فلسطين رغم كل القيود من جهة أخرى ..

ولم تكن حكومة جوزيف تشيمبرلين على علاقة حسنة بالحركة الصهيونية ، ولكن وايزمان ورفاقه ظلوا على صلة مستمرة بكل الشخصيات التى يمكن أن تكون فى مركز السلطة يوما من الأيام . ففى ذلك الوقت بالذات ، مثلا ، عمد وايزمان الى التعرف على ونستون تشرشل والتردد عليه أكثر من مرة والحصول على موافقته على مبدأ اسباغ صفة الدولة على المجتمع اليهودى فى فلسطين .. كما ظل حريصا على ابقاء نفس الصلة مع لورد هاليفاكس وزير الخارجية ..

فلما تألفت وزارة تشرشل سنة ١٩٤٠ ، لم يكسب الصهيونيون فقط رئيس الوزراء الجديد ذا الميول الصهيونية ، بل كسبوا أيضا وجود وزراء آخرين كثيرين فى هذا الاتجاه

يظهر هذا واضحا من قصة السفينة « باتريان » التى يرويها وايزمان فى مذكراته . فقد ضبطت السلطات البريطانية سفينة تحمل ٢٠٠٠ مهاجر يهودى يحاولون النزول فى فلسطين بشكل غير قانونى ، فمنعوا الباخرة من الاقتراب من الشاطىء . وتصادف أن انفجرت الباخرة وأصيبت بعطب ، وذهب وايزمان الى لورد لويد وزير المستعمرات يطلب منه اصدار أمر الى السلطات فى فلسطين بالسماح لهم بالنزول . وقال لورد لويد لوايزمان : لقد أصدرت أمرا بمنعهم من النزول ، لأننى أعرف أنك سوف تذهب الى تشرشل وتستصدر منه أمرا بالغاء هذا القرار ، لقد سبقت وطلبت منه ألا يتدخل فى ذلك ، فلا تتعب نفسك بالذهاب اليه

ثم يعقب وايزمان قائلا : ولكن لورد لويد نسى أن يسبقنى الى لورد هاليفاكس ، فذهبت اليه ..واستصدرت منه أمرا بالسماح لهم بالدخول..

***

كذلك نجح وايزمان فى اقناع الحكومة البريطانية بتكوين فرقة يهودية تقاتل الى جانب الحلفاء ، والغاء الاتجاه المضاد الى تكوين فرقة فلسطينية عربية ويهودية . وكانت تلك الفرقة اليهودية هى نواة جيش اسرائيل ، الذى حارب خلال الساعات الحرجة التى تلت اعلان قيام دولة اسرائيل

وقد كان العمل من أجل ايجاد هذه الفرقة اليهودية عنيفا ومتواصلا فى جميع المجالات ، من الصحافة ، الى اقتراحات يقدمها النواب من حزبى المحافظين والعمال فى البرلمان ، الى ضغط واقناع لدى الساسة والقادة العسكريين . وفى سبتمبر سنة ١٩٤٤ أعلنت وزارة الحرب البريطانية انها قررت المساعدة فى تكوين مثل هذه الفرقة .. وبعد أن وجدت الفرقة ، أصبح لها علمها المستقل . وفى الاستعراضات العسكرية أصبحت تحمل هذا العلم ، مؤكدة فى الاذهان أن « اليهودية » أصبحت « قومية »

لا مجرد دين .. وكان ذلك العَلَم هو نفس عَلَمَ دولة اسرائيل اليوم ..

وفى أكتوبر ١٩٤٤ ، بعد شهر واحد من تكوين الفرقة الصهيونية المسلحة ، طلبت الوكالة اليهودية من الحكومة البريطانية تحويل فلسطين الى « كومنولث يهودى » وأن تسمح بهجرة مليون ونصف مليون يهودى الى فلسطين ، بحيث يصبح اليهود فى فلسطين أغلبية تسمح باعلان الدولة. واستطاع وايزمان أن يحصل على موافقة ونستون تشرشل الشخصية على اقامة الدولة اليهودية ، على الأقل فى جزء من فلسطين . ويعتقد المؤلف أن حكومة العمال التى جاءت بعد تشرشل — وخصوصا وزير خارجيتها ارنست بيفن — كانت أقل تعاونا مع الصهيونيين من الحكومة المحافظين ، وأن حكومة تشرشل لو بقيت بعد الحرب لقامت هى باعلان دولة اسرائيل ..

***

وفى خلال ذلك كله كانت الوكالة اليهودية تخلق أمرا واقعا خطيرا فى فلسطين : بالهجرة السرية المستمرة ، وبالدعاية الهائلة بين يهود أوروبا ، دعاية كانت تجعلهم يتدفقون على مكاتب الهجرة السرية بالآلاف .. وبتهريب الأسلحة الى فلسطين على نطاق واسع ، وبتكوين جيش الهاجاناه ، وبالسيطرة على الاقتصاد اليهودى كله ، وبجهاز المخابرات الذى كان يشترك فيه كل يهودى يعمل فى حكومة فلسطين ، حتى أصبحت هناك دولة داخل الدولة ، دولة لها كل فروع الدولة وملامحها وأجهزتها..

ويقول المؤلف : انه حتى الأعمال الارهابية من قتل ونسف ، التى كان زعماء الصهيونية يستنكرونها فى تصريحاتهم ، كانت تتم بالتفاهم معهم .. بدليل أن بن جوريون رفض وقتذاك أن يتخذ أى موقف ضدهم وبدليل أن الوكالة تفاهمت مع هؤلاء الارهابيين بعد انتهاء المعركة تفاهما كاملا ، دل على وجود تفاهم سابق وقديم

على أن أخطر قرار اتخذته الحركة الصهيونية العالمية خلال الحرب العالمية الأولى كان : الانتقال بمركز الثقل فى نشاطها الى أمريكا !

ما أشبه الليلة بالبارحة !

فى غضون الحرب العالمية الأولى ، قررت الصهيونية العالمية أن تلعب بورقة بريطانيا ، مؤمنة بأنها ستكون القوة الأولى المسيطرة على السياسة الدولية بعد النصر . ويومها نجح تنبؤهم وأمكن أن يضعوا أقدامهم الأولى فى فلسطين ..

وفى غضون الحرب العالمية الثانية ، أدركت الصهيونية العالمية أنها لابد أن تنقل مركز نشاطها الى أمريكا ..

لماذا ؟ ..

لأن نجم انجلترا أخذ فى الافول .. ولأنهم بعد أن كسبوا من وراء بريطانيا حق اقامة وطنهم القومى فى فلسطين ، آن الأوان للخطوة الثانية وهى : خطوة الدولة اليهودية المستقلة ، وهـذه خطـوة قد تعارضها بريطانيا ، التى لم تفكر لحظة فى أن يكون مآل هـذا « الكومنولث اليهودى » الى الاستقلال عنها . وفى هذه الحالة لن تقدر على الضغط على بريطانيا سوى أمريكا ..

ولم تكن أمريكا قد دخلت الحرب بعد ، وكانت الصهيونية تعرف مدى حرص بريطانيا على حسن علاقات أمريكا معها ، ومدى رغبتها فى ادخالها الحرب الى جانبها : فلو استطاعت الصهيونية أن تقنع أمريكا .. فستكون بريطانيا كلها آذانا صاغية لصوت أمريكا !

وكان عليهم أن يكسبوا فى أمريكا ثلاث قوى :

ــ الرأى العام ..

ــ والكونجرس ..

ــ والحكومة ..

أما بالنسبة للرأى العام ، فسرعان ما تكونت الهيئات الداعية للقضية الصهيونية ، مركزة على الرأى العام المسيحى بالذات . وفى نفس الوقت الذى كانوا يركزون فيه على رجال الدين البروتستنت، مستغلين تفسيرهم « للعهد القديم » ، كانوا يتصلون فى نشاط هائل باتحادات نقـابات

العمال ، وبالمجالس النيابية فى الولايات المختلفة ، وبأعضـاء الحزبين : الجمهورى والديموقراطى .. فلم يأت عام ١٩٤٤ حتى كانت برلمانات ٣٣ ولاية قد أصدرت توصيات تؤيد فيها المطالب الصهيونية ، وحتى كانت انتخابات ذلك العام حافلة بالوعود بتأييد مطلب الصهيونية ..

وأكبر حليف لهم فى رأى المؤلف كان : جهل الرأى العام تماما بقضية فلسطين ..

وقد حققت الصهيونية نفس النجاح بين اليهود الأمريكيين أيضا . فبينما لم يكن الصهيونيون يمثلون أكثر من خمسة فى المائة من يهودأمريكا قبل الحرب العالمية الثانية ، استطاعوا قبل نهاية الحرب أن يجعلوا أى يهودى يخـاف أن يجاهر بأنه مختلف مع الصـهيونية .. وبينما كانوا يشرحون ــ علنا ــ « حاجة اليهود الأوروبيين الى ملجأ » بعد جرائم النـازية ، كانوا يعملون سرا من أجل فكرة اقامة الدؤلة وفى فلسـطين بالذات ، بدليل أنهم حاربوا مشروعا لروزفلت لتوطين اليهود فى دول العالم بوجه عام ..

أما مع الكونجرس ، فقد بدأ الأمر بقيد أسماء ٦٧ شيخا و ١٤٣ نائبا من مجلسى الكونجرس فى قائمة أعضاء منظمةصهيونية مستترة تحت اسم « اللجنة الأمريكية لفلسطين » . وفى ديسمبر عام ١٩٤٢ ، وضع ثلث أعضاء الكونجرس توقيعاتهم الى جانب توقيعات ١٥٠٠ شخصية أمريكية أخرى على بيان يطالب بانشاء جيش يهودى ..

وفى أكتوبر عام ١٩٤٣ ، نجح الضـغط اليهودى المنظم فى جعـل الكونجرس يصل الى حد اصدار قرار رسمى بتأييـد مطالب الحركة الصـهيونية فى اقامة دولة يهودية فى فلسـطين لولا أن الجنرال جورج مارشال ، القائد العام للجيش الأمريكى ، تدخل مطالبا بايقاف القرار ، لأن هذا قد يؤثر على المجهود الحربى فى منطقة حساسة هى المنطقة العربية

ولكن الجهد لم يتوقف .. انما استمر فى اصـدار القرارات والبيانات والنـداءات ، التى أدت بتراكمهـا من حيث الكم ، الى تغير كيفى فى

الموقف .. فقد أصبح الكونجرس الأمريكى فى أعوام قليلة مؤيدا للصهيونية .. بمزيج من الجهل بالموضوع والتأثر بالمصالح المحلية والضغط والاغراء والالحاح ..

وبقيت بعد ذلك السلطة التنفيذية العليا فى البلاد . وكالعادة : كانت الحركة الصهيونية تترك مهمة الاتصالات العليا بالشخصيات الكبرى الى رجلها المحنك فى هذا المجال منذ الحرب العالمية الأولى : حاييم وايزمان ..

وكان وايزمان يؤمن فى اتصالاته بحقيقة غريبة ثبت أنها فى محلها : كان لا يضيع وقته مع الخبراء وكبار الموظفين الرسميين لأن هؤلاء على خبرة كاملة بمثل هذه الموضوعات ، وكثير منهم يعرفون الشرق الأوسط جيدا ، فكانت الصهيونية تجد انه من الصعب دائما أن تضلل هؤلاء أو تحملهم على اتخاذ موقف ضد العرب ، أما الاتصال بالزعماء الكبار فكان أجدى: فهؤلاء خبرتهم بالمنطقة قليلة والتأثير عليهم من خلال المصالح السياسية المحلية ممكن .. ثم ان من سلطتهم أن يضربوا برأى الخبراء عرض الحائط ، الأمر الذى كان يحدث كثيرا كما يقول المؤلف

ويقول المؤلف أيضا : انه فى خلال الحرب الأولى كان رأى الأجهزة المحلية البريطانية ضد الصهيونية ، لكن وايزمان قهر هذه الأجهزة باستيلائه على عقول رؤسائهم السياسيين فى لندن . وقد كرر نفس الشىء فى أمريكا خلال الحرب العالمية الثانية

وقد كان روزفلت شخصية صعبة المراس بالنسبة لوايزمان ، بينما كان ترومان على العكس تماما ..

يقول المؤلف : ان وايزمان قابل روزفلت لأول مرة عام ١٩٤٠ ، ويومها حاول أن يجس نبض روزفلت ازاء مطلب اقامة دولة يهودية . ولكنه وجد روزفلت من أولئك الساسة الدهاة واسعى الأفق .. رفض أن يقع فى شراكه ، وقال انه يعتقد أن أى حل لمشكلة فلسطين يجب أن يكون حلا عربيا يهوديا

وفى عام ١٩٤١ ، ذهب وايزمان الى امريكا للمرة الثانية ، ولكنه لم

يتمكن من مقابلة روزفلت ، فقابل وزير الخارجية الأمريكية سمنر ولز الذى كانت الصهيونية قد كسبته الى جانبها بالفعل ، فانضم الى وايزمان فى محاولة اللف على روزفلت

وفى عام ١٩٤٢ ، أرسل روزفلت الى حاييم وايزمان يطلب منه القدوم الى أمريكا للمساعدة فى الأبحاث العلمية التى كانت جارية لانتاج المطاط الصناعى ، فسافر وايزمان الى أمريكا فى ابريل عام ١٩٤٢ ، ليبقى هناك أكثر من عام متصل : يعمـــل فى الكيمياء بعض الوقت ، وفى السياسة الصهيونية كل الوقت ، نفس قصة الحاقه بوزارة البحرية البريطانية فى الحرب الأولى للمساهمة فى أبحاث انتاج مادة الأسيتون التى تستخدم فى صنع المتفجرات !

وقبل عودته ــ بعد هذه المدة الطويلة ــ الى لندن ، تمكن من مقابلة روزفلت مرة أخرى بحضور وزير الخارجية سمنر ويلز ، ومرة أخرى وجد وايزمان ان روزفلت ما زال مصمما على أن أى حل يجب أن يتم بموافقة العرب واليهود معا . وقال له وايزمان : لو انتظــرنا موافقة العرب فلن نصل الى أى حل أبدا .. وأكد له ان خير وســيلة هى أن تقف أمريكا وبريطانيا معا وراء انشاء الدولة الصهيونية ، فلا يجد العرب مفرا من الرضوخ ازاء القوة الهائلة التى تواجههم ، وقال له : ان هذا هو ما حدث بالضبط يوم أصدرت بريطانيا وعد بلفور ولم يقدر العرب وقتها على عمل أى شىء ..

ولكن روزفلت لم يتزحزح . كان روزفلت يرى مصالح أمريكاالبترولية البازغة فى الشرق العربى . وكان ذاهبا الى رحلة سوف يجتمع فيها مع الملك عبد العزيز آل سعود ، فبدأت النقمة الصهيونية تتحول ضده ..

وفى ١٨ أغسطس عام ١٩٤٣ ، وصل الأمر الى تهديد روزفلت نفسه : فقد أعلن ايمانويل سيلر ، العضو الصهيونى فى الكونجرس ، أنه سيطالب باجراء تحقيق فى أسباب معارضة الخارجية الأمريكية لمطالب الصهيونية المشروعة . وكان هذا ضغطا غير مباشر على روزفلت ، عن طريق التلويح

باثارة تهمة معاداة السامية ، التى تثيرها الصهيونية فى وجه كل من يجسر على أن يختلف مع مخططاتها السياسية

ولكن روزفلت مات ، وجاء ترومان ، الذى وضع البيت الأبيض فى يد الصهيونية ، بعد أن وضعت الصهيونية يدها على الرأى العام ، وعلى الكونجرس ..

***

بعد أيام قليلة فقط من وفاة روزفلت ، وتولّى هارى ترومان مكانه .. كان الكاهن اليهودى الصهيونى « وايز » يزور الرئيس الجديد . وقبل المقابلة ، كان ادوارد ستيتينوس ، وزير الخارجية ، قد حذر ترومان من هذا اللقاء ، وحذره من الاستجابة لمطالب الصهيونية فى اقامة دولة يهودية فى فلسطين وفتح أبواب الهجرة غير مشروطة اليها . وشرح الوزير لرئيسه أيضا سياسة الرئيس الراحل روزفلت حول هذا الموضوع . ورغم هذا كله فقد كانت زيارة الكاهن الصهيونى « وايز » بداية الاندفاع السريع لترومان فى اتجاه الصهيونية .. أو كما يقول المؤلف «فىخدمةالصهيونية»

وعند هذه النقطة ، يحاول المؤلف أن يلتمس لترومان الأعذار على هذا التأييد المتزايد ..

يقول : ان ترومان ، بسبب نزعته الليبرالية ، كان دائما على استعداد لأن يتحمس لأداء خدمة لليهود أو لأى أقلية أخرى . وقد كانت هذه دائما وسيلة من وسائل الصهيونية فى كسب غير اليهود الى قضيتهم : بأن يوهموهم ان تأييد هجرة اليهود الى فلسطين يتفق مع المبادىء المتحررة ، فى حين ان الحل الحقيقى للمشكلة اليهودية هو فى استيعاب اليهود وذوبانهم فى الشعوب التى ينتمون اليها ويعيشون بينها ..

كذلك قان هذا فى رأى المؤلف نجاح للدعاية الصهيونية خلال الحرب ، التى ربطت فى الأذهان ربطا مضللا بين مشكلة اليهود فى أوروبا وبين هدف الصهيونية فى اقامة دولة اسرائيل ، رغم ان هذا شىء وذاك شىء آخر

وأخيرا يقول المؤلف : ان ترومان أشار فى مذكراته بعد ذلك الى انه

يعتقد أن وعد بلفور باقامة وطن قومى لليهود كان يتفق تماما مع مبادىء ويلسون فى حق تقرير المصير التى أعلنها بعد الحرب العالمية الأولى ، ولو أن ترومان تمعن قليلا لأدرك ان وعد بلفور كان عملا مناقضا على طول الخط لمبادىء ويلسون .. فلو طُبق حق تقرير المصير حقا فى فلسطين ، بسكانها العرب ، لما أمكن أبدا أن يقوم أى وطن قومى لليهود هناك ..

ولسنا نظن أن هذه التفسيرات التى ساقها المؤلف لشرح الحوافز التى جعلت ترومان يندفع فى خدمة الصهيونية الى هـذا الحد .. تفسـيرات صحيحة . فاذا قبلنا ان الرأى العـام العادى يمكن تضليله عن الملامح الأساسية لقضية ما ، فمن المتعذر أن نقبل امكانية تضليل رئيس دولة كبرى ، بما لها من أجهزة وخبراء ومستشارين عن حقيقة يمكن أن يدركها أى تلميذ : وهى ان حق تقرير المصير يتعارض مع غزو شعب ما بشعب طارىء غريب ..

فالمؤلف يغفل الاعتبارات المصلحية والضغط السياسى الداخلى ، الذى جعل ترومان يندفع هذا الاندفاع

***

ويعود المؤلف الى سرد تطور الحوادث فيقول انه مع صيف عام ١٩٤٥، أصبح نفوذ الصهيونية على ترومان واضحا .. ففى ٣١ أغسطس اتخذ ترومان أول موقف علنىّ له الى جانب الصهيونية ، بمطالبة مستر كليمنت اتلى رئيس الوزراء البريطانى بأن يقبل مائة ألف مهاجر صهيونى جديد فى فلسطين . وقد كان بيرنز ، وزير خارجية أمريكا ، قلقـا من رد فعل هذا الموقف فى البـلاد العربية ، فأعلن فى ١٨ أكتوبر « ان الحـكومة الأمريكية لن تساند أى قرار نهائى يغير الموقف الأساسى فى فلسطين بدون استشارة اليهود والعرب على السواء » . فكأن وزارة الخارجية الأمريكية كانت ما تزال تحاول أن تتشبث بالرأى الذى كان روزفلت قد اتخذه من قبل ، والذى كان ترومان قد أحيط به علما على أى حال

وقد اعترف ترومان بعد ذلك فى مذكراته بأنه بينما كان يحاول الضغط

على بريطانيا للتساهل فى مشكلة الهجرة الى فلسطين ، كان الصهيونيون يجعلون مهمته أكثر صعوبة بمحاولتهم استخدام النفوذ الأمريكى فى تأييد اقامة دولة يهودية . ففى ٣٠ أكتوبر عام ١٩٢٥ ، تلقى ترومان برقية من القسيسين : وايز ، وسيلفر ، يطالبان باتخـاذ موقف لا فى تأييد قبول مائة ألف مهاجر جديد فحسب بل وفى تنفيذ « روح » وعد بلفور باقامة دولة يهودية ، رغم ان هذا هو « روح » المبادىء الصهيونية ، ولا يمت الى « روح » وعد بلفور بشىء

ويقول المؤلف ان استغراب ترومان هـذا دليل آخر على سـذاجته السياسية ، فلو كانت لديه أية فكرة عن العمليات الصهيونية فى أمريكا خلال الحرب لأدرك أن استخدام الصهيونية لمشكلة اليهود الأوروبيين ولوعد بلفور ولكل شىء لم تكن له غاية سوى استخدام أمريكا فى اقامة دولة صهيونية ..

***

ومن هنا جاء قوله فى مذكراته « كنت أعتقد ان حل مشكلة اليهود الانسانية فى أوروبا أولى بالاهتمام من أهداف الصهيونية فى اقامة دولة يهودية » .. فهنـا أيضـا يتضـح عجز ترومان عن فهم الصـهيونية . فالصهيونية لم تهتم أبدا بمشكلة اللاجئين اليهود كقضية انسانية لها ألف حل ، انما كانت تستغلها فحسب فى اقامة دولة يهودية

ففى خلال الحرب مثـلا ، فكر روزفلت فى مشروع لاسكان اليهود اللاجئين فى بلاد العالم التى ترحب بهم . وعهد روزفلت بهذا المشروع الى « موريس . ل . ايرنست » ولكن ايرنست لم يلبث أن اكتشف أن المشروع الذى كان يظن انه عمل انسانى عظيم لانقاذ اليهود الأوروبيين ، انما تنظر اليه الصهيونية على انه عمل خطير يهدد أهداف الحركة الصهيونية ، فكتب يقول : « لقد دهشت ، بل وشعرت بالاهانة ، عندما وجدت زعماء اليهود يهاجمون هذا المشروع ويصفوننى بأننى خائن . وقد اتهمونى علنا بأننى أعمل فى هذا المشروع وأشجع استقبال اليهود فى شتى أنحاء العالم لكى

أخرب أهداف الصهيونية السياسية ، وهكذا وجدت أن كل أصدقائى من الصهيونيين يعارضون مشروع روزفلت . لقد وجدوا أن أهدافهم تهددها مشروعات روزفلت الكريمة الانسانية »

وقد تكرر هذا الموقف الصهيونى مرتين بعد نهاية الحرب ..

ففى ١٥ ديسمبر عام ١٩٤٦ ، عندما بدأت الأمم المتحدة تدرس مشروعا يدعو الدول الأعضاء الى فتح أبوابها للاجئين اليهود ، تقبل الصهيونيون هذا القرار بفتور شديد ..

كذلك عندما بدأ مجلس النواب فى الكونجرس الأمريكى عام ١٩٤٧ يدرس مشروعا لتقبل بعض المهاجرين فى الولايات المتحدة، عبر الصهيونيون عن نفس البرود ازاء المشروع : فهدف اقامة دولة يهودية سياسية كان يعلو عندهم فوق كل اعتبار . وما كانت قضية اللاجئين اليهود تهمهم الا بقدر ما يمكن استغلالها فى هدفهم السياسى

***

وقد كان عام ١٩٤٦ فى الولايات المتحدة عام انتخابات ، وانتهز الصهيونيون الفرصة طبعا للحصول على أكبر قدر من المكاسب ..

ففى ولاية نيويورك، عرف ان توماس ديوى، مرشح الحزب الجمهورى للرئاسة ، كان يفكر فى اصدار بيان فى تأييد الصهيونية لفائدة هذا البيان فى حملته الانتخابية . وعلى الفور ، أسرع « ليمان » و « ميد » المرشحان عن الحزب الديمقراطى لمنصبى محافظ المدينة ونائبها فى الكونجرس ، الى ترومان ليبلغاه النبأ ويلحا عليه فى ضرورة اصدار بيان مماثل باسم الحزب الديمقراطى ، وكانت النتيجة أن صدر بيان آخر من ترومان أعلن فيه تصميمه على ضرورة ادخال مائة ألف يهودى الى فلسطين ، وأصبحت الدولة والحزبان الكبيران على السواء منغمسين فى تأييد الصهيونية تماما . فلما تذمر ترومان بعد ذلك من اسراف الصهيونيين فى الضغط عليه ، لم يكن ممكنا أن يتراجع عن الموقف الذى اتخذه بالفعل . كان أسفه متأخرا : فقد لوى الصهيونيون بالفعل ذراع الدولة ،

وأصبح قيام دولتهم وشيكا

وقد كانت قيمة الحكومة الأمريكية الكبرى فى هذه المرحلة بالنسبة للصهيونية ، هى الضغط على حكومة حزب العمال فى بريطانيا ..

فعندما ألقى ارنست بيفن بيانا فى يونيو سنة ١٩٤٦ عارض فيه قبول مائة الف يهودى فى فلسطين ، رفع عضوا الكونجرس الامريكى عن ولاية نيويورك احتجاجا مباشرا الى الوزير البريطانى ، ولكن الأخطر من ذلك أن الصهيونية اتجهت الى أعضاء الكونجرس المرتبطين بها لتحركهم فى اتجاه هام : ففى ذلك الوقت بالضبط كان الكونجرس يدرس مشروعا لمنح انجلترا قرضا قدره ٣٧٥،٠٠٠،٠٠٠ دولار ويقول المؤلف ان تهديد الصهيونية لبريطانيا بعرقلة هذا القرض فى الكونجرس.، كان له أثر فعال جدا فى ارغام بريطانيا على التراجع واتخاذ موقف أكثر ملاءمةللصهيونية..

ويذكر المؤلف ان ارنست بيفن شكا من انه كان فى مقدوره أن يصل الى حل يرضى العرب واليهود فى فلسطين لولا اصرار ترومان على حكاية دخول المائة ألف يهودى ، وقال بالحرف الواحد : « اننى لا استطيع أن أحل أى مشكلة حلا وديا ، اذا تحولت هذه المشكلة الى ورقة فىانتخابات محلية ! » ..

***

ويعتقد المؤلف أن بيفن كان يرى بوضوح الفارق بين مشكلة اليهود كمشكلة اسانية عامة وبين قضية الصهيونية فى اقامة دولة سياسية يهودية فى فلسطين ..

كان هذا الوضوح فى فهم الموقف فى بريطانيا ، كما يقول المؤلف ، هو الشىء الذى لم يتحمله الصهيونيون ، فمضوا يتحدون الحكومة البريطانية الى أقصى الحدود ، بالضغط السافر عليها من خلال صنيعتهم ترومان ، وبالارهاب المسلح فى فلسطين نفسها .. فبينما كان وايزمان يعلن علنا استنكاره للارهاب المسلح الذى تمارسه عصابات « الهاجاناه » و « شتيرن » و « ارجون زفاى ليومى » كانت هذه العصابات كلها تعمل

فى انسجام دقيق تحت قيادة وتوجيه الحركة الصهيونية التى يتكلم وايزمان باسمها ..

وفى نفس الوقت ظلت عمليات الهجرة غير الشرعية مستمرة ، وقد نشر الصهيونيون دعاية واسعة فى العالم كله تقول ان تدفق اليهود من أوربا فى أعقاب الحرب الى فلسطين كان عملا تلقائيا غير مرتب ، فى حين أن كل الأدلة تؤكد أن هذه الهجرة كانت مدفوعة ومنظمة بواسطة شبكة صهيونية سرية واسعة . ويشير المؤلف هنا الى تقرير سرى لمخابرات الجيش الأمريكى الثالث فى أوربا ، يقول إنه تأكد وجود حركة صهيونية سرية هى التى تنظم تسلل ٢٠٠٠ يهودى كل أسبوع الى منطقة الاحتلال الأمريكى فى أوربا . وان هذه الحركة تضم كثيرين من العسكريين اليهود الذين كانوا فى صفوف الحلفاء . وكانت هذه الحركة تنظم بعد ذلك تسللهم من جديد الى شواطىء البحر المتوسط ، وهناك يركبون سفنا أعدتها الحركة الصهيونية لنقلهم الى فلسطين . وهناك تقرير آخر يقول إن أطعمة هيئة الاغاثة الدولية NRWA كانت تتحول الى مساعدة عملية التهريب غير الشرعية هذه ..

***

ومن أكبر الأدلة على أن هذه الهجرة لم تكن تلقائية ، ان كل المهاجرين كانوا من الشبان والشابات الأصحاء الذين يمكن أن يلعبوا دورا فى اقامة اسرائيل ، ولو كان الأمر أمر هجرة تلقائية لما تم هذا الفرز والاختيار

الدليل الثانى هو انه عندما أذاع الجنرال الأمريكى فردريك مورجان ، رئيس فرع هيئة الاغاثة فى المانيا ، هذا التقرير عن نشاط الصهيونية السرى ، لم يلبث أن صدر قرار بفصله من منصبه بتهمة معاداته للسامية !

كان الذى أصدر القرار هو مدير عام المنظمة ، هربرت ليمان : نفس الشخص الذى جاء ذكره منذ قليل ، حين ضغط على ترومان لاصدار بيان يؤيد هجرة اليهود الى فلسطين ..!

الدليل الثالث الذى يسوقه المؤلف على ان الهجرة لم تكن عفوية :

هو انه حين بدأت بريطانيا تنفذ اجراءات فعالة لايقاف الهجرة .. بدأت على الفور حملة اكتتاب علنية من اليهود البريطانيين لتسهيل هجرة اليهود الى فلسطين ..

ونصل بعد ذلك الى المرحلة التى طرحت فيها القضية على الأمم المتحدة

فازاء الشلل الكامل الذى أصيبت به بريطانيا من جراء الضغط الأمريكى الهائل والعمليات الارهابية الضخمة فى فلسطين والهجرة السرية التى لا تنقطع ، قررت بريطانيا أن تحيل الأمر الى الأمم المتحدة

وعندما ظهرت فى أفق الأمم المتحدة فكرة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، لم يكن التقسيم فى حد ذاته مرضيا لليهـود الذين يريدون فلسطين كلها ، ولكنهم أسرعوا بالموافقة لسبب تكتيكى : فالتقسيم يحمل فى بذوره الاعتراف بحقهم فى اقامة دولة سياسية ، وهذا نصر كبير وخطوة ضخمة الى الأمام بالنسبة لهم ..

وطبعا استطاع الصهيونيون أن يجعلوا الولايات المتحدة تعلن موافقتها على مبدأ التقسيم : وبهذا كسبوا نصف المعركة فى الأمم المتحدة ، بحكم النفوذ الهائل الذى كان لأمريكا فى المنظمة الدولية بعد الحرب

***

وفى نوفمبر ، اكتشف وايزمان ان الوفد الأمريكى حاول أن يكسب رضاء العرب عن فكرة التقسيم بأن عرض عليهم أن يكون النقب جزءا من الدولة العربية . وعلى الفور ، استطاع وايزمان أن يتصل بترومان ، وبعد لقاء واحد معه ، أرسل ترومان تعليماته الى الوفد الأمريكى بأن يسحب هذا العرض الخاص بالنقب من العرب !

يقول حاييم وايزمان فى مذكراته : « ان هذا القرار (من ترومان) فتح الطريق أمام قرار الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر .. »

وهذا صحيح !..

فأكثر الدول الأعضاء كانت واقعة تحت النفوذ المباشر لأمريكا بعـد الحرب . وقد بقيت بعض الدول الصغيرة تقـاوم : هاييتى ، ليبـيريا ،

الفلبين ، الصين ، أثيوبيا ، اليونان .. وهنا تحركت الأداة الصـهيونية الهائلة فى جميع أنحاء العالم تمارس ضغطا لا مثيل له .. ضغطها كان معظمه يوجه من خلال الولايات المتحدة الأمريكية : الحكومة الأمريكية تضغط . أعضاء الكونجرس يضغطون على الحكومات الأجنبية رأسا ، وعلى حكومتهم لكى تضغط على هذه الحكومات ، شركة فايرسـتون للمطاط طلب منها أن تضغط على حكومة ليبيريا لكى تصوت الى جانب التقسيم . القاضيان افرانكفورتر ومورفى يتصلان بحكومة الفيلبين .. وهكذا ..

***

وفى يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، أصدرت الأمم المتحدة قرارها بالتقسيم .

ويقول المؤلف : انه بعد أن تم اتخاذ القرار بالفعل ، بدأت المناقشة حول سلامة الأساليب التى اتبعتها الصهيونية ، وما زالت هذه المناقشة فى رأيه قائمة الى الآن

ففى ٢٧ نوفمبر ١٩٤٧ ، كتب حاييم وايزمان الى ترومان رسالة ينفى فيها « الاتهامات » الموجهة الى الحركة الصهيونية من انها تمارس ضغطا غير لائق على وفود الدول فى الأمم المتحدة . ولكن ترومان نفسه كتب فى مذكراته بعد ذلك يقول : « الحقيقة هى ان الضغط الذى وقع على الأمم المتحدة فى ذلك الوقت لم يكن له مثيل قط . وان البيت الأبيض تعرض لضغط فى نفس الوقت ، ولا أظن أن البيت الأبيض تعرض لمثـل هذا الضغط فى أى وقت . ان اصرار والحاح الزعماء الصهيونيين ، الذى تحركه دوافع سياسية مصحوبة بالتهديدات ، قد ضايقنى وأزعجنى حقا بل ان بعضهم كان يطلب منا أن نضغط على دول ذات سيادة للحصول على الأصوات المطلوبة فى الجمعية العامة »

***

ورغم أن القرار صدر بالفعل ، الا أن الضغط لم يخف . بقى هدف آخر مهم وهو : الاعتراف !

وفى مجال الاعتراف الدولى ، لابد من الحصول على اعتراف أمريكا أولا .. ليسهل الباقى ..

ويقول المؤلف : ان ترومان ازاء هذا الالحاح والضغط الذى زاد عن حده ، اضطر الى رفض مقابلة أى ممثل صهيونى ، ولكن بالرغم من تعليمات رئيس الجمهورية ، تمكن الصهيونيون من الوصول اليه

ففى مارس ١٩٤٨ طلب وايزمان مقابلة ترومان ، وبناء على تعليمات ترومان ، رفض هذا الطلب ، وفجأة تلقى ترومان زيارة من مستر « ايدى جالوبسون » ، وهو يهودى أمريكى وصديق حميم وقديم لترومان ، وأخذ يلح عليه فى أن يقابل وايزمان . ويقول المؤلف ان ترومان ضعف أمام هذا الضغط الذى لا مثيل له ، وقابل وايزمان فى ١٨ مارس ، وفى هذا اللقاء تحسن الجو من جديد بين ترومان ووايزمان ، وانفتح الباب لقرار أمريكى جديد هو : الاعتراف باسرائيل يوم ١٤ مايو ، بعد احدى عشرة دقيقة فقط من اعلان قيام الدولة

ويعقب المؤلف قائلا : ان أمريكا جرت عادتها دائما على أن تكون حذرة ومتمهلة فى اعترافها بأى حكومة جديدة . وخروجها عن هذه القاعدة ، على هذا النحو السافر ، يظهر لنا الى أى حد نجحت الصهيونية فى استخدام الساسة الأمريكية كأداة لها

الفصل الثانى

الوثائق الانجليزية

قراءة فى الوثائق السرية لمجلس
الوزراء البريطانى عن قضية فلسطين

أعلن فى لندن هذه السنة فتح باب الاطلاع على الأوراق السريه الرسمية للحكومة البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها .. وهى تضم الوثائق المتصلة بقصة وعد بلفور للحركة الصهيونية باقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين . وهو الوعد الذى كان نقطة البدء فى قيام دولة اسرائيل ..

وبعد ذلك كنت فى لندن بضعة أيام قليلة .. وفى لقاء مع صديق عربى يعمل هناك هو الاستاذ تحسين بشير الذى كان مشرفا على مكتب الجامعة العربية فى لندن أثرت الموضوع وسألته اذا كان ممكنا الحصول على صورة من هذه الوثائق . واستطاع أن يحصل على صور كاملة لعدد كبير من هذه الوثائق التى تهم المكتبة العربية والتاريخ العربى والسياسة العربية بغير شك وأرسلها الى جامعة الدول العربية حيث تكون تحت تصرف كل باحث عربى .. وهى الوثائق التى أقدمها على هذه الصفحات

والوثائق الانجليزية الرسمية ، لا تفاجىء المطلع على خفايا القضية الاسرائيلية بحقائق جديدة . فمن قرأ مذكرات وايزمان زعيم الحركة الصهيونية وأول رئيس لاسرائيل « التجربة والخطأ » ومن قرأ كتابا مثل « مدخل الى اسرائيل » للباحث الاسرائيلى النزيه « آل تايلور » وغيره من الكتب ، لايجد مايفاجئه .. الا فى القليل النادر .. ولكنه مع ذلك يجد الكثير مما يؤكد ، ويوضح ، ويعلم

وأول مايلفت النظر من القراءةالسرية الأولىللوثائق:أن الفكرة الشائعة بأن الحركة الصهيونية كانت خلال الحرب العالمية الأولى مع الحلفاء تماما ، وضد الألمان والاتراك ليست الا وهما . فالوثائق تدل على أن الصهيونيين كانوا يدرسون فى واقعية شديدة امكانيات استفادتهم من الأتراك ، والالمان ، والحلفاء الغربيين على السواء . وكانوا على صلة سرية بكل هذه القوى فى نفس الوقت . واذا كانوا قد اختاروا الحلفاء الغربيين فى النهاية ، فلأنهم وجدوا أنهم الجانب الذى سيكتب له النصر ، والمستعد لمنحهم الثمن الأكبر ..

***

وسواء كانت الصهيونية تتصل بكل الأطراف ، أو كانت فقط تحاول الضغط على كل طرف بالتلويح لاحتمال اتفاقها مع الطرف الاخر ، فالنتيجة واحدة ..

ففى احدى الوثائق الانجليزية الرسمية ، نجد تقارير أرسلها رجال المخابرات الانجليزية فى ألمانيا خلال الحرب ، عن النشاط الصهيونى واحتمالاته فى ألمانيا ..

تتحدث هذه التقارير عن رد الفعل الذى أحدثه قيام « جمال باشا » الحاكم التركى لسوريا وفلسطين بتهجير بعض اليهود من يافا .. فيروى ان الصحف الألمانية تنشر مقالات للضابط الألمانى ف . س . اندريز الذى يعمل فى هيئة الاركان العامة الالمانية عن ضرورة مساعدة الحركة الصهيونية .. وأن بعض النواب الألمان قدموا استجوابا فى الرايشيستاج « البرلمان » لارغام الحكومة الألمانية على الضغط على الحكومة التركية الحليفة لها فى الحرب . وتروى التقارير أيضا أن جمال باشا كان فى زيارة لبرلين وانه تباحث فى موضوع اليهود وفلسطين مع فون كوهمان وأحد زعماء الحركة الصهيونية

ماذا كان يدور من بحوث فى هذه الاجتماعات بين الألمان والأتراك وزعماء الحركة الصهيونية الذين لاتورد التقارير أسماءهم ؟ ..

كان البحث يدور حول المزايا والتنازلات التى يمكن أن يمنحها الحكم التركى للصهيونيين فى فلسطين ، مقابل تأييد يهود العالم لتركيا وألمانيا فى الحرب ضد الحلفاء ..

هذا مايرويه تقرير مخابرات انجليزى آخر يقول « وردت المعلومات التالية من مصدر يهودى موثوق به فى كوبنهاجن : قضى طلعت باشا بعض الوقت فى برلين لبحث المسألة الصهيونية ، وقد طلب من كراسو أفندى عضو مجلس النواب التركى « يبدو من الاسم أنه تركى يهودى » (١) المجىء الى برلين وفوضه فى معالجة المسألة اليهودية مع تأكيدات بقبول الحكومتين الألمانية والتركية السياسية التى يوصى بها

« وفى الأسبوع الماضى جمع كراسو مؤتمرا من ٢٤ زعيما يهوديا ألفوا لجنة من عشرين شخصا تضم الدكتور ناثان والدكتور جيمس سايمون والأستاذ لودجشتاين والاستاذ أوبنهايمر لابداء الرأى فى الموضوع

« وقد أوصت اللجنة باقامة شركة مصرح بها من جانب البرلمان على الطراز البريطانى من جميع اليهود فى تركيا . ولهذه الشركة التى يكون مقرها استانبول :

« السلطة فى منح الحكم الذاتى للمناطق التى يسكنها اليهود ، ليس فقط فى فلسطين وانما فى أى مكان آخر من الامبراطورية التركية ، ويكون لهذه المناطق السلطات الكاملة على الضرائب والشرطة والمؤسسات البلدية ..

« وقد وافق طلعت باشا على المشروع ووعد بادراجه فى شروط الصلح . والمعتقد أن هذا الاقتراح سوف يكون له تأثير كبير على اليهود فى أوربا لأن تركيا تتعهد فيه بشىء تملك تنفيذه من الان (لأن فلسطين كانت تحت الحكم التركى) فى حين أن ما تعد به بريطانيا قد يمكن تحقيقه فقط اذا انتهت الحرب بدخول سوريا وفلسطين تحت حكمنا ! »

---

(١) نشر الاستاذ عميد الامام فى جريدة الجمهورية فى ١٩٦٦/٢/٢٥ تعليقا على هذا الكلام أن اسم هذا النائب التركى هو عمنوئيل قره سو وهو زعيم يهود سالونيك وبالاضافة الى الدور الذى لعبه فى الاتصالات بين الصهيونيين والعثمانيين كان أحد ثلاثة انتدبهم مجلس النواب التركى لابلاغ السلطان بقرار عزله .

معنى هذا التقرير أن الحكومة التركية العثمانيه كانت قـد وافقت بالفعل على اعطاء اليهود فى فلسطين « حق الحـكم الذاتى بما له من سلطات كاملة على الضرائب والشرطة والمؤسسات البلدية » وهو قريب جدا من وعد بريطانيا لهم «بوطنقومى» .. الذى كان يسعى لاستصداره جزء آخر من الحركة الصهيونية ، يتركز نشاطه فى الطرف الآخـر من خط القتال .. فى بريطانيا

هكذا كانت الحركة الصـهيونية ، خلال الحرب العالمية ، تعمل فى المعسكرين المتحاربين ، على نفس المستوى ولنفس القضية ..

ما أهمية هذه الحقيقة ؟

أهميتها ان أسـاسا جوهريا من أسس الدعاية الصهيونية المسـتقرة كحقيقة بديهية فى أذهان الغرب : ان الحركة الصهيونية حركة وقفت الى جانب دول الغرب « الديموقراطية المتحررة » ضد الأوتوقراطية والرجعية المتمثلة وقتذاك فى الامبراطورية الألمانية والامبراطورية التركية العثمانية . أى أنهم اختاروا اختيار مبدأ .. أما حقيقة سعيهم على نفس المستوى مع المعسكر الآخر للوصول الى نفس النتيجة ، فقد أهيل عليهـا التراب وأسدل عليها ستار الصمت !

نعود الى وثائق الحكومة الانجليزية فنجد أن تقارير رجالها تحذر من خطر اتفاق الصهيونية مع تركيـا وألمانيـا على الأسس السابقة .. وتطالب بريطانيا وحلفاءها بالتصدى لهذا بمزيد من التنازل للصهيونية ..

اليهود .. أين هم ؟

حتى بعد صدور وعد بلفور الانجليزى بمنح اليهود وطنا قوميا فى فلسطين ، نجد تقريرا يقول « ان مشروع كراسو وطلعت باشا ينطوى على خطر التقليل من أثر وعد مستر بلفور ويعيد عطف العالم اليهودى على الدول المعادية لنا (ألمانيا وتركيا)

ويعمد التقرير الى عمل نوع من « تقدير موقف » كل من المعسكرين من اليهود فيقول « ان الأوراق الرابحة فى هذا الموضوع ما زالت فى

أيدى الحلفاء ثم يعدد أسباب هذا التقدير .. فأهم الجاليات اليهودية فى العالم تعيش فى أرض تسيطر عليها الحكومات المتحالفة ، مثل يهود الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وسالونيك « اليونان » وهؤلاء اليهود يعتمدون علينا من أجل مستقبلهم وهم يثقون بحسن نيتنا .. فى حين أن حكومات الأعداء لا تسيطر الا على يهود ألمانيا والنمسا والمجر وطائفة السيغاريم فى استانبول وادرنه وازمير ، وهم أقل أهمية من ناحية العدد والثروة ! صحيح أن يهود بولندا ورومانيا قد أصبحوا جزئيا تحت سيطرة العدو من جراء الاحتلال الألمانى العسكرى ، غير أنه ينبغى أن نذكر أن كثيرين منهم فروا الى داخل روسيا وان الباقين قد غيرت الثورة الروسية مشاعرهم نحو روسيا ، ففيما يتعلق بالصهيونية والاستيطان اليهودى نجد أننا نسيطر على أهم التجمعات السكانية التى سيتوقف عليها مستقبل الصهيونية ! أما فيما يتعلق بالمصالح اليهودية العالمية ، منفصلة عن المصالح الصهيونية الصرفة ـ فنحن أيضا فى وضع أقوى من وضع دول الأعداء »

ثم نجد بعد ذلك ، فى هذا التقرير الرسمى من وثائق مجلس الوزراء البريطانى ، دراسة لتقرير موقف المعسكرين المتحاربين من « اليهود القاطنين حاليا ضمن حدود الامبراطورية العثمانية والمراكز اليهودية ذات الأهمية التاريخية والدينية فى نطاق هذه الامبراطورية » . وفى هذه الدراسة جدل يقارن بين اليهود الواقعين تحت سيطرة الحلفاء « ١٦ مستعمرة على طول الخط الحديدى بين يافا والقدس تضم ٣٠٥٠ مستوطنا و ١٥و٦٢٧ فدانا و ٤ مستعمرات على خط العوجة تضم ٢٥٤٠ مستوطنا و ٥١٨٧ فدانا » وبين اليهود الواقعين على الجانب الآخر من خط القتال تحت سيطرة الأتراك « ٢٤ مستعمرة فى الجليل وسهل شارون تضم ٤٥١٥ مستوطنا و ٦٥ر٩٧٣ فدانا » ثم يعدد مناطق التجمع ذات القيمة المعنوية الأخرى « القدس ٧٠ ألف يهودى ، نابلس ٨ آلاف يهودى ، بغداد ٥٠ ألف يهودى »

والقتال بين الانجليز والأتراك فى الشرق العربى مستمر . فلما تسقط القدس فى يد الانجليز ، نجد التقارير الرسمية تقول ان هذا يرجح كفة الحلفاء فى نظر الصهيونيين « فالقدس هى عصفورنا الذى فى اليد ، وقد بات من المشكوك فيه أن يتمكن الأتراك من استرداد القدس ، فى حين أن الانجليز ينتظر أن يضموا اليها باقى فلسطين » .. فالحلفاء الآن أكثر اطمئنانا الى تأييد الحركة الصهيونية واليهودية العالمية لهم ، بعد اللعب على الحبل بين الانجليز والألمان .. وان بقى القلق من مشروع طلعت باشا وكراسو أفندى .. فيقول التقرير « هكذا يبدو أن الأوراق الرابحة أصبحت فى أيدينا وانه من السهل علينا أن نقضى على أثر مشروع كراسو بدعاية مضادة ــ رغم انه لايجب أن نتركه دون جواب »

نعم ، ان الأمر مازال موجبا للقلق ، فحتى وعد بلفور وسقوط القدس فى يد الانجليز ، يسجل تقرير انجليزى من تقارير مجلس الوزراء أنه فى يوم ٢٣ يناير ١٩١٨ ، أذاع الراديو الألمانى تصريحا لطلعت باشـا الى مراسل جريدة نوسيش زايتونج فى استانبول ، بحضور شيخ الاسلام ، قال فيه : « ان وعد مستر بلفور هو أكذوبة » ثم أخذ يعدد التنازلات التى تعرضها الحكومة التركية على الحركة الصهيونية ، وفى مقدمتها : قبول مبدأ الهجرة اليهودية الى فلسطين فى حدود امكانيات البلاد ومنح الحكم الذاتى لكل تجمع يهودى أكثر من خمسة آلاف نسمة !

ولاشك أنه ، الى جانب النشاط الصهيونى فى لندن وفى برلين على السواء ، كان هناك تنسيق بين النشاطين هنا وهناك . صحيح أن النشاط الأعظم كان مبذولا فى لندن تحت زعامة حاييم وايزمان ، ولكن وحدة الحركة الصـهيونية السابقة على نشوب الحـرب ، وانتماء يهود ألمان وانجليز وروس ومن شتى الجنسـيات الى هـذه الحركة الصهيونية الواحدة ، كان يسمح لهم بالتنسيق بين النشاطين فى العاصمتين المتحاربتين

ففى وسـط الوثائق يفاجئنا تقـرير مخابرات انجليزى من برن فى سويسرا مرفوع الى مجلس الوزراء البريطانى خلال الحرب يقول بالنص

« بالاشارة الى وزارة الحرب ٢٢٣ المضبطة الثانية ، صرح اللورد روبرت سيسيل بأنه يبدو ان اجتماعا ما قد عقد بين بعض رجال المال فى برن التقى فيه ــ على الأرجح ــ المسيو كايو ، وأحد الرعايا الانجليز ويدعى كينجام وأحد رجال البنوك المصرية « ! » برجال البنوك السويسرية والفرنسية . وقد بذلت محاولات لمعرفة حقيقة ما حدث بالضبط من مستر كينجام . واذا ظهرت أدلة على أن أحد الانجليز قد تباحث مع رعايا الأعداء ، فان الاجراءات سوف تتخذ ضده ! »

وأغلب الظن أن المشار اليه بأنه أحد رجال البنوك المصريين هو أحد اليهود المصريين .. ففى ذلك الوقت ، أيام الحرب العالمية الأولى ، لم يكن المصريون الآخرون ــ من مسلمين وأقباط ــ مشتغلين بالبنوك بارزين فيها الى حد الدخول فى اتصالات دولية على هذا المستوى ..

ولكن أغرب مافى التقرير أنه يتحدث عن « رعايا انجليز ورعايا ألمان » . فى حين أن الحركة الصهيونية كانت قد حققت موقفها : الصهيونى الألمانى ليس ألمانيا والانجليزى ليس انجليزيا . فالصهيونية جعلت من اليهودية قومية ، وهى تتطلب من اليهودى أن يكون ولاؤه السياسى لها ، لا للوطن الذى عاش فيه وحمل جنسيته ..

واذا كان الصهيونيون قد لعبوا هذه اللعبة طوال الحرب ، فحاولوا التفاهم مع كل طرف من الطرفين المتصارعين على ماينالونه ساعة النصر فان الانجليز بدورهم قد لعبوا نفس اللعبة المزدوجة على مستوى آخر : فقد كانوا يعدون العرب بشىء ، ويعدون الصهيونيين بشىء آخر ، ليستفيدوا من الطرفين فى كسب الحرب ..

أما دور الساذج ، فلم يلعبه مع الأسف سوى العرب !!

ففى وثائق مجلس الوزراء البريطانى مذكرة تقول « قال مدير المخابرات العسكرية أنه تلقى برقية من السير ريجنالد وينجت تقول ان الجنرال كلايتون « مدير المخابرات الانجليزية فى مصر » أوصى بضرورة ارسال الفيلق العربى وعدده حوالى ألف رجل من مصر الى العقبة

لمساعدة فيصـــل فى أعماله . وقال مدير المخابرات العســكرية انه من الضرورى استشارة الفرنسيين ، ولهـــذا أبرق الى باريس والى الجنرال - اللينبى « قائد القوات البريطانية فى الشرق » يسأله المشورة »

وفى مذكرة أخرى « بالاشارة الى برقية السير ريجنالد وينجت رقم ١٢١٢ بتاريخ ١٥ نوفمبر ، ونظرا للاهمية الكبرى للتعاون العربى فى هذه اللحظة ، فان وزارة الحرب قررت زيادة المساعدات المقدمة للعرب من ٢٠٠ ألف جنيه الى ٥٠٠ ألف جنيه طبقا لما هو مقترح »

وهناك مراسلات كثيرة مع الجنرال مود ، قائد الجيش الانجليزى الذى كان يزحف على العراق بالتشديد فى الهجوم لمســاعدة القوات الانجليزية الزاحفة على فلسطين ، ولتعطيل الأتراك وشـــل حركتهـــم العسكرية فى شبه الجزيرة العربية

والتقارير عن الحالة العسكرية خلال هذه الفترة كثيرة ..

« .. اتخذت الترتيبات لتعاون العرب فى تدمير أجزاء من سكة حديد الحجاز شرقى نهر الأردن وبين حلب ودمشق . وجميع قبـــائل العرب تقريبا متعاونة معنا فى هذا العمل ولكن لايبدو أن هناك أملا كبيرا فى اقدام الدروز على مساعدتنا قبل أن يصل الانجليز الى نقطة أكثر تقدما نحو الشمال »

هكذا كانت مســاعدة العرب للانجليز جوهرية فى احرازهم النصر العسكرى على الأتراك فى الشرق العربى . وهو ماكوفئوا عليـــه باقامة اسرائيل فى بلادهم !

لقد تكلل العمل العسكرى بسقوط القدس ، فهذه مذكرة سريعة إلى مجلس الوزراء البريطانى تقول « ذكر رئيس أركان حرب الامبراطورية إن القدس قد عزلت وسلمها عمدتها الى القائد البريطانى الذى ذكر انه لن يدخل المدينة رسميا قبل يوم ١١ ديســـمبر . ويقرر المجلس اعلان النبأ على مجلس العموم البريطانى بعد ظهر ذلك اليوم .. »

وفى صفحة واحدة فى وثائق الحكومة الانجليزية نجد خبرين متواليين:

الاول يقول « استقبلت وزارة الحرب وفدا برئاسة اللورد روتشيلد لتهنئة الحكومة بالاستيلاء على القدس نيابة عن ممثلى الحركة الصهيونية » ..

والثانى يقول « استقبلت وزارة الحرب وفدا عربيا برئاسة الكونت زغيب يمثل الفلسطينيين والسوريين العرب مسلمين ومسيحيين . وقد تلا الكونت زغيب رسالة تهنئة الى حكومة صاحب الجلالة والقوات البريطانية بمناسبة الاستيلاء على القدس »

قمة الانتصار للسياسة ذات الوجهين : العرب والصهيونيون على السواء يهنئون بريطانيا بفتح القدس .. وكان العرب هم المخدوعون !..

أما الجنرال اللينبى الذى دخل القدس على رأس قواته ، فقد كانت تؤرقه مشكلة أخرى ..

نجدها فى وثيقة تقول « قدم رئيس هيئة أركان حرب الامبراطورية تقريرا الى وزارة الحرب عن برقية تلقاها من الجنرال اللينبى يسأل فيها عن الاعلام التى ترفع فى حالة احتلال الحلفاء مدينة القدس »

وترد وزارة الحرب البريطانية الرد الجدير بسياسة الدهاء والغموض والالتفاف « انه نظرا للطابع الفريد للمدينة ، وللمشاكل الدبلوماسية والسياسية المعقدة التى تثيرها ، فانه يجب ابلاغ الجنرال اللينبى بوجوب عدم رفع أى علم فى حالة احتلال قوات الحلفاء للمدينة !! »

***

وبعد ..

اذا كانت هذه الفقرات السريعة من الوثائق الرسمية الانجليزية ، تجرد الحركة الصهيونية من المثالية التى تدعيها وتنصب بها على العالم ، وتبرهن على أنها لم تقف مع معسكر معين تؤمن به ايمانا مبدئيا .. وانما كانت تبحث عن تحقيق هدفها من كل سبيل . فالسؤال التالى هو :

ما الذى جعل الانجليز والأتراك والألمان يتنافسون الى هذا الحد على خطب ود الحركة الصهيونية ومحاولة كسبها الى صفوفهم ؟

لقد كان من أهم أسلحة الحركة الصهيونية فى ذلك الوقت أن تقنع انجلترا بأنها ــ أى الحركة الصهيونية ــ هى التى تمثل الأغلبية الساحقة ليهود العالم . ذلك أن هذه المسألة كانت محل نزاع شــديد فى ذلك الوقت . فالواقع أن الحركة الصهيونية لم تكن الا تيارا من تيارات شتى تتصارع يهود العالم . وكانت نقطة الخلاف ببساطة هى أن الصهيونية تريد أن تحول الدين اليهودى الى « قومية » و « جنسية » ولذلك كان يطلق على الصهيونيين اسم « اليهــود القوميون » .. هذا فى حين أن التيارات الأخرى كانت ترفض أن يتحول الدين اليهودى الى قومية ، فيفقد اليهودى الانجليزى قوميته الانجليزية واليهودى الفرنسى قوميته الفرنسية .. وهكذا .. ويصبح هؤلاء الانجليز اليهود ــ مثلا ــ مهددين دائما بأن يتهموا بأن ولاءهم ليس للبلاد التى أنجبتهم ، وهى انجلترا .. الأمر الذى يحرك نزعة معاداة السامية فى تلك البلاد من جديد ..

كان هذا هو الرأى السائد بين اليهود الانجليز ، ولكن زعماء الحركة الصهيونية صارعوا هذا التيار صراعا شديدا ، وتمكنوا من أن تكون لهم اليد العليا فى الدعاية والتأثير كما تمكنوا من أن يكون لهم صوت مسموع لدى الحكومة الانجليزية

نجد مظاهر هذا الصراع واضحة فى وثائق الحكومة الانجليزية ، فهذه فقرات من رسالة من وزير شئون الهند فى مجلس الوزراء البريطانى ، الى لورد سيسيل يفند فيها زعم الصهيونيين انهم يمثلون أغلبية اليهود فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩١٧

« عزيزى سيسيل

« بالاشارة الى المناقشة التى دارت بيننا بشأن موضوع الصهيونية وما أعربتم عنه مع اللورد بليز من أن آرائى التى أعتنقها هى آراء الاقلية اليهودية . انى ازاء هذا قد حاولت دراسة حقيقة الموضوع على قدر المستطاع ، وهأنذا أعطيك الحقائق كما تأكدت من صحتها فيما يلى :

« لقد حاولت أن أعرف اذا كان الصهيونيون لهم الأغلبية فى صفوف

اليهود وما مقدار هذه الأغلبية بالنسبة لليهود الانجليز . وبما أنه لايوجد أى استفتاء فى هذا المجال فاننى لا أجد الا دليلا غير مباشر هو التصويت الذى جرى فى صــفوف هيئة تمثل الجالية اليهودية بصفة عامة وهى « هيئة المندوبين اليهود »

« ان هناك لجنة مشتركة من « هيئة المندوبين اليهود » و « الجمعية الانجليزية اليهودية » . وهذه اللجنة المشتركة نشرت فى جريدة التايمز بتاريخ ٢٤ مايو خطابا حبذت فيه اعطاء اليهود فى فلسطين حقوقا مدنية وحرية دينية وتسهيلات للهجرة والاســتيطان الخ .. ولكنها عارضت الدعوة الصهيونية فى نقطتين هما :

« أولا : رغبة الصهيونية فى الاعتراف بوضع قومى لليهود المهاجرين الى فلسطين على أساس انهم يتمتعون بطابع وطنى بالمعنى السياسى المفهوم

« ثانيا : رغبة الصهيونية فى أن يتمتع يهود فلسطين ببعض الحقوق الخاصة زيادة على الحقوق التى يتمتع بها باقى السكان ..

« فالبيان يعارض فكرة الوطنية اليهودية وهى أساس مبدأ الصهيونيه

« وهذا التصويت الذى كان بمثابة الاختبار العددى الوحيد الذى استند عليه فى الادعاء بأن الصهيونيين يكونون غالبية اليهود البريطانيين ــ هذا التصويت ــ كانت نتيجته ٥٦ ضد ٥١ صوتا

« ويجب أن نذكر فى صدد هذا الموضوع أن مبدأ الصهيونية كان قد اختلط أثناء مناقشته ببعض المسائل الأخرى الفــرعية التى أثيرت نتيجة لعدم التصرف السليم فى استعمال السلطة المفوضة للجنة

« وحتى لو صرفنا النظر عن ذلك ــ ولا ينبغى صرف النظر عنه ــ فان كل مايمكن أن يقال هو أن الآراء التى اعتنقها والتى صرحت بهــا فى مجلس الوزراء يعتنقها أيضا نصف الممثلين تقريبا للهيئة الوحيدة التى أفصحت عن رأيها

« واننى لا أستطيع ترك هذا الموضوع جانبا وأنا على وشك السفر من انجلترا والتغيب لبضعة أشهر دون أن أذكرك بأن الصهيونية كان مصدرها

أجنبيا ، وقد أنشأها ثيودور هرزل من النمسا ، كما أن خليفته فى زعامة الحركة الصهيونية كان دافيد بدوره أو تووار بورج من برلين

« وهكذا نجد أن اليهود الأجانب ــ غير الانجليز ــ هم الذين لعبوا دورا كبيرا فى الحركة الصهيونية فى بريطانيا

« ومن بين زعمائها المعروفين فى بريطانيا الدكتور جاستر وهو من رومانيا والدكتور هيرتز من النمســا ، والدكتور حاييم وايزمان الذى أعتقد أنه من روسيا ــ وقد يكون هنالك زعماء للهيئات الصهيونية فى بريطانيا ممن ولدوا فى بريطانيــا . ولكن المؤكد أن اليهود الأجانب المولودين فى الخارج هم الذين يكونون الجزء الأكبر من الصهيونيين فى بريطانيا ..

وهكذا يتبين أننى كنت على صواب فى قولى ان اليهود المولودين فى بريطانيا هم فى غالبيتهم ضد الصهيونية وأن محاربة هذا المبدأ هى فكرة يعتنقها نصف عدد اليهود البريطانيين ــ على الأقل ــ اذن فما هو السبب الذى جعل حكومتنا تقوم بأى شىء فى هذا الموضوع وسط مشغولياتنا الجسام وحيرتها ؟

« لقد ذكر أثناء المناقشة بمجلس الوزراء أن قدرة الصهيونيين على مساعدتنا لدى أمريكا كان أحد الأسباب الداعية لذلك . ورغم أننى لم أقرأ صــيغة البرقية التى أرسلتها الى أمريكا الا أنه يبــدو أن الرئيس الأمريكى ولسون لايرغب فى اصدار تصريح قاطع بشأن أى التزام حقيقى حاليا . لذلك فاننى مضطر أن أنصح مرة أخرى بعدم استعمال أى صيغة كلامية من قبل أى ممثل للحكومة البريطانية ترمز الى وجود شعب يهودى بالمعنى السياسى أو أن اليهودى الذى يقطن حاليا فى بريطانيا أو فرنسا أو ايطاليا أو أمريكا يعتبر مقيما فى المنفى

« ان مثل هذا التصريح سيكون بمثابة صدمة قاسية بالنسبة لليهود البريطانيين الذين يعشقون بريطانيا التى ولدوا فيها والتى ولد أجدادهم أيضا فيها طوال أجيال عديدة والذين يحبون انفاق حياتهم فى العمل من

أجلها والذين تتركز أعظم آمالهم فى الاستمرار فى خدمتها »

ان وزير الهند « مونتاجو » هذا كان الوزير اليهودى الوحيـد فى الحكومة الانجليزية ، وهو يقول لزملائه الوزراء فى الخطاب السابق ان يهود انجلترا فى غالبيتهم ضد الصهيونية . وهم يرفضون أن يصبحوا أبناء قومية أخـرى اسرائيلية . بل انه يذهب الى أكثر من ذلك ويقـدم الى مجلس الوزراء البريطـانى مذكرة عنيفة يهـاجم فيها ماقررته حكومة انجلترا من اصدار وعد بلفور ، مذكرة جعل لها عنوانا عنيفا هو « معاداة الحكومة الانجليزية الحاضرة للسامية » ، وهى مذكرة موجودة فى وثائق الحكومة الانجليزية الرسمية ، بعنوان : « معاداة الحكومة الحاضرة للسامية »

وقد جاء فى هذه المذكرة مايلى :

« لقد وقع اختيارى على هذا العنوان لهذه المذكرة لا بدافع شعور بالعداء ولا لوسيلة للشجار مع وجهة نظر معادية للسامية يحملها بعض الزملاء الوزراء .. كل ماهناك أننى أود أن أسجل ما أعتقد من أن السياسه التى تتبعها حكومة صاحب الجلالة هى سياسة عداء للسامية من ناحية النتيجة مما قد يجعلها نقطة تجمع للمعادين للسامية فى كافة دول العالم

« ويؤكد هذا الرأى المراسلة التى تسلمتها أمس والتى جرت بين لورد روتشلد وسير بلفور

« ان خطاب لورد روتشلد مؤرخ فى ١٨ يوليو بينما رد مستر بلفور سيؤرخ فى أغسطس عام ١٩١٧ وأخشى أن يكون اعتراضى قد جاء متأخرا وأن الحكومة ربما أصبحت عضوا فى مجلس الوزراء . الا أننى أشعر باعتبارى الوزير اليهودى الوحيد فى الحكومة أن من حقى أن يمنحنى زملائى فرصة للتعبير عن وجهة نظر أتمسك بها تمسكا شديدا

« اننى أؤمن ايمانا راسخا بأن هذه الحرب قد سددت ضربة لفكرة « الدولية » وانها قد فتحت المجال لبعث الشعور بالقومية الذى كان قد بدأ فى التراخى .. فقد أصبح من المتفق عليه ضمنا بين الساسة فى معظم

الدول أن اعادة توزيع الاقاليم بعد الحرب يجب أن يتم على أسس قومية ..

« وفى هذه الظروف تقترح الحكومة الموافقة على تكوين أمة جديدة بوطن جديد فى فلسطين . والمفهوم أن هذه الأمة ستتكون من اليهود الروس والانجليز والرومانيين وغيرهم

« لقد بدت الصهيونية لى دائما عقيدة سياسية لايمكن أن يؤمن بها أى مواطن مخلص للمملكة المتحدة ، ذلك أن اليهودى الانجليزى الذى يتطلع الى جبل الزيتون ويتوق الى اليوم الذى يستطيع فيه أن ينفض عن حذائه التراب البريطانى ويعود الى نشاطه الزراعى فى فلسطين انما يعترف بذلك بأنه لايصلح للاشتراك فى الحياة العامة فى بريطانيا العظمى .. بل ولا يصلح لأن يعامل كمواطن انجليزى . لقد كان اعتقادى دائما أن الذين عكفوا على هذه العقيدة كانوا مدفوعين الى ذلك بسبب القيود المفروضة على حرية اليهود فى روسيا ولكن بعد أن تم الاعتراف بهؤلاء اليهود باعتبارهم يهود روسيين ، ومنحوا كافة حرياتهم ، يبدو من غير المفهوم أن تقدم الحكومة البريطانية على الاعتراف الرسمى بالصهيونية وأن يخول مستر بلفور سلطة التصريح بأنه يجب أن يعاد تأسيس فلسطين « كوطن قومى للشعب اليهودى » . وأنا لا أعلم على وجه التحديد ماينطوى عليه هذا .. وان كنت أستنتج انه يعنى أن على المسلمين والمسيحيين فى فلسطين أن يخلوا السبيل لليهود الذين سوف يتمتعون بالأفضلية ، ويصبحون مرتبطين بفلسطين ارتباط الانجليز بانجلترا أو الفرنسيين بفرنسا . كما يعنى ذلك أن الأتراك يعتبرون أجانب مثلهم فى ذلك مثل اليهود ، الذين سوف يعاملون منذ الآن كأجانب فى كل بلد آخر غير فلسطين

« اننى أحب هنا أن أؤكد أربعة مبادىء :

١ ـ لاتوجد أمة يهودية . ان أفراد أسرتى مثلا الذين عاشوا فى هذا البلد عدة أجيال لايربطهم بأى أسرة يهودية فى أى بلد آخر أى اتفاق

فى رأى أو رغبة ــ ولا يجمعهم بها أى شىء أكثر من كونهم يعتنقون بدرجات متفاوتة نفس الديانة . ولا يصح القول بأن اليهودى الانجليزى واليهودى المغربى ينتميان لأمة واحدة تماما كما أنه لايصح القول بأن المسيحى الانجليزى والمسيحى الفرنسى ينتميان لأمة واحـدة أو ربما لجنس واحد ..

٢ ــ اذا قيل لليهود ان فلسطين هى وطنهم القومى فان كل دولة أخرى سوف تتجه فورا الى التخلص من مواطنيها اليهود وبذلك سوف نجد فى فلسطين عددا ضخما من السكان يقومون بطرد أهلها الحاليين وبأخذون أحسن ما فى البلد . ولسـوف يحضر هؤلاء من كافة أجزاء الكرة الأرضية يتحدثون مختلف اللغات ولا يستطيعون التفـاهم مع بعضهم البعض الا عن طريق المترجم

« ان الحياة التى عاشها اليهود البريطانيون والأهداف التى وضعوها نصب أعينهم والدور الذى لعبوه فى حياتنا العامة ومؤسساتنا يجعل من حقهم أن يعتبروا بريطانيين يهودا أكثر منهم يهودا بريطانيين . اننى على أستعداد لحرمان كل صهيونى من الحقوق المدنية بل اننى أجد دافعا قويا لتحريم المنظمة الصهيونية باعتبارها غير قانونية وضـارة بالمصالح الانجليزية ..

٣ ــ اننى لا أعترف بأن فلسطين اليوم مرتبطة باليهود أو أنها مكان ملائم كى يعيشوا فيه .. ان الوصايا العشر قد أعطيت لليهود فى سيناء . حقا ان فلسطين تلعب دورا كبيرا فى التـاريخ اليهودى . ولكن الأمر كذلك أيضا بالنسبة للتاريخ الاسلامى الحديث . وقد أصبحت فلسطين بعد عهـد اليهـود تلعب دورا أكبر من أية دولة أخرى فى التـاريخ المسيحى . قد يكون المعبد اليهودى موجودا فى فلسطين ولكن موعظة الجبل وصلب المسيح قد حدثا هناك أيضا

« وإذا كانت ذاكرتى لاتخوننى ، فان تعداد اليهود فى العالم يبلغ ثلاثة أضعاف العدد الذى تستطيع فلسطين أن تستوعبه حتى ولو طرد

جميع السكان الموجودين حاليا . أى أن ثلث عدد اليهود فقط هو الذى يستطيع العودة الى فلسطين .. فماذا يحدث للباقين ؟ ..

« اننا كيهود انجليز نتعلم فى المدارس العامة والجامعات ونلعب دورنا فى السياسة وفى الجيش والخدمة المدنية فى بلدنا أكثر من ذى قبل . ومن دواعى سرورى أن التعصب ضد التزاوج قد بدأ يلين .. ولكن اذا أعطى اليهودى وطنا قوميا فلا شك أن الدافع لحرماننا من حقوقنا كمواطنين بريطانيين يصبح أقوى كثيرا . وسوف تصبح فلسطين الحى اليهودى للعالم . ولماذا يعطى لورد روتشلد تلك الأهمية الكبيرة للفروق بين اليهود البريطانيين واليهود الأجانب ؟ ان جميع اليهود فى شتى أنحاء العالم سيصبحون فى حالة اقامة الوطن القومى فى فلسطين يهودا أجانب

اننى لا أعلم كيف سيتم اختيار ثلث يهود العالم الذين لا تتسع فلسطين لأكثر منهم ، ولكن اليهودى بغض النظر عن البلد الذى ينتمى اليه سوف يصبح لزاما عليه أن يختار أمرا من اثنين .. اما أن يذهب الى فلسطين ويعيش مع يهود آخرين غرباء عنه أو أن يبقى كضيف غير مرغوب فيه فى البلد الذى يعتقد أنه ينتمى اليه

ولا يدهشنى أن تقدم الحكومة على هذه الخطوة بعد خطوة تكوين لواء يهودى فى جيشها . وهأنذا فى انتظار أن أسمع أن أخى الذى جرح فى الفرقة البحرية أو ابن أخى فى حرس المشاة قد يضطر تحت ضغط الرأى العام — أو بسبب تنظيمات الجيش — أن يصبح ضابطا فى لواء يتكون أساسا من أناس لايفهمون اللغة الوحيدة التى يتكلمها وهى الانجليزية . ان انشاء فرقة يهودية يجعل موقف اليهود فى الالوية الأخرى أكثر صعوبة ويفرض جنسيته على الذين لايشتركون مع بعضهم البعض فى شىء »

هذه المذكرة البديعة من الوزير اليهودى الوحيد فى الوزارة تؤكد بما لايقبل الشك أن الأمر لم يكن أمر ارضاء اليهود فى انجلترا ، ولا أمر اقتناع بعلاقة خاصة تربط اليهود بفلسطين ...

ولكن المسألة كانت كلها سياسية مصلحية تماما ...

لقد أفلح الصهيونيون فى أن يقنعوا انجلترا بأنهم فى مقابل اعطائهم وطنا قوميا فى فلسطين سوف يقدمون لها ثلاثة أشياء :

الأول : هو تأييد يهود العالم ، خصوصا فى روسيا التى كانت الثورة الشيوعية قد انفجرت فيها وأخرجتها من الحرب ، وكانت انجلترا تبحث عن أنصار فى روسيا يمهدون لحروب التدخل التى خاضتها انجلترا بعد الحرب ضد روسيا ..

وفى الأوراق الرسمية البريطانية اشارات كثيرة الى أثر الوعد الانجليزى للصهيونية على يهود روسيا خاصة وشرق أوروبا عامة .. وفى رسالة للورد كيرزون اشارة الى القيمة الدعائية الكبرى لهذا الوعد .. ويبدو هذا الهدف السياسى سافرا وقحا فى الوثيقة التى تقول : « لقد بات من المرغوب فيه ، ومن الناحية الدبلوماسية والسياسية البحتة ، اصدار وعد يعطف على آمال المواطنين اليهود .. فلو أننا استطعنا اصدار مثل هذا الوعد ، فاننا سنكون قادرين على استخدامه دعاية مفيدة للغاية فى كل من روسيا وأمريكا »

لا انسانية فى الأمر اذن ولا عاطفية ولا أى شىء ... الا المصلحة السياسية البحتة ... يضحى من أجلها بكيان شعب فلسطين كله !

ثانيا ــ الشىء الثانى الذى أقنع الصهيونيون انجلترا بأنهم سوف يقدمونه لها هو مساهمتهم فى اقناع أمريكا بدخول الحرب الى جانب انجلترا .. فحتى ذلك الوقت لم تكن أمريكا قد اشتركت فى الحرب ..

وثمة اشارات الى ذلك كثيرة فى الوثائق .. وعلى هذا الوتر الحساس كان الصهيونيون يدقون بشدة واستمرار

فى احدى الوثائق نجد مذكرة تقول « بالاشارة الى الاقتراح القائل بتأجيل المسألة (أى تأجيل اصدار وعد بلفور) فان القائم بأعمال وزير الخارجية يذكر ان وزارة الخارجية البريطانية تعرضت لضغط شديد بسبب هذه المسألة . فان هناك منظمة ذات قوة بالغة وحماسة فائقة خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والمعتقد أن هذه المنظمة

ستسدى مساعدة كبرى للحلفاء . فعدم القيام بعمل ما فى هذا الصدد معناه فقد هذا التأييد »

وتبـدأ أمريكا فى الظهور فى الصـورة .. فهذه المذكرة تنتهى الى اقتراح « ضرورة الحصول على رأى الرئيس الأمريكى ويلسون قبل منح أى وعد يعطف على الحركة الصهيونية »

فانجلترا تريد أن تربط أمريكا اليها .. وأن تقبض بعض الثمن مقدما

ثالثا ـ كانت الصهيونية تعد دول الغرب بوجه عام ، وانجلترا وأمريكا بوجه خاص ، بأن تحول فلسطين من أرض عربية الى قطعة من الغرب ، فتضمن الدول الاستعمارية وجودا مستديما لها فى المنطقة ..

وهذه وثيقة رسمية انجليزية مرفوعة الى مجلس الوزراء البريطانى بتوقيع « و . كور » تتحدث عن ولاء الحركة الصهيونية ومساومتها لانجلترا وأمريكا تقول :

« من الصعوبة بمكان أن نحلل العوامل التى دفعت الصهيونيين الى أن يصبحوا أكثر مناصرة لانجلترا ، ولكننى عنـدما حادثت فى هـذا الشأن بعض أعضاء المنظمة الصهيونية فى القاهرة أدهشتنى وجهة نظرهم التى تتسم ببعد النظر ! فقد قال لى أحدهم « لقد أيدنا الثورة التركية سنة ١٩٠٣ بالمال والتنظيم ، ولكننا من الآن فصاعدا قد نفضنا أيدينا من الأتراك . فلن يضمن لنا الجو الذى نستطيع فيه أن نجلب رؤوس أموال أمريكية ويهودية « الى فلسـطين » الا حكومة أوروبية » . ويبدو واضحا (الكلام لكاتب التقرير) أن مثلهم الأعلى هو فلسطين انجليزية أو فلسطين أمريكية ، وهم يفضلون فلسطين انجليزية نظرا لعـلاقات انجلترا التجارية مع مصر ومركز انجلترا لدى العرب !

وفى فقرة أخرى من التقرير نجد فقرة مثيرة تقـول « واليهـود فى القاهرة على اتصال بالزعماء العرب ، ويلاحظ التصريح الذى أدلى به فؤاد الخطيب وكيل خارجية ملك الحجاز الذى قال فيه « اننا لا نتوقع أى صعوبة مع اليهود لأننا الآن نفهم بعضنا البعض ! »

الفصل الثالث

مناقشات إسرائيلية

يقول بن جوريون : « .. ان اسرائيل ليس لها فى العالم غير حليف واحد وفى : هو الشعب اليهودى . ان اسرائيل هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لا أقارب لها .. سواء من ناحية الدين أو اللغة أو الأصل .. كتلك القرابات التى تربط مثلا بين الدول العربية أو الاسكندنافية أو البوذية أو الكاثوليكية أو الانجلوسكسونية .. اننا شعب يعيش فى هذا العالم بمفرده » ..

وهذا صحيح ! ..

فقد تكون خيانة الدولة التى كانت تستعمر فلسطين « انجلترا » لوثيقة انتدابها قد لعبت دورا رئيسيا فى اقامة دولة اسرائيل . وقد تكون رغبة الدول الاستعمارية الأخرى فى اقامة رأس جسر لها فى المنطقة قد لعبت دورا رئيسيا آخر . ولكن المؤكد أن القوة التى جاهدت وناضلت طوال خمسين سنة ، والتى ضغطت وساومت وتحالفت وتسللت لاقامة دولة اسرائيل ، هى اليهودية العالمية .. أو المجتمع اليهودى العالمى الذى كانت الحركة الصهيونية بالذات هى الأداة العنيفة المنفذة فيه ..

وما تزال هذه اليهودية العالمية تلعب دورها الأكبر فى حماية اسرائيل وفى النضال ضد العرب

وقد كنت أشعر دائما انه من المفيد لنا أن نفهم المجتمع اليهودى العالمى بقياداته وتناقضاته وخباياه ، الصهيونية منها وغير الصهيونية ، بوصفه

هذا المجتمع فى مقدمة القوى التى يرتبط بها نسو اسرائيل أو انكماشها ، بل يرتبط بها وجودها أو عدمه ..

والأصل ، هو ان الصهيونى غير اليهودى ..

اليهودى .. هو الفرد الانجليزى أو الفرنسى أو العربى الذى يعتنق الدين اليهودى ، تماما كالمواطن الذى يعتنق أى دين آخر

والظن الشائع عن الصهيونى هو انه اليهودى الذى يؤمن بضرورة قيام دولة اسرائيل ويساعدها بكل أنواع المساعدات .. حتى ولو بقى كما هو : يهوديا انجليزيا أو فرنسيا أو أمريكيا ..

ولكن بن جوريون يقول لنا : لا ! ان هذه صهيونية مزيفة ! بل انه لايرضى أن يطلق عليها وصف الصهيونية !

ان الصـــهيونى فى رأيه هو اليهودى الذى يريد العودة الى جبـــل صهيون ، هو اليهودى الذى يحس أنه اذا كان يعيش فى أى بلد آخر ، غير اسرائيل ، فهو يعيش فى منفى ! وأنه آن الأوان لانتهاء عصر النفى والتشرد ، ولابد من العودة الى أرض اسرائيل ! ..

ويستطرد بن جوريون ، فى محـــاضرة مطبـــوعة له ، قائلا : .. أما أولئك اليهود الذين يعتبرون أنفسهم جزءا من الشـــعب الأمريكى أو الانجليزى أو الفرنسى ، أولئك اليهود الذين لايشعرون انهم يعيشون فى منفى ، أولئك اليهود الذين لايرون ان مستقبلهم ومستقبل أولادهم وأحفادهم لايمكن أن يوجد الا فى اسرائيل ..

هؤلاء اليهود جميعا انما يذوبون تدريجيا فى حضارة غير يهودية ولغة غير يهودية . ان هؤلاء الذين يطلقون على أنفســـهم ـــ كذبا ـــ لقب الصهيونيين بحكم انتمائهم الى منظمات تحمل هذا الاسم ، هم فى الحقيقة خطر على مستقبل اليهودية

وفى دراسة أخرى لـ « بن جوريون » ، نجد أنه يدفع هذا المنطق خطوة أخرى الى الأمام ، فيتساءل : من هو اليهودى ؟ وما هى مقومات الشعب اليهودى فى شتى أنحاء العالم ؟ ..

ويرد بن جوريون على هذه الأسئلة قائلا : ان ما يربط بين اليهود ليس الدين اليهودى ! بدليل أن الحركة الصهيونية فيها يهود متدينون ويهود لا دينيون ، أى يهود ملحدون لايؤمنون بوجود الله . ولا العنصر الواحد بعد هذا التشتت الواسع بين اليهود فى شتى البلاد والقوميات . ولا اللغة الواحدة بدليل أن اللغة العبرية كادت تختفى تماما قرونا طويلة ، ومعظم يهود العالم لايعرفونها ولا يتكلمونها : ان ماربط بين اليهود وجعل تلك الصفات الأخرى كالدين والعنصر واللغة ــ صفات قابلة لأن تجمعهم من جديد ، هو صــفة أخرى أساسية ، هى : رؤيا العودة .. الايمان بأن الخلاص هو فى العودة الى جبل صهيون حيث أقام داود معبده الأول .. أى الى أرض اسرائيل

ويستطرد بن جوريون فى تأكيد صفة « العودة » و « استخلاص » الأرض التى كانت لهم ــ كالعلامة الأولى المميزة لليهودى فيقول : ان شعب اليهود يختلف عن كل شعوب العالم . واليهودى نفسه يختلف عن كل من حوله فى أى مجتمع بسبب هذه الصفة بالذات ، فكل الشعوب نشأت واستمرت ملتصقة بالأرض الخاصة بها . قد تحتلها دول أخرى . أو يستعبدها نظام حكم معين . قد تنمو وقد تضمحل . ولكنها دائما موجودة فوق أرضها ، باستثناء اليهود الذين عاشوا عشرات من القرون مطرودين مما يعتبرونه أرضهم مصرّين على العودة اليها . ومن هذه الصفة نشأت عزلتهم ، ونشأ انفرادهم بصفات خاصة بهم ..

والخلاصة التى يريد أن ينتهى اليها بن جوريون هى انه اليــوم وقد قامت دولة اسرائيل عند جبل صهيون .. فقد جاءت لحظة الامتحــان النهائى الحاسم لكل يهودى على وجه الأرض : فمن لايعود اليوم ليس « صهيونيا » بالتأكيد ، ثم هو يهودى يعرض نفسه للذوبان فى مجتمعات أخرى غير يهودية .. أى يعرض اليهودية ذاتها للانقراض .. ولا يتأخر بن جوريون عن ابراز الجانب العملى لهذه الفلسفة كلها ، فهو يقول فى مؤتمر للصهيونية العالمية : ان مشكلة دولة اسرائيل الكبرى هى الأمن ،

وأمن اسرائيل لا يحققه أى جيش مهما بلغ تسليحه ، انما يحققه أن « يعود » الى اسرائيل ، بسرعة ، مليونان من اليهود على الأقل فى كل عام .. الى أن تتم عودة يهود العالم أجمعين !

ويقول بن جوريون ، فى تحقير لبق لحياة اليهود خارج اسرائيل : انني لا أحتقر شايلوك الذى كان يعيش على الربا فى مدينة البندقية (يشير الى الشخصية الشهيرة فىمسرحية شيكسبير « تاجر البندقية ») فاليهودى طالما بقى فى مثل هذه الظروف ، مضطر الى مثل هذه الحياة ! »

أى أن اليهودى لايمكن أن يكون كريما شريفا الا فى دولة يهودية هى دولة اسرائيل ..

هذا الكلام كله ، ليس عقيدة فردية يعتقدها دافيد بن جوريون وحده وانما هى وجهة النظر الأساسية التى تقوم عليها دولة اسرائيل

جولدا ماير ، أيضا ، لها محاضرة مطبوعة عنوانها : « ماذا نريد من يهود العالم » تقول فيها ، مثلا :

ــ ان اليهودى الانجليزى الذى ينشد بحكم انجليزيته نشيد « حفظ الله الملكة » كيف يمكن أن يكون فى نفس الوقت صهيونيا ؟ ..

ــ اننى أصــدق من يقولون ان اليهود فى أمريكا كانوا يبكون فى لحظات الخطر التى أحاقت بنا .. ولكننى أقول ان دموعهم لاتكفينا ! ..

لم تذكر جولدا ماير شيئا آخر هو : نقودهم !

ــ بعد قيام دولة صهيون .. لايمكن أن يعد صهيونيا الا ذلك الذى يحمل حقائبه ويأتى على الفور !

ــ جميل جدا أنيعطينا اليهود فى الغرب تأييدهم وحماسهم وأموالهم . ولكن هذا لا يكفى . هذه المشاركة من بعيد لا تكفى . فمن بعيد ، لا يمكن أن تتم زراعة النقب ! وبقاء اسرائيل يتوقف على ما اذا كان ممكنا أن نزرع صحراء النقب وجبال الجليل ! اننى لا أستطيع أن أفصل أمن اسرائيل عنتعمير النقب وجبال الجليل ! اننى كلماسمعتأغانىاسرائيل يرددها اليهود فى نيويورك ولوس انجليس وشيكاغو رقص قلبى طربا !

ولكن ترديد الأغانى عن النقب فى نيويورك أو بوسطن لا يعمر النقب ! انما تعمرها هذه الأغانى اذا كانت تقنع الشباب اليهودى بالهجرة الى النقب ، والا فسوف يبقى اليهود يعيشون فى أمريكا .. ويغنون عن النقب من أمريكا .. ولكن النقب سوف يبقى خاليا مهجورا

ـ هناك فى روسيا ثلاثة ملايين يهودى . ولكن لا أحد يعرف هل يأتون الينا يوما أم لا يأتون قط ! ولكن يهود الدول الغربية .. الذين لهم مطلق الحق فى الحضـــور .. والذين يؤيدونـنـــا الى أقصى الحـــدود .. لماذا لا يأتون ؟ ..

انتهى كلام جولدا مايير ! ..

الى هذا الحد ، تذهب اسرائيل فى الضغط على يهود العالم الخارجى من أجل الحصول على مهاجرين جدد : خصـــوصا والأرقام تقول ان الاقبال اليهودى على اسرائيل من حيث الهجرة ، قد انعدم أو كاد ..

فمع اختفاء حكاية اضطهاد اليهود ، التى جلبت المهـــاجرين بمئـــات الآلاف فى أعقاب الحرب ، من ذا الذى يريد أن يذهب الى اسرائيل ؟ ..

ومن هذا يتضح لنا أمران :

الأول : هو مغزى اصرار اسرائيل ، على اثارة قصة اضطهاد اليهود وتجـــديدها ، ونشر الذعر منهـــا .. حتى يشعر اليهودى فى كل مكان بالخطر ، ان لم يكن الخطر الماثل فالخطر المحتمل ، وبالتـــالى يفكر فى الهجرة الى اسرائيل ..

وما نشر يوما ما من ان بعض عملاء اسرائيل هم الذين يرسمون صليب النازية المعقوف على معابد اليهود .. منطقى جدا .. لحاجة اسرائيل الماسة الى اثارة هذا الفزع من الخطر .. بل والخطر نفسه أحيانا !

وهناك رأى قوى فى اسرائيل يقول : انه لابد من تدمير حياة اليهود فى بعض الدول حتى يضطروا للهجرة الى اسرائيل ..

والثانى : هو ان اسرائيل ، حيث لا يفلح هذا السلاح ، لا تجد مفرا من بعث أعتق الأفكار العنصرية المتعصبة ، فى سبيل كسر ولاء اليهودى

نحو أى بلد يعيش فيه ، وفى سبيل شق ما بين اليهودى وبين الآخرين ، والى حد الذهاب الى التبشير رسميا بفكرة أن اليهود شعب مختار ممتاز وأن العالم سوف يظلّ يضطهده لهذا السبب ، بكلّ ما تحمله هـذه الأفكار من سموم ، فى سبيل تحقيق هدف الصهيونية المعلن .: زحف عشرة ملايين يهودى الى فلسطين ، بما فى ذلك من نية التوسع الظاهرة ، زحفا على الأراضى العربية الأخرى خارج فلسطين ذاتها ..

وكثير من المفكرين اليهود ، يعارضون هـذه الأفكار .. لا يقبلون القول بأن دولة اسرائيل هى المكان الطبيعى لكل اليهـود .. بل كانوا يعارضون قيام دولة اسرائيل نفسها .. ايمانا منهم بأن قيامها على الأسس التى تقوم عليها انما يتمّ ضد حركة التاريخ التقدمية ، بل وايمانا منهم بأن قيام دولة اسرائيل فى ذاته قد يكون سببا فى اضطهاد اليهود فى الدول الأخرى مستقبلا .. لأن اسرائيل كدولة لابد أن تكون لهـا مع الزمن مواقفها المؤيدة والمعادية لدول أخرى ، وفى حالات العداء سوف يكون اليهود فى وضع لا يحسدون عليه ..

ولكن هذه الأصوات ضاعت أو خفتت تحت تأثير انتصار فكرة قيام الدولة سنة ١٩٤٨ .. وان بقى أصحاب هذه الأصوات يضعون أيديهم على قلوبهم ..

هذه الأصوات اليهودية هى الأصوات التى تعـارض فكرة اسرائيل القائلة بأن الهجرة اليها أمر حتمى على كل يهودى ..

يقول المؤرخ اليهودى الانجليزى سيسيل روث : « .. ان الصفة التى ميزت اليهودى دائما هى انه كان أشبه بمواطن عالمى ، ظروفه تجعله يتحرك عبر الحدود والخلافات القومية المألوفة ، وقد أدّى بذلك رسالة مرموقة فى حضارة أوربا مثلا فى القرن التاسع عشر .. ولكن قيام دولة اسرائيل يهدد باختفاء هذا اليهودى ، فقيام دولة اسرائيل فى الواقع انما يتمم رسالة هتلر فى القضاء على اليهودى الأوربى وامكانياته الواسعة !!

ثم ان الحركة الصهيونية قد رفعت فوق رؤوس اليهود الانجليز عصا

غليظة من التهديد ، الذى لا يمكن التخلص منه أحيانا الا بكتابة شيك على أحد البنوك تبرعا لاسرائيل .. ! »

ويستطرد سيسيل روث قائلا فى وصف حالة هؤلاء اليهود النفسية فيقول : « ان هؤلاء اليهود الذين عارضوا قيام دولة اسرائيل يتمنون الآن نجاحها ولا شك ، بعد أن قامت بالفعل .. ثم انهم يعرفون ان فشلها سيكون ضربة معنوية هائلة لليهود فى كل مكان من العالم . ولكنهم مع ذلك قلقون .. فهم يرون أن اليهود فى كل دولة أصبحوا لا يشاركون فى أى مسألة تهم البلاد التى يحملون جنسيتها الا اذا كانت هـذه المسألة تتصل باسرائيل ، وهذا يهدد بعزلهم فى المدى الطويل . ثم ان اليهود الانجليز كان من السهل عليهم مثلا أن يؤيدوا اسرائيل خلال حربهـا سنة ١٩٥٦ ضد مصر لأن انجلترا كانت ضد مصر .. ولكن ماذا يكون موقفهم لو جد ما يجعل اسرائيل ـ كدولة ـ تقف فى لحظة ما ضـد مصالح انجلترا الأساسية بصورة أو بأخرى ؟ .. »

ويقول « سالو بارون » أستاذ التاريخ اليهودى فى جامعة كولومبيا بأمريكا : « ان بعض الصهيونيين يركزون على القول بأن موجة معاداة السامية يمكن أن تهبّ فى أى وقت ، لأن هذا الخطر هو الدافع الوحيد الذى يجعل الشباب اليهودى يهاجر الى اسرائيل . ولكننى أقول لهم ان هذا غير صحيح . فالهجرات الجماعية ، تاريخيا ، لا تقع الا تحت تأثير ضغط سياسى أو اقتصادى عنيف واقع بالفعل ، ولهـذا فان كلام بن جوريون عن مليون أو مليونى مهاجر ينتظرهم فى اسرائيل خطأ تماما . يضاف الى ذلك ، أن نزعة معاداة السامية تختفى وتتلاشى بالفعل ! .. ان بن جوريون وجولدا مايير لا يكفان عن الكلام عن قصص اضطهاد اليهود وتاريخهم البائس المحزن ، وقد ضاق الشباب اليهودى فى شتى دول العالم ذرعا بهذا الكلام لأنهم يرونه متناقضا مع الحياة التى يتمتعون بها فى جميع المجالات . أما القول بأن شعبَ اليهود شعبٌ مختار ، له تاريخه الفريد .. فكل شعب من شعوب العالم له تاريخه الفريد ، وله

ملامحه الخاصة به ! » ..

وهذا يقودنا الى نقطة أخرى بالغة الأهمية .. الى سؤال آخر يدور حوله شد وجذب كثير فى أوساط اليهودية العالمية ، هو : مستقبل اليهود فى العالم الخارجى ، بصرف النظر عن وجود دولة اسرائيل أو عدمه ..

ومناقشة هذا السؤال أيضـا ، تظهر لنا أين تقف دولة اسرائيل ، والفلسفة التى بنيت عليها ، من حركة التاريخ العصرى ..

فهناك رأى يهودى قوى ، وهو الرأى السليم فيما أعتقد ، يقول : ان التطور والتحرر السياسى والاجتماعى فى مختلف أنحـاء العالم يحل مشكلة اليهود ، وبالتالى يقضى على « وجود اليهود » بالشكل التاريخى القديم لهذا الوجود .. أى بالشكل المنعزل المنفرد بذاته المنطوى على نفسه ..

فالمراحل السابقة من التاريخ الانسانى ، والتاريخ الأوربى فى الحقيقة بوجه خاص ، بما فى تلك المراحل من اضطهاد دينى ، وتفرقة عنصرية ونظم طبقية اقطاعية وأوتوقراطية .. هذه الظروف كلها كان من طبيعتها أن تبقى القضية اليهودية قائمة ، وأن تجعل اندماج اليهود فى المجتمعات التى يعيشون فيها صعبا الى حد بعيد ، ولكن عصر التنوير والتحرير العقليين ، ورياح المساواة التى تكتسح أمامها كل شىء ، والتسامح الذى يطرد التعصب بسرعة ، وانتشار الحريات العامة وتطبيق مبادىء حقوق الانسان .. كل هذا التطور جعل « القضية اليهودية » بشكلها القديم تتغير ، وفتح الباب لأول مرة أمام المجتمعات اليهودية لأن « تذوب » وتندمج فى البلاد التى تعيش فيها ..

وليس معنى هذا « الاندماج » أو فى الاصطلاح العلمى Assimilation هو أن يختفى اليهود كيهود .. ان معناه أن يبقى اليهودى يهوديا كمـا ان المسلم سيظل مسلما والمسيحى مسيحيا ..

ولكن الذى سيختفى هو احساس اليهود ، لنَقُلْ فى انجلترا مثلا ، بأنهم نوع مختلف ، وشعب قائم بذاته ، تفصله عن الانجليزى العادى

هوة واسعة ، وبالتالى سوف يقل ارتباطه الخاص بدولة اسرائيل ، وسوف يصبح ولاؤه السياسى والقومى الوحيد لانجلترا ، وســوف تنتهى من ذهنه نهائيا فكرة « العودة »

هذا التطور الذى لا مفر منه نحو الاندماج ، بحكم أننا أصبحنا فى عصر الحرية الدينية والمساواة يشهد عليه ، ويعترف به ، كثير جدا من المفكرين اليهود ، بل وبعضهم يحبذونه تحبيذا .. بينما تحــاول دولة اسرائيل وممثلوها فى اليهودية العالمية أن ترفضــه وتقف فى وجهه بأى طريقة من الطرق ..

يقول سالو بارون ، أستاذ التاريخ اليهودى الذى سبقت الاشارةاليه:

ان هذا الذوبان أو الاندماج Assimilation معناه أن يصبح المرء جزءا من الشعب الذى يعيش فيه ، ومعناه فى حالة اليهود هو أن يصبحوا جزءا من الأغلبية القومية التى يعيشون فيهــا ، وانه مع بزوغ عصر التحرر والتنوير والمســاواة بدأ اليهود يواجهون هــذا الاحتمال لأول مرة فى تاريخهم الطويل .. الآن لابد أن يتحول اليهودى الذى يعيش فى فرنسا الى « فرنسى يهودى » كالفرنسى المسيحى ، ومعنى ذلك ان « المجتمع اليهودى الخاص » فى العالم يتلاشى ، اذا لم تعثر اليهودية على حل سريع لهذا الموقف » ..

ويعترف سالو بارون بأن تفكير الصهيونية بالطريقة القديمة يجعلها ــ مع الزمن ــ تقف موقفا معاديا لحركة التحرر والمساواة والتسامح ، احساسا منها بأن هذا التحرر العالمى يسحب رصيدها من اليهود الذين تعتبرهم رعايا لها .. مآلهم هو العودة اليهــا .. ثم يحذر أصــدقاءه الصهيونيين من هذا الاتجاه . بل ويذهب سالو بارون بعيدا فى تنبئه فيقول انه بمنطق الذوبان والاندماج الذى لابد أن يؤدى عصر التحرر اليه .. لن تبقى كنيسة عبرية واحدة فى العالم ، ولكن ستصبح هنــاك كنيسة « عبرية كاثوليكية » وكنيسة « عبرية بروتستانتية » وكنيسة « عبرية اسلامية ! » ..

هذه الظاهرة التاريخية ، ظاهرة اتجاه اليهود الى الاندماج فى مجتمعاتهم واختفاء مشكلتهم ، لا يختلف أحد على وجودها .. ولكن الخلاف فى اليهودية العالمية وفى الحركة الصهيونية هو حول طريقة مواجهتها ..

فهناك من بين اليهود من يرحبون بها ويعتبرونها تطورا طبيعيا لمشكلة اليهودى ..

وهنـاك الذين يخافون منهـا ، بل ويعتبرونها أخطر على اليهود من القنبلة الذرية ، ومن هتلر ، ويحاربونها فى غير لين ..

من الفريق الأول مثلا ، نجد « أوسكار هاندلين » وهو أستاذ يهودى للتاريخ الأمريكى فى جامعة هارفارد . انه يقف ليلقى محاضرة فى مؤتمر صهيونى دولى ، فيقول : أنا واحد من اليهود الذين ذابوا فى المجتمع الأمريكى ، لم أكن صهيونيا قط ، وكنت أعارض قيـام دولة اسرائيل فكريا ، وان كنت الآن أتمنى لها النجاح !

***

ثم يستطرد فى الدفاع عن فكرة ذوبان اليهودى الأمريكى فى بلاده فيقول : ان اليهود فى أمريكا ليسوا أقلية لأنه لا توجد فى أمريكا أغلبية ، أمريكا أمة تقوم على التعدد ، فيها جماعات كثيرة بعضها على أسـاس الدين كالبروتستانت والكاثوليك واليهود ، وبعضها على أسـاس اللون كالزنوج السود وأبناء الكاريبى السمر ، وبعضها على أسـاس مراحل الهجرة ومصادرها كالسويديين والايطاليين والايرلنديين فليس هناك فى أمريكا « أغلبية » حتى يقال ان اليهود أقلية

ويرد على ساسة اسرائيل الذين يهاجمون حياة اليهودى الأمريكى التى تقوده تدريجيا الى الذوبان ، فيقول : ان كل ما فى الأمر هو أن اليهود يصبحون تدريجيا مثل جيرانهم ومثل الجميع ، لأنهم حتى لو سيقوا كرها الى مدارس يهودية تعلمهم اللغة العبرية ، فانهم مع ذلك يتعرضون لنفس الاشعاع الثقافى والمعنوى والاجتماعىُ الذى يتعرض له كل أمريكى .. من خلال الحياة اليومية ، والاختلاط ، والاذاعة والصحافة والتليفزيون ،

والذين يعارضون فى ذلك انما يريدون فى الواقع اقامة سور يعزل اليهود عن سائر مواطنيهم بكل ما يحمله هذا من أخطار .. ان اليهودي الأمريكى الآن ليس سوى ذلك الذى يعتبر نفسه يهوديا بحكم الوراثة ، وهو يمر حاليا بمرحلة انتقال ..

ولكن ليس كل يهودى يواجه هذا الموقف .. أى موقف انتصار حركة المساواة وانتهاء مشكلة اليهود .. بنفس الحالة النفسية ..

فالمؤرخ الصهيونى « رفائيل ماهلر » يولول ويقول : ان المجتمع اليهودى آخذ فى الذوبان منذ أكثر من مائة سنة ، ففى خلال عصور الاقطاع وما شابهها كانت لليهودى وظيفة اقتصادية معينة يعتمد عليها وجوده وتقوم عليها شخصيته ووحدته . أما الآن فاليهود يتشتتون بين شتى وظائف الحياة الاجتماعية والاقتصادية وبالتالى يذوبون ، تختفى لغتهم وتختفى تقاليدهم بل ويغيرون أسماءهم لكى لا تنم عن يهوديتهم ، يتأمركون أو يتفرنسون .. الى آخره

***

وينتهى « ماهلر » الى القول بأن الحل الوحيد لانقاذ اليهودية ومنع تحولها من شعب واحد حيثما كان الى مجرد ديانة يدين بها ناس مختلفون ينتمون الى شعوب مختلفة .. هو : جمعهم فى اسرائيل !

وهذا يقودنا الى أصحاب الموقف الثالث ، وهو موقف اسرائيل الرسمى والفكرى ، الذين يرفضون أن تحل المشكلة اليهودية فى العالم ويريدون اذكاءها ، حتى انهم ليقولون مع « تاتاكودار » أستاذ علم الاجتماع فى الجامعة العبرية « ان اليهودى حقا هو من يشعر بأن هناك « مشكلة يهودية » حتى لو عاش بمفرده فى جزيرة نائية ! »

أى ان اليهودى فى رأيه هو الذى يشعر باضطهاد حتى ولو لم يوجد من يضطهده !

ان اسرائيل ترفض رفضا شديدا أن يعيش اليهودى الأمريكى أو اليهودى الفرنسى كأمريكى أو فرنسى .. فهى تهاجم حياتهما وتحقرها ..

وهى تطالب فى الحاح بأن يُقيم اليهود فى كل مكان مدارس خاصة بهم ويتعلموا اللغة العبرية ويتشبعوا بالثقافة اليهودية الخاصة ويقاوموا التأثر المحلى بثقافة وحضارة البلاد التى يعيشون فيها أو كما يقول : « ماهلر » هذا : « ايجاد نوع من التعليم والتثقيف يقود اليهودى الى الهجرة »

***

وهذه السياسة ، اذا كانت لا تجد نجاحا يذكر فى قطع ما بين اليهود وبلادهم وتوجيههم الى الهجرة .. فهى على الأقل تنجح نجاحا كبيرا فى ارهابهم واشـــعارهم بالذنب ، ودفعهم الى تعويض عدم هجرتهم بأن يساعدوا اسرائيل الى أقصى ما يستطيعون : ماليـــا ومعنـــويا وسياسيا ودعائيا ..

فأخشى ما تخشاه اسرائيل اليوم ، هو أن تتحول اليهودية الى دين فقط ، لا الى قومية كما تريدها هى ، لأنها اذا تحولت الى دين فقط ، واذا تحرر العالم من مشاكل التفرقة والاضطهاد ، فأى دين فى العالم يأمر كل أبنائه بأن يعودوا الى مهبط هذا الدين ؟ .. وأى عاقل يقبل منطقا معناه أن يعود كل المسيحيين فى العالم الى القدس وكل المسلمين فى العالم الى مكة ؟ ..

وما أسخف فكرة « العودة » المزعومة اذن ، وما أبعدها عن منطق الدين ومنطق الحياة ؟ .. وما أكثر ما تبدو الهجرة اليهـــودية فى تلك اللحظة عارية الا من أهدافها السياسية والاستعمارية الرجعية المتعصبة ..

الفصل الرابع

إســرائيـل و المـاء

نظرة الى مشكلة مياه الاردن ، من داخل اسرائيل ..

فما الذى يجعل اسرائيل ــ فى الواقع ــ تصمم الى هــذا الحد على تحويل كل قطرة تستطيع تحويلها من مياه نهر الاردن ، الى درجة المغامرة بحرب شاملة مدمرة ؟

ان اليهودى ــ تقليديا ــ ليس فلاحا ، والشعب اليهودى منذ قرون ليس شعب فلاحين .. انه شعب مدن ، يميل نشاطه دائما الى التركز بسرعة فى مهن المال والتجارة ..

وهناك دراسة عميقة المغزى ، للمؤرخ الصهيونى « رفائيل ماهلر » ، عن وضع اليهود الاقتصادى فى البلاد المختلفة وفى ظل النظم الاجتماعية المتعددة ، من رأسمالية الولايات المتحدة الأمريكية الى شيوعية الاتحاد السوفييتى .. يلاحظ فيها المؤرخ الصهيونى ان اليهود ليس بينهم فلاحون قط ، وان هذا كان شأنهم فى كل البــلاد التى عاشوا فيهــا ، باستثناء بولندا ، وبعض أماكن معزولة فى روسيا القيصرية ، بل ان وجودهم فى الصناعة نفسها يقل فى العادة بينما يزداد تركزهم دائما وبسرعة فى أعمال التجارة والمال ، وفى المهن الحرة كالطب والمحاماة والصحافة وغيرها ..

ففى الولايات المتحدة ــ مثلا ــ منذ خمسين عاما ، كان ستون فى المائة من اليهود الأمريكان يعملون فى الصناعة،لكن هذه النسبة تقل الآن كثيرا حتى تكاد تنعدم . وفى الاتحاد السوفييتى لا يكاد يوجد يهودى فلاح ، بل ويقل وجودهم أيضا كعمال صناعيين ، فهم حتى فى مؤسسات الدولة يعملون كما عمل أجدادهم منــذ القرون الوســطى : باعة فى المخازن والمحلات ، ويقطع المؤرخ الصهيونى بأنه لا يوجد اليوم أى مجتمع يهودى

زراعى ذى قيمة فى أى بلد من البلاد التى يوجد فيها اليهود

ويستطرد المؤرخ قائلا : ان هذا بالطبع معناه ان ثمة ارتفاعا متزايدا فى مستوى معيشة اليهودى حيثما كان ، ولكن اتجاه اليهود دائما الى الانحصار فى أماكن اقتصادية محددة ــ هى مراكز المال والتجارة ــ يعد مصدرا خطيرا من مصادر النزعة المعــادية للسامية ، وسببا من أسباب اتساع الهوة بين اليهود وغيرهم من أبناء البلاد التى يعيشون فيها ..

فاليهود ــ كما يقول المؤرخ ــ لا يساهمون أبدا فى عملية أساسية من « عمليات الانتاج » فى أى بلد ، سواء كان انتاجا زراعيا أو صناعيا .. انما هم يعملون فى المال والتجارة فقط .. الأمر الذى يبذر بذور النقمة عليهم ..

ان النزعة المعادية للسامية واضطهاد اليهود فى رأى المؤرخ ، بذورها اقتصادية تماما ، ومرجعها أساسا الى هذا الوضع الاجتماعى الاقتصادى العجيب الذى يصل اليه اليهود دائما .. حتى القول بأنه لا توجد نزعة معادية لليهود فى أمريكا ، لا يقبله المؤرخ « ماهلر » .. اذ يقول : ان هذا أمر غير مضمون فى المستقبل ، ثم يلاحظ ان الموقف فى أمريكا أو فى ولاية نيويورك مثلا يشبه الوضع فى برلين عام ١٩٣٠ ، فى ابان موجة كراهية اليهود الجارفة : من حيث ازدياد تركز اليهود فى الأعمال المالية والمهن الحرة كالطب والمحاماة ، فنصف المحامين والأطباء فى ولايةنيويورك يهود ، وهذا التركز الاقتصادى والاجتماعى يثير كراهية الجماهير الكبيرة التى تعمل فى شتى الأعمــال الانتاجية المجهدة القليلة الأجر كالزراعة والصناعة ..

ويروى المؤرخ انه قضى شهرين فى جولة فى بولنــدا تحت النظــام الشيوعى ، وكان فيما يبدو يناقش ويدرس قضايا اليهود ، وأنه كثيرا ما سمع عمالا وعاملات يسألونه : « لماذا لا نجد من بين اليهود أى عامل صناعى مثلنا ؟ .. لماذا لا نراهم فى هذه الأعمال المجهدة ؟ » ويروى انه قرأ أخيرا ان الاتحاد السوفييتى قرر انه ليس من حق أى قوميــة من

قوميات الاتحاد السوفييتى أن يكون لها نسبة بين طلبة الجامعات أكثر مما لها من نسبة بين عمال المناجم ، ثم يعقب قائلا : انه لا يوجد عامل مناجم يهودى واحد لا فى روسيا ولا فى أمريكا !

ان تركز اليهود فى مواقع اقتصادية معينة كان دائما عاملا يفرق بينهم وبين سائر المواطنين : فى نظر أنفسهم وفى نظر سائر المواطنين على السواء! ومنذ العصور الوسطى كانت كلمة « اليهودى » فى أوروبا معناها كلمة التاجر ..

وأنقل عن المؤرخ الصهيونى حرفيا قوله : « .. ان بعض المفكرين يقولون ان التجارة بالعكس مهنة تجمع بين الناس ولا تفرقهم ، ولكن هذا كلام سطحى ، ان اليهود يعملون حقا فى التجارة وهم بذلك يتصلون بسائر الناس .. حتى الفلاح المتوسط فى العصور الوسطى كان لايستطيع أن يعيش بدون أن يتردد على السوق ، لأن الاقتصاد وقتها كان يقوم كله على التجارة ، فاذا أخذنا اليهود الذين كانوا يملكون الحانات فى بولندا فسوف نجد انهم بالطبع يحتكون بالفلاحين .. فالفلاحون لا يكادون يتركون الحانات ، انهم يقضون فيها أجازاتهم ويحتفلون فيها بزيجاتهم وأفراحهم ، ولكن هل « اندمج » اليهود فيهم كنتيجة لذلك ؟ بالطبع لا .. لأن اليهودى هو من يملك الحانة ، والباقين هم الفلاحون ! »

ولعلنى استطردت قليلا ، وراء هذه الدراسة للمؤرخ الصهيونى « رفائيل ماهلر » ولكننى أعود الى الخيط الأصلى للموضوع وهو أن اليهودى ــ تقليديا ــ ليس فلاحا ، وان شعب اليهود منذ قرون مديدة شعب مدن ، يميل نشاطه دائما الى التركز بسرعة فى مهن المال والتجارة ..

ولكن الحركة الصهيونية الحديثة أدركت منذ وقت مبكر ، ان الزراعة هى التى تمنح الشعب استقراره ، وتغرس جذوره فى الأرض ، ولذلك كان من أول اتجاهاتها خلق الفلاح اليهودى والزراعة اليهودية ، ومنذ قدوم المهاجرين الأوائل الى فلسطين بالذات ــ دون سائر بلاد العالم ــ عمدوا الى خلق نواة المزرعة اليهودية ..

فخَلْق الزراعة اليهودية قرار" سياسى وليس قرارا اقتصاديا ، وهذا الطابع السياسى هو الذى لازم نمو الزراعة اليهودية من أيام الهجرة الأولى ، والتمهيد للاغتصاب ، حتى مشروع تحويل نهر الاردن

وقد توصلت اسرائيل الى أسلوب هو أسلوب « المستعمرة الزراعية » أو « الكيبوتز » ، وهو وحدة زراعية وعسكرية فى نفس الوقت حتى تستطيع أن تقاتل وتقاوم خلال عملية الاغتصاب ضد السكان العرب ، ولتكون بمثابة حصون دفاعية بعد انشاء دولة اسرائيل : تقوم على الأقل بمهمة الدفاع المؤقت ، نظرا لطول حدود اسرائيل وتعذر ايجاد جيش عامل على طول هذه الحدود ، وبسبب ندرة اليد العاملة ، فأوجدوا المستعمرة الزراعية التى يسكنها الفلاح الجندى فى نفس الوقت ..

وبعد تأسيس دولة اسرائيل ، استمرت سياسة ايجاد المجتمع الزراعى لنفس الأسباب السياسية فى الدرجة الأولى ، ولهذا نجد أن اسرائيل تتعمد اقامة المستعمرات الزراعية فى المناطق النائية ، وفى الصحارى غير المسكونة كالنقب ، وفى مناطق الحدود بوجه عام ، حتى ولو كانت ظروف الزراعة فى تلك المناطق صعبة أو غير اقتصادية ، مدفوعة بنفس الاحساس السياسى ، وهو : ان الزراعة هى التى تشغل الأرض فعلا ، وتكسب الملكية الدائمة لصاحبها ..

ان هذا الدافع يكمن وراء محاولة اسرائيل تحويل نهر الاردن ، وزراعة النقب ، أكثر مما يكمن أى سبب آخر

وفى هذه المحاولة .. لم تصطدم اسرائيل بمشكلة الأرض ، ولكنها اصطدمت بمشكلة الماء ..

وقد قرأت دراسة علمية مفصلة ، عن مشكلة الماء والزراعة فى اسرائيل صدرت باللغة الفرنسية فى باريس ، قام بها أستاذ فرنسى يهودى ، اسمه « جوزيف كلاتزمان » ، مدير معهد الدراسات العملية ، ومستشار معهد التنمية الصناعية والاجتماعية فى فرنسا .. بعد أن زار اسرائيل أكثر من مرة لاتمام هذه الدراسة .. كما قرأت دراسة باللغة الانجليزية عن

« اقتصاد اسرائيل » بقلم الكاتب الاسرائيلى « اليكس روبنز » بعد أن عمل مستشارا لوزارات المالية والصناعة والتجارة فى اسرائيل ما يقرب من تسعة أعوام ..

تقول هذه الأبحاث : « ان اسرائيل لديهـا حاليا ٥٠٠ ألف هكتار صالحة للزراعة لو أمكن توفير الماء لها ، ولكن الماء لا يصل حاليا الا الى ١٣٠ ألف هكتار منها فقط .. »

وكل الميـاه المتوافرة فى اسرائيل الآن لا تزيد على ١٣٠٠ مليون متر مكعب فى السنة ، وحوالى ثلثى هذه الكمية يأتى من الآبار ، والثلث الباقى من الأنهار والجداول ومياه الوديان ، ومن هذه الكمية يذهب ٦٠ مليون متر كل عام الى الصناعة و ١٧٥ مليون متر للاستهلاك العادى و ١٠٤٠ مليون متر للزراعة ..

ومن هذا الاستخدام العنيف لمياه الآبار ، يتزايد خطر ازدياد نسبة ملوحة الأرض الزراعية ، خصوصا فى تلك المنـاطق القريبة من شاطىء البحر ..

وليست المشكلة التى تواجه اسرائيل هى قلة الماء فقط ، ولكن المشكلة أيضا هى ان كل المياه المتوافرة موجودة فى جزء معين منها ، فى حين انها تريد أن تشغل بالزراعة أماكن أخرى بعيدة عن مصادر المياه ، للأسباب التى سبق ذكرها ، الأمر الذى يجعلهـا تضطر الى تحمل نفقات باهظة لحفظ المياه ونقلها الى مناطق بعيدة كالنقب ..

ولهذه الأسباب كلها أصبح سعر الماء مرتفعا فى اسرائيل ، بل وأحيانا غير اقتصادى ..

وفى بحث « كلاتزمان » دراسة مفصلة لتكاليف الماء ولأسعاره ، يمكن أن نستخلص منها ان سعر المتر المكعب الواحد من المياه المطلوبة للزراعة يصل أحيانا الى ٢٥ مليما ، فاذا كان الهكتار يحتاج الى سبعة آلاف متر مكعب من الماء فى العـام فمعنى ذلك ان تكاليف رى الهكتار الواحـد تصل أحيانا الى حوالى ١٧٠ جنيها ! ..

وقــد بنى الباحث دراســته على أســاس تكاليف وأسعار مؤسسة « ميكورو » الاسرائيلية شبه الحكومية التى توزع حوالى ٥٠٠ مليون متر مكعب من الماء كل عام فى اسرائيل

ولهذا تضطر الدولة الى أن تبيع الماء للفــلاحين بأقل من تكاليفه ، ولكن الاقتصاد القومى يتحمل من جراء ذلك عبئا باهظا ، يتزايد يوما بعد يوم ..

وأهم ما فى البحث ، هو أن طريق المستقبل فى اسرائيل ، فيما يتعلق بالماء ، مسدود تماما ..

ان اسرائيل تحلم بأن يصل عدد ســكانها عام ١٩٨٠ ، هكذا يقول المؤلف ، الى أربعة ملايين نسمة ..

ولكن الحساب الدقيق يقول انه مع استخدام كل مصادر المياه المعروفة، بمــا فى ذلك تحويل نهر الاردن ، فان هــذه الزيادة فى السكان سوف تستهلك فى الصناعة وفى الاستعمالات العادية كمية متزايدة من الماء ، لا يبقى منها للزراعة الا ألف مليون متر مكعب فقط ، أى أقل من المياه المخصصة للزراعة حاليا ! .. فالطريق مسدود تماما !

ولهذا ، تبذل اسرائيل جهودا علمية وتجريبية جبارة فى محاولة إستنباط محاصيل زراعية تحتاج الى كمية أقل من المياه ..

ولكن الخبراء لا يرون فى هذه التجارب مايمكن أن يسد عطش اسرائيل

ولذلك ينتهى «جوزيف كلاتزمان» الى رأى قاطع ، هو أنه لامستقبل لاسرائيل الا اذا نجحت تجربتان عمليتان أساسيتان :

الاولى : هى تجربة تحويل مياه البحر الملحة الى مياه عذبة ، بتكاليف قليلة ..

والثانية : هى تجربة استخدام المطر الصناعى ..

أما مصادر المياه المعروفة حاليا ، حتى ولو حولت اسرائيل نهر الاردن ، فهى لا يمكن أن تروى عطش اسرائيل ، اذا زاد عدد سكانها بالقدر الذى ترجوه لنفسها ..

الفصل الخامس

طوبى للخائفين

رواية للكاتبة الاسرائيلية يائيل ديان

هذه رواية ألفتها فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها .. الفتاة اسرائيلية صهيونية ، اسمها « يائيل دايان » ، بنت موشى دايان القائد العسكرى الصهيونى المعـروف ، وأقرب المقـربين الى بن جوريون ، والوزير فى حكومة اسرائيل أكثر من مرة ..

وقد ألفت « يائيل دايان » وهى فى التاسعة عشرة من انعمر رواية اسمها « وجه جديد فى المرآة » ، كانت محل تعليقات شتى ، ولكنها لم تستوقفنى كثيرا ..

أما هذه الرواية فقد استوقفتنى بشدة ، لا لأنها رواية مكتوبة باتقان فنى كبير فحسب ، ولكن لأنها أشبه أن تكون تحقيقا نفسيا عن مجتمع اسرائيل ودولة اسرائيل .. وهو الشىء الذى يجب أن تتابعه باستمرار ..

وقد كنت جالسا فى شرفة فنـدق « سان جورج » فى بيروت حين دخل الشرفة صحفى هندى تعرفت به فى القاهرة منذ أعوام .. حاملا حقائبه ، آتيا من سفر ..

وسألته : من أين أنت قادم ؟ ..

فقال لى : من اسرائيل ! ..

وقبل أن تقفز الدهشة الى وجهى قال : « ليس مباشرة ! » فأنا قادم الآن من قبرص ، ولكننى قبل قبرص كنت فى « تل أبيب »

ورأى اننى سوف أنهال عليه بالأسئلة ، فبادرنى مرة أخرى يقول :

ـ سنتحدث فيما بعد .. فان علىَّ أن أنجز هنا أشياء كثيرة قبل أن

أسافر غدا الى دمشق ، ولكنى سأترك لك هـذه الرواية التى صدرت منذ أسابيع .. اقرأها .. وسوف تجد فيها الرد على كثير من الأسئلة .. وليكن حديثنا بعد أن تفرغ من قراءتها ..

وقال لى وهو يحمل حقائبه من جديد : ان كل بلد فيه الآن أكثر من بنت تحاول أن تكون « فرانسواز ساجان » .. وهذه هى « فرانسواز ساجان اسرائيل » ..

وترك لى الصحفى الهندى رواية اسمها : « طوبى للخائفين ! » ..

القصة تبدأ فى قرية صهيونية قرب الحدود السورية اسمها « بيت عون » .. وفلسـطين ما زالت فلسطين .. أى قبل انشاء دولة اسرائيل بقليل ..

ومحور القصة فى صفحاتها الأولى صبى صـغير اسمه « نيمرود » ، أبواه «ايفرى» و «مريام» مهاجران أتيا من روسيا قبل بضعة أعوام . والصراع فى هـذه الصفحات الأولى يدور حول تربية الصبى الصـغير والعوامل التى تتنازعه ، وهى فى نفس الوقت العوامل التى تتنازع المجتمع اليهودى فى تلك القرية ..

ان الأولاد الصغار فى القرية يهربون من أهليهم الى منطقة غير مطروقة ، بالقرب من المقابر ، يلعبون فيها لعبتهم المفضلة وهى « من هو القوى ؟» . وفيها يحاول كل صبى أن يثبت انه أقوى من الآخرين بأى طريقة يختارها بأن يتسلق — مثلا — شجرة أعلى من الشجرة التى يتسلقها سواه أو بأن يسبح عبر نهر الاردن فى الماء البارد مدة أطول من سواه .. أو أن يُضع يده على النار المشتعلة ويتحمل لسعها أكثر من سواه ! ..

وفى القرية رجل اسمه « جيديون » يسميه أهل القرية « الصخرة » .. فهو نموذج القوة العضلية .. والشجاعة البدنية .. والاستهانة بالخطر .. وهو كما يتهامس أهل القـرية مشترك فى احدى العصابات الصهيونية السرية .. ويشترك فى أعمال ارهابية مجهولة .. ويعود الى القرية سالما متكبرا ..

ان كل أب فى القرية يريد أن يشب ابنه مثل « جيديون » هذا . وأن يحمل بدوره يوما لقب « الصخرة » .. وهذا ما يريده أيضا « ايفرى » لابنه الصبى « نيمرود » رغم معارضة أمه المسالمة «ميريام» التى لا تبرح المطبخ ..

ولكن الصبى تربطه علاقة روحيـة باسكافى عجوز فى القرية اسمه « لاميش » فهو يذهب الى دكانه حيث يتفرج عليه وهو يصنع الأحذية ويستمع منه الى قصص وحكايات عجيبة ..

ان الأب لا يحب تأثير لاميش على ابنه .. ان لاميش يحدثه أحاديث يهودية قديمة . عن الله . والدين . والكتاب المقدس .. الى أن كان يوم ، رأى فيه جيديون « الصخرة » الصبى نيمرود يدخل مع العجوز لاميش الى المعبد اليهودى .. أو الكنيسة اليهودية .. ودهش جيديون وغضب . ورأى فى هذا افسادا للطفل . فأسرع ونقل الخبر الى أبيه ..

وعندما عاد الصبى من المعبد الذى لا يذهب اليه الا القليلون ثار أبوه فى وجهه بحديث له مغزى عميق :

ـ أيام زمان ، حين كنا يهودا فى روسيا وغيرها ، كان من الضرورى بالنسبة لنا أن نطيع التعليمات .. ونحافظ على ديننا ، أما الآن فقد أصبح لدينا شىء أهم ! الأرض ! أنت الآن اسرائيلى ، ولست مجرد يهودى ! أتعرف ماذا كان اسمى الحقيقى فى روسيا ؟ .. كان اسمى « موتل » . هل تتصور ذلك ؟! نعم كان اسمى « موتل » ولكننى غيرته حين جئت الى هنا وسميت نفسى « ايفرى » . لقد تركت هناك ملابسى ومتـاعى وأقاربى .. وعثرت هنا على رب جديد . هذا الرب الجديد هو خصب الأرض وزهر البرتقال . ألا تحس بذلك ؟

وأخذ ايفرى حفنة من تراب الأرض وسكبها فى كف الصبى وقال له : امسك هذا التراب .. اقبض عليه .. تحسسه .. تذوقه .. هذا هو ربك الوحيد .. اذا أردت أن تصلى للسماء فلا تتصل لها لكى تسكب الفضيلة فى أرواحنا .. ولكن قل لها أن تنزل المطر على أرضنا . هذا هو المهم !

اياك أن تذهب مرة أخرى الى المعبد .. اذا أردت أن تسلى نفسك وتتعلم شيئا فاذهب وتعلم حلب البقر ؟

وليس هناك أقوى من هذا المشهد ، فى التدليل على ما جاء ذكره فى فصل سابق : من ان الصهيونية حركة سياسية لا دينية !

وتحاول الأم أن تخفف من غلواء الأب ، تحاول أن تقول له ان الماضى لا يمكن أن يمحى بأكمله حتى بعد الهجرة . ولكن الأب لا يقبل هـذا الكلام . ويستطرد قائلا لها ولابنه : هناك .. كنت أخاف من القسيس .. من أبى وأمى .. من عسكرى البوليس .. من الطبيعة .. ومن نفسى .. هناك لم يكن من حق الطفل اليهودى أن يكون قويا أو يتسلق شجرة .. كان عليه فقط أن يبقى فى دكان أبيه لا يبرحه

ولكن الصبى نيمرود يحتفظ بعلاقته « السرية » مع الاسكافى العجوز لاميش الذى يحـدثه عن الله .. وعن عواطف الحب والشفقة .. وعن ذكريات أيام قديمة فى قرية روسية بعيدة ..

حتى يجىء يوم يحتفل فيه أهل نيمرود بعيد ميلاد ابنهم .. ويدعون له كل الأولاد والبنات

وفى غمرة الضجة والصخب ، أثناء حفلة عيد الميلاد ، يظهر الاسكافى العجوز لاميش .. لقد جاء يحمل لفافة فى يده قال انهـا هدية أحضرها لنيمرود فى عيد ميلاده . ويفرح نيمرود بحضور لاميش بينما يستقبله أبوه فى فتور مهذب ويدعوه لتناول الشاى . ثم يفتح نيمرود الهدية : انها أرنب من الجلد .. صنعه لاميش من بقايا الجلد التى تملأ دكانه .. وقد ركب للارنب زرارين صغيرين فى مكان العينين . وتصايح الاطفال وضحكوا من نيمرود وبدأوا يقولون ان نيمرود نفسه أرنب لأنهلايشترك فى لعبة « من هو القوى » . وانفجر سخط ايفرى ، فأخذ لاميش الى حجرة بعيدة عن الأولاد وانفجر فيه مهددا متوعدا اذا ظل يتصل بابنه ويبثه المشاعر التى يبثها فيه

قال له :

ــ انك لم تتغير عما كنت عليه فى قريتنا الروسية منذ سنوات بعيدة .. الهجرة لم تغير فيك أى شيء .. فأنت لا تهتم بالأرض .. وجلدك ما زال أصفر اللون ! لم يكتسب أى سمرة بعد .. انك .. يهودى جدا !

ويرتجف الاسكافى العجوز بالغضب والأسى ، ويقول له :

ــ كيف تجرؤ يا ايفرى على أن توجه لى هذا الكلام ؟ .. بل كيف تجرؤ يا « موتل » . يا ابن القسيس « نمخاس » ؟ ان تغيير اسمك لا يغير حقيقتك ! انك فى قرارة نفسك خائف .. خائف مثل موتل ابن القسيس نمخاس تماما ! ان الله رزقك ابنا بديعا ، ولكن ماذا أنت صانع به ؟ ..

ــ ليس هذا شأنك . انك تريد أن تراه يشب مثل أى يهودى آخر فى قرية أوربية . ولكن ابنى لن يكون هكذا . انه سيكون نوعا جديدا

ــ الانســان ليس له نوع قديم ونوع جديد وابنك كائن انسانى حساس . خذ أى قطعة من الجلد الطرى .. انك تستطيع أن تظل تطرقها وتدبغها حتى تصبح فى صلابة الحديد .. ولكن .. آه .. ان أى شيء فى هذه الحالة يمكن أن يكسرها .. انك بذلك تخسر الجلد .. ولا تحصل على الحديد ..

ــ اننى أريد أن يكون نيمرود شجاعا

ــ الشجاعة صفة حميدة .. أما عدم الخوف فهو صفة بشعة ذميمة .. انك تمارس تأثيرك عليه ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم .. تريد أن تقتلع منه كل خوف .. ولكن يبقى له خوف رهيب ــ خوفه من أن يخـاف ! هذا ما يسيطر عليه الآن . انه لن يكون شجاعا اذا مضيت فى تربيته على هذا النحو .. ولكنه سيشب عاجزا عن أن يخاف ، وسوف يكرهك لهذا السبب يوما ما !

ــ وما العيب فى ألا يخاف ؟

ــ من لا يخاف لا يستطيع أن يحب . والله يريد منا أن نحب . ابنك سيتمنى أن يحب . ولكن عدم الخوف سوف يجعله وحيدا .. معزولا .. عزلة قاتلة .. انك تريد أن تتخلص من ذاتك القديمة .. ولكنك لست

واثقا من ذاتك الجديدة .. ولهذا تحاول أن تصب ابنك فى هذا القالب الذى تتخيله ! ..

وحين ينصرف لاميش والضيوف ، يترقب الصبى المهموم الهدية التى أعدها له أبوه .. وفض الأب لفافته بعناية وحرص كبيرين ، فبدا نصل لامع حاد .. خنجر مرهف .. !

وقال ايفرى لابنه : هيه .. ما رأيك ؟ خنجر حقيقى ! تستطيع أن تقطع به أى شىء ! ..

وقال الصبى لنفسه انه لا يعرف ما اذا كان يريد أن يقطع أى شىء على الاطلاق .. لقد رأى مثل هذا الخنجر مع الأولاد الذين من سنه . ان هذا الخنجر حلم كل صبى فى القرية .. أما هو ..

وقال الأب ساخرا : نعم .. تستطيع أن تقطع به أى شىء حتى ذيل الأرنب الجلدى ..

وقال الصبى وكأنه قد تذكر فجأة :

ــ أين أرنبى ؟

ــ فى حجرتك .. على الرف .. انك طبعا لا تريد أن تلعب بمثل هذه اللعب التافهة ..

ودخل الصبى حجرته الصغيرة لينام .. حاول أن يضع الأرنب معه فى الفراش ولكن الفراش كان ضيقا ، فوضعه على مقعد مواجه له .. ووضع بجواره السكين ..

ان غرفته مليئة بألعاب اشتراها له أبوه .. مدافع ودبابات وبنادق .. ثم تذكر البندقية الحقيقية التى يحتفظ بها أبوه .. وكيف أن أباه يعلمه كل يوم جمعة كيف يستعملها وينظفها .. وتذكر كيف أن أمه لا تستطيع الآن أن تضىء الشموع كل يوم جمعة . لقد قال لها أبوه انه لم تعد هناك حاجة الى مثل هذا . ان الرب القديم لم يعد موجودا .. وتتردد عيناه بين الأرنب الجلدى بعينيه المصنوعتين من الأزرار وبين السكين المرهف .. حتى ينام ..

وفى لمحات سريعة تجتاز المؤلفة فترة الحرب العالمية الثانية ، واشتراك العصابات الصهيونية الى جانب انجلترا ، ثم ما بعد الحرب ، ثم حرب فلسطين ، وأخيرا اعلان دولة اسرائيل ..

وكيف نجد الصبى الصغير « نيمرود » وقرية « بيت عون » بعد هذه الخطوب ؟ ..

لقد مات العجوز « لاميش » . مات حزينا لأنه رأى تعاليمه تذبل ، ورأى المجتمع من حوله يتجه الى عبادة القوة وعدم الايمان بالله ، وعدم الاعتراف بالحب والخوف

أما « جيديون » أو « الصخرة » كما كان يسميه أهل القرية ، ورمز القوة والالحاد والثأر من كل الحياة القديمة التى قاساها اليهود ، فقد عاد من احدى « مهماته السرية » حطاما . انفجـر فيه لغم فمزق له ذراعيه واحدى ساقيه .. عاد جسدا مشوها عاجزا عن الحركة ..

وقد حاولوا أول الأمر أن يمنعوا نيمرود من زيارته . ولكنه تسلل يوما اليه . وقد دهش حين دخل البيت فوجد « الصخرة » يبكى . لقد كان جيديون يمثل كل ما هو نقيض لاميش . ولكن ما أشبههما الآن : « لاميش ميت ومدفون تحت قطعة من الحجر ، وجيديون ميت حى ، مربوط الى سريره ، عاجز عن عمل أى شىء .. لا يستطيع أن يسير .. لا يستطيع أن يضم امرأة ..

ــ ولكنك تستطيع أن تقرأ .. وتستطيع أن تفـكر .. وتستطيع أن تتكلم ..

ــ كلا . ان الصخرة لا عقل لها . اننى لم أكن أخاف حين كان لى جسد قوى يستطيع أن يمارس أى شىء ، وعضلات أستطيع أن آمرها ، وأطراف تطيعنى ، أما الآن ، وقد فقدت كل هذا .. فماذا بقى لى .. ؟ !

ودهش نيمرود أكثر حين قال له جيـديون : انه الآن يحسد لاميش بعد أن كان يكرهه ويحتقره !!

ــ أتذكر يوم غضبت منك حين أخذك الى المعبد ؟ لقد كنت غيورا .

ذلك اننى لم أذهب الى المعبد قط . وطالما اجتاحتنى رغبة خفية كى أصلى. ولكن المجتمع هنا لم يكن يقبل من «الصخرة» أن يصلى ، أو يكون له رب .. كان على « الصخرة » أن يكون رمز النموذج الجديد ، القوى الذى لا يخاف ، ولا يحتاج الى اله !

على انه من خلال هذا كله لم يكن هناك مفر من أن ينمو « نيمرود » فى القالب الذى « يريده له الجو السائد فى بيت عون » ، وان تهمل أحلامه الأرنب الجلدى وتتعلق بالسكين ذى النصل المرهف الحاد !

« أصبحت الحياة بالنسبة لنيمرود حياة جسد ، ومادة . أفراحه جسدية وآماله جسدية . هدفه هو الاثبات المستمر لقوته الجسدية . أما الجانب الآخر من نيمرود فقد اختفى تماما .. فى حالات قليلة كان يبدو هــذا الجانب الآخر كأنه طيف شاحب بعيد ، فيقوم نيمرود برحلة على قدميه فى أنحاء البلاد ، وقد يقوى على أن يحب منظرا جميلا من مناظر الطبيعة ، بل وتصل به الحساسية أحيانا الى درجة أن يقطف بعض الأزهار ، وينسى للحظة انه يجب أن يكون قويا فحسب .. ولكن تلك كانت حالات عابرة سرعان ما تختفى ، وبينما كان جيديون «الصخرة» يتضاءل فى فراشه الى « صخرة صغيرة » ثم الى « لاميش جديد » كان نيمرود يتحول الى « صخرة » . كل ما فى الأمر انه لم يثبت صفاته تلك فى الحرب اذ أنه كان صغيرا جدا حين قامت الحرب وانتهت . ولكن لا بأس ، فان أباه يؤكد له دائما انه لا مفر من الحرب يوما ضد العرب ، لا مفر من الحرب!..

ويطرق باب نيمرود شىء جديد .. قصة حب ..

فقد نزل فى قرية « بيت عون » مجموعة من البنات المهاجرات القادمات من بودابست فى المجر . ومن بين المجموعة التقت عينا الفتــاة الشقراء « ايللى » بعينى الشاب القوى ، الصخرة ، نيمرود ..

هل يتزوج نيمرود من فتاة مهاجرة مختلفة عنه فى عاداتها وتقاليدها وأفكارها ؟ سؤال تثيره الأم ، ثم تزيحه جانبا .. ولا تعترض ..

ولكن السؤال الأساسى يبقى بين نيمرود والفتاة . انه يحبها . يحبها

حبا من نوع خاص وكأنها مجرد امتداد لجسده أو لقدراته الجسديةالمادية البحتة ، والفتاة تلاحظ هذا وتتحمله ، وترجعه أول الأمر الى انه يمارس تجربته الأولى مع النساء . ولكنها تكتشف فى القرية أشياء غريبة .. تكتشف ذات ليلة اللعبة التى يمارسها الأولاد الصغار « من هو القوى » وتصرخ حين ترى صبيا يضع يده فى النار لكى يثبت انه قوى . وتعود اليها ذكرى كل بشاعات الحرب فى أوربا . وتجرى باكية الى جيديون ، الصخرة سابقا ، الراقد فى فراشه أبدا ، يقول شعرا حزينا يائسا ! ..

انها لا تتحمل هذا الذى رأته . لأن معناه انها لو تزوجت فسوف يشب أولادها على نفس التعاليم

ويقول لها جيديون : « تسألينني عن تفسير لهذا ؟ انظرى الىّ جيدا ! أنا التفسير !.. أنا الاجابة عن سؤالك !.. سخافة .. شجاعة زائفة ! » ثم أشار الى ساقيه المقطوعتين وقال : « لا عقل ! لا حكمة ! نتائج عظيمة وخطر عظيم ! »

وقال فيما قال انه يصاب بغثيان من « نموذج الانسان الجديد » الذى يصنعونه فى البلاد .. وقال لها ان نيمرود يريد أن يكون صخرة،والصخرة لايمكن أن تتحول الى نبات حى قادر على التنفس ..

« وكان جيديون يلهث ، وقلبه يدق فى صوت أشبه بدقات عصا فى يد رجل أعمى ، يسير متعثرا ، مترددا ، فى ظلام مطبق بدون هدف .. ! »

وفى تلك المرحلة تعرض القصة شخصيات أخرى ثانوية وصورا جانبية ولكنها ذات دلالة . فهناك اليهودى اليمنى « زكى » الذى ترسم القصة فيه نموذجا لعلاقة اليهود الشرقيين باليهود الأوربيين داخل اسرائيل . فهم تابعون ضعفاء ، يعترفون ـ كما تقول المؤلفة عن زكى ـ بضعفهم وعجزهم وحاجتهم الى قيادة وحماية اليهودى الأوربى .. وهناك « رينا » بنت المزرعة التى يمكن أن تعد صورة من « النموذج الجديد » الذى تحاول اسرائيل أن تصنعه فى عالم المرأة . وهناك « يورام » الشاب ابن المدينة ـ تل أبيب ـ الذى جاء مع فرق التدريب العسكرى الى القرية .

وهناك الحديث المتواصل عن حوادث الحدود . والمؤلفة تزعم بالطبع ، بشكل غير مباشر ، ان العرب دائما هم المعتدون ، وأن اليهود يتحدثون دائما عن « الرد » ، مقابلة العدوان بالعدوان ، تلقين العــدو درسا . يقولون هذا كله فى لهجة أقرب الى الغيظ منها الى الحقد ، وأقرب الى التعب منها الى التحفز ! » ..

ويذهب نيمرود وايللى وبعض الأصحاب يوما الى المدينة ، الى تل أبيب . وهنا ترسم المؤلفة صورة غريبة للتناقض بين المزارع وبين المدن فى اسرائيل . فهى تقول ان أبناء « بيت عون » شعروا كأنهم سافروا الى دولة أخرى .. وعندما جلس نيمرود ، ابن المزرعة ، فى المقهى واستمع الى مناقشات الناس من حوله ، دهش وذعر. انهم يقولون عن اصطدامات الحدود انها وحشية وبشعة بدلا من أن يمجدوها . وهم يتحدثون عن السلم ، بل ويقترحون ايقاف الهجرة الى اسرائيل والموافقة على عودة بعض اللاجئين العرب الى ديارهم ! وعندما دخل نيمرود فى حديث مع بعض الناس سألوه من أين هو فقال « من بيت عون » فسألوه « أين تقع بالضبط ؟ » فجرح جرحا عميقا حين وجد ان الناس فى تل أبيب لم يسمعوا عن اسم بيت عون قط . ولكن الذى أثاره الى أقصى حد هو أن « رينا » نموذج « الانسان الجديد » بين البنات .. آثرت أن تترك القرية وخطيبها السابق لتتزوج شابا وسيما ناعما من تل أبيب !

وعندما عاد الى بيت عون سأله أبوه « هل صحيح أننا سنقوم باجراء عسكرى بمناسبة تبادل اطلاق النار على حدود ســوريا » فقال نيمرود مستهزئا « لا أظن .. فالناس فى تل أبيب يتحدثون عن السلام ! كأننا نحن .. نريد الحرب ! » وتستطرد المؤلفة قائلة « ولكنه كان يكذب . انه يريد الصدام والآن أكثر من أى وقت مضى .. انه يريد أن يقفز الى القتال أو فليعد الى رحم أمه وكأنه لم يولد قط ! ان الصخرة تنمو فى باطنه حتى أوشكت أن تقتل أى شىء رقيق فيه . ان « الصبار » نبات ضخم وقوى ومليء بالعصير ولكنه ينكمش فى بعض المواسم ويفقــــد

ما فيه من عصير ولا يبقى منه الا الشوك الحاد . والشوك فى نيمرود بدأ يتجه الى الداخل ويقتل فيه أى شيء يمكن أن يكون عذبا .. ولهذا فعندما نظر الى الأرنب الجلدى فجأة سخر من نفسه وقرر أن يهديه الى «ايللى» ليتخلص منه ..

وقد قرر نيمرود أن يحل مشكلة قلقه وأزمته النفسية منذ عاد من تل أبيب بمشروع غريب .. فهناك وراء حدود اسرائيل ، فى الأرض العربية الممتدة ، يشرف جبل شامخ اسمه « جبل الثلج » حيث تلتقى حدود اسرائيل وسوريا ولبنان ..

وتسجل المؤلفــة ما تسميه « يوميات نيمرود » فى رحلته الغريبة ارتدى ثيابا عربية للتنكر وأخفى خنجره بين طيات ثيابه وعبر الحدود ليلا ، صاعدا الى الجبل ..

رحلة غريبة مملوءة بالرمز ، جياشة بالكلمات والعبارات التى تحمل أكثر من معناها المباشر . ان فيها حلم الاسرائيلى بالتوسع خارج حدوده الحالية . وان هذه الجبال عبر الحدود هى ملك له . وفيهــا احساس الاسرائيلى بالغرور العميق منــذ أقام دولته « اننى لا أطلب معركة ، ولكننى أطلب شيئا أتحــداه وأتغلب عليه . وداعا يا بيت عون . ابنك خارج لكى يغتصب الجبال العــذراء ! » ثم يتحدث عن شعوره المعقد نحو العربى « اننى لست مسالما ولا باحثا عن التهدئة . ولكننى أيضا لا أهتم بالحرب ..لا أستطيع أن أقتنع بأن هؤلاء الناس أعدائى .. ربما لأنهم قريبون جدا ،يمكن لمسهم بأصابع اليد ، لو اننى أستطيع أن أتجنب رؤية « العربى » وأتصوره نوعا من الوحش ، فلربما استطعت أن أكرهه وأن أقاتله وأحاربه . ولكن هذه ليست الحقيقة . اننى أعبر حدوده لمجرد انه يملك شيئا جميلا أريد أن ألمسه ! »

وحين يصعد الجبل يعاود تحديه : « هأنذا على قمة جبل الثلج ، أصيح كما كنت أفعل وأنا صغير « من هو القوى ؟ » ولكن أصداء صوتى هذه المرة تتردد فى الاردن ، وعلى ضفاف نهر الليطانى ، وعلى الطريق الصاعد

الى دمشق ، وفى السماء ! »

ولا نرى « العربى » فى الرواية كلها الا ونيمرود عائد ، متلصص ، من رحلته الرمزية الغريبة الى جبل الثلج فيلمح ظهر عربى عجوز يحمل بندقيته ، ويكتب فى رمز آخر « كنت أفكر فى بندقيته ، ويدى على خنجرى . هل يطلق على النار اذا رآنى ؟ أسهل شىء أن أهاجمه من الظهر وأطعنه وأجهز عليه ! ولكن هذه ليست لعبة عادلة . ولكنه ــ أيضا ــ اذا اكتشف وجودى فستكون هذه نهاية أشياء كثيرة .. لو رآنى فاننى ضائع لا محالة ..

ويتزوج نيمرود من ايللى . ويبنيان بيتا جديدا فى المزرعة . ويشن الاسرائيليون هجوما ليليا على قرية سورية . وتبرر المؤلفة الهجوم طبعا بتحرش السوريين بحدود اسرائيل . ويشترك نيمرود أخيرا فى القتال الذى كان يتحرق اليه . ويعود فى ذراعه جرح خفيف . وتقول له زوجته ايللى انه يفضل أن يتخلل رصاص العدو شعر رأسه على أن تتخلله أصابع زوجته ..

وايللى تعيش فى حياتها مع نيمرود لكل الأسباب والصفات التى سبق سردها . وهى حامل ولا تريد أن يشب ابنها مثله . ولكن الحدث الذى جعلها تنفجر وتثور وتهرب من البيت هو مرض أم نيمرود ثم وفاتها .. لقد ذعرت ايللى وهى ترى نيمرود يعبر هذه المرحلة بلا انفعال . لم يجد فى وفاة أمه أكثر من مجرد حادث بديهى وطبيعى لا مفر منه ولا يحتاج الى حزن ، ولا حتى الى أن يذهب الى فراش موتها ! .. كأن هذه المرأة العجوز ليست أمه ولا تمت اليه بأى شىء !

وهربت ايللى الى بيت صاحبتها التى تزوجت فى تل أبيب « افتحوا النوافذ ! .. افتحوا النوافذ والأبواب والأرحام والا اختنقنا جميعا ! لقد تزوجت صخرة ــ شجرة ميتة .. واديا أجرد لاينبت فيه شىء !.. هل تستطيع الصخرة أن تحب ؟ لا أريد طفلا ! لا أريد أن أنجب منه ! »

وحين يذهب نيمرود الى أصحابها ليعيدوها اليه يقولون له « ان

المسكينة تحبك ! تحب ما فيك من قوة تبعث على الغثيان .. هذه أرض طيبة . انها لا تأكلنا . ولكننا نحن نأكل أنفسنا .. »

وبعد أن تهدأ أعصاب ايللى ، يصالحها زوجها ، وتعود لتلد طفلها فى بيت عون ..

ماذا بقى فى القصة من أحداث ؟ .. بقى حادثان أساسيان ..

الأول هو موت « جيديون » . فقد مات منتحرا برصاصة أفرغها فى جوفه بعد أن ترك رسالة طويلة لنيمرود ، خليفته فى حمل لقب الصخرة .. رسالة قال فيها : « اننى أحس بالذنب نحوك ، فقد قتلت الجانب الطيب فيك ــ وهو الخوف ــ لقد كنت نموذجا سيئا لك ، لقد قتلتك لأننى نفسى قتلت بنفس الطريقة من قبل ..

« لقد كنت فاسدا وقويا فى البداية وهأنذا أنتهى فاسدا وضعيفا .. ان المرء يحتاج الى شجاعة لكى يخاف .. ولم تكن لدى هذه الشجاعة ، ولا أنت فانك مهدد بمصيرى .. سوف تجن وتدمر كل ماحولك ، وتدمر نفسك قبل كل شىء . نصيحتى لك أن تترك أولادك يلعبون كالأطفال ، لا تدعهم يشبون على هذا الطراز الجديد الذى يزعمون .. لاتصنع منهم صخورا ، اننى أترك الأرض لألحق بمن هم أحسن منى مثل لاميش ! »

الحادث الثانى : أو المشهد الأخير الذى تختتم به « يائيل دايان » قصتها ، هو أن ابن نيمرود قد أصبح صبيا ..

وقد ذهب بدوره الى حيث يلتقى الأولاد ويلعبون لعبة « من هو الأقوى » وقد أراد أن يثبت قوته فقفز فى نهر الأردن ليعبره ، ولكنه يشرف على الغرق .. وفى تلك اللحظة يمر نيمرود مصادفة بالمكان ، فيرى ابنه على وشك الغرق .. وفجأة تحطم كل شىء ، لقد وقف « الصخرة » يرتعد ، كان نيمرود النموذج الجديد ، للصخرة ، يرتجف ذعرا ، كان الخوف الساحق يمزقه ، كل مخاوفه القديمة التى أخفاها .. وأغرقها .. وقتلها .. قفزت فجأة على السطح تسخر منه وتغزو قلبه وأعصابه .. وقفز بلا وعى فى الماء لينقذ ابنه .. فلما أنقذه فوجىء الأولاد بالصخرة يبكى

كالأطفال .. ! وعنـدما عاد الى البيت وهو ما زال يبكى قال له أبوه « ايفرى » : « ابك يا ابنى .. لا تخجل ! .. ابك ! .. ضـع ابنك فى فراشه وحدثه بحكايات لاميش القديمة ، وحاول أن تصلى ! »

وبينما كان الطفل فى الفراش ، أخرج نيمرود من الدولاب أرنبـا مضحكا من الجلد له عينان من الأزرار .. أعطاه للطفل !

هـكذا قدمت « يائيل دايان » صورة لمجتمع اسرائيل من وجهة نظرها.. التى تمثّل بغير شك وجهة نظر واسعة الانتشار داخل اسرائيل .. كما قال لى الصحفى الهندى الذى أعارنى الرواية ..

ومن سطور هذه الرواية وما فيها من خلجات نفهم :

ـ ان اسرائيل دولة أقامها ناس لا علاقة لهم بالدين ولا يعترفون به ، بل انهم هاربون من دينهم قبل أى شىء آخر ، رغم ان اسرائيل أقامت دعايتها وحجتها فى احتلال فلسطين على أساس الدين .. انهم ناس يثأرون لاحتقار المجتمع الأوربى واضطهاده لهم ..

ان اسرائيل أقامت ضجة كبيرة حول فكرة انها تخلق نوعا جديدا من الناس أطلقت عليه اسم نبات « الصبار » ليكون جنسا ممتازا على سائر البشر ، فهذه الدعوة ـ العنصرية فىأساسها ـ تمزقها المؤلفة تمزيقا شديدا وتدمغها بالفشل الذريع .. وبأنها تشويه للانسان لاغير ..

اننا اذا تأملنا فى هذه الفكرة وآثارها ونظرتها فسوف نجد أنها «نازية» مائة فى المائة !.. لها نظرة النازية الباردة الوحشية الى الصفة العنصرية ، والى الانسان كجسد وأداة لا شفقة فى استخدامها أو تدميرها

وان فكرة القوة .. والغزو .. والتوسع .. والعدوان .. عميقة راسخة الجذور فى بناء مجتمع اسرائيل

وان الجيل الجديد ينتقد كل هذا .. ولكنه مصاب الى حد كبير بنفس الأمراض .. فهو حائر .. يكاد يرى ان انشاء دولة اسرائيل بالنسبة له لم يكن حلا للمشكلة ولكنه كان بداية مشكلة هائلة ..

مشكلة تتلخص فى عبارة : الى أين ؟!

الفصل السادس

جان پول سارتر ..
ومشكلة اليهودى

جان بولسارتر فيلسوف وفنان ، اشتهر باتخاذ مواقفسياسية كثيرة ، تنطوى عادة على الوقوف الى جانب الحق والعدالة والمساواة ، والانتصار للمضطهدين ، ونضاله المشهود من أجل حرية الجزائر واستقلال الجزائر مازال ماثلا ، وصموده فى وجه العسكرية الرجعية فى فرنسا كان رمزا لبطولة المثقف الذى يشعر بمسئوليته نحو المجتمع

جان بول سارتر من الفنانين الذين صمدوا قبل ذلك فى وجه الطغيان النازى ، وطالما هاجم فى مؤلفاته كل ماتنطوى عليه النازية من عنصرية وتعصب قومى ..

ومن المنطق أن يكون لسارتر بعد ذلك موقف قوى ضد « أعداء السامية » أى أصحاب دعوة التعصب العنصرى ضد اليهود ..

من المنطق أن يكون له هذا الموقف ، وهو موقف عادل بالتأكيد ، لأن دعوة معاداة السامية والتعصب العنصرى ضد اليهود هى دعوة رجعية مظلمة كدعوة معاداة الزنوج وكنزعة اضطهاد أى أقليـة من أى نوع وكأى دعوة عنصرية أخرى ..

ولكن هذا كله لايبرر المبالغة ، ولا يبرر الخروج على المنطق السليم والجموح وراء الرغبة فى تبرير كل مايصدر عن اليهود ، وكل ما هو يهودى ومن هو يهودى .. ولو أدى الأمر الى اتهام العالم كله والتاريخ الانسانى كله بأقسى الاتهامات

ولكن هذا هو ما جمح اليه جان بول سـارتر بالضبط .. فى هـذا الكتاب الذى سوف أحاول أن أعرض بعض ما جاء فيه بعد استطراد قليل من هذه المقدمة ..

ونحن العرب قد وجدنا انفسنا ــ من حيث لا نريد ــ طرفا فى كل ما له صلة باليهود .. بما فى ذلك حكاية « معاداة السامية » ، ذلك ان اليهود ، الذين واجهوا على يد المجتمعات الاوروبية اضطهادا طويلا ، وصل الى قمته فى غرف الغاز التى اقامها هتلر لاعدام الجنس اليهودى .. هؤلاء اليهود وجدوا ان حل قضيتهم الوحيد هو فى ان ينشئوا مدرسة للتعصب العنصرى لا تقل عن الهتلرية ، هى الصهيونية ، وان تتبلور هذه النزعة العنصرية فى وطن ودولة لهم ينشئونها على أشلاء مليون عربى !..

هكذا ــ من حيث لا نريد ــ وجدنا انفسنا محتاجين الى ان نرهف السمع لكل ما يقال عن اليهود او المسألة اليهودية ..

لماذا ؟ ..

هل لأننـا نكره ان يدافع المدافعون عن اليهود فى المجتمعات التى ينتمون اليها .. فرنسية او انجليزية او امريكية ؟ ..

كلا .. فاننا نؤمن ان اليهودى كالمسلم والمسيحى له حق الحياة فى الوطن الذى ينتمى اليه ، بل ان دعوتنا الاساسية ضـد اسرائيل تستند الى ان اليهودى يجب ان يبقى فى الوطن الذى ينتمى اليه .. لا ان يهاجر منه لينشىء دولة عنصرية باغية فوق قطعة من أرضنا

نحن اذن تتمنى لليهودى طيب المقام حيث يكون ، لا لأن هذه هى العقيدة الانسانية التى نؤمن بها فحسب ، بل لأننا ــ أيضا ــ أصحاب مصلحة فى هذه العقيدة ، نحن أصحاب مصلحة فى ان يندثر ــ فعلا ــ التعصب العنصرى بوجه عام ، والتعصب العنصرى ضد اليهود بوجه خاص ، لأن هذا التعصب العنصرى ، ولو بطريق غير مباشر ، هو الذى خلق اسرائيل ، وهذا التعصب العنصرى هو الذى تعمـد اسرائيـل ــ الآن ــ الى إذكائه ، أو ايهام الناس بوجوده فى كل مكان ، لألقاء الجذوة التى خلقت اسرائيل ..

نحن اذن ــ لهذا كله ــ لا نكره ان يدافع المدافعون عن اليهودى فى فرنسا او بريطانيا او بولندا او امريكا ..

ولكننا نرهف السمع لهذا الدفاع ، ونشك فى واقعه احيانا ، لسبب هو : ان اسرائيل تتخذه سلاحا لها ضدنا ، وتصطنع منه دخانا يخفى جريمتها العنصرية فى فلسطين !

هنا فقط نتنبه ونشك وننتقد !.. لأنه يكون هنا — على احسن الفروض — من ذلك النوع الذى يقال عنه انه « حق يراد به باطل ! »

واسرائيل الآن تقوم « بحركة التفاف » فكرية واسعة فى العالم أجمع !.. انها تحاول بالأفلام الملونة ، وبمعدات السينما سكوب ، وبالروايات ، والمسرحيات ، وبالكتب العلمية والتاريخية ، وبالمحاكمات .. ان تثقل ضمير العالم كله بالذنب نحو اليهود !.. ان تشعر كل فرد وكل دولة وكل دين وكل ملة انه مسئول عن جزء مما حل باليهود !.. وفى غمرة هذا « الشعور بالذنب » الذى تغمر اسرائيل به العالم .. تحاول ان تستخلص الضمانات لاسرائيل ، والاموال لاسرائيل ، والأعداء للعرب بوصفهم الخصوم الجدد لليهود !.. فى غمرة هذا « الشعور بالذنب » الذى تغمر به اسرائيل العالم تحاول ان تقنع هذا العالم بأن يغفر لها ذنبها ، وان يرى فى طرد مليون عربى نوعا من التعويض المعقول لها !

ويجب ان نعترف بأن اسرائيل قد نجحت — فى اماكن كثيرة من العالم — فى خلق هذا الشعور !.. وجان بول سارتر نفسه — فى هذا الكتاب الذى اعرض له ، يقول : ان بعض المتحررين لايرون فى اليهود الا مجرد موضوع يثبتون به تحررهم !.. فالواحد منهم يتحمس فى الدفاع عن اليهود لا لاحساس باطنى قوى بالحاجة الى هذا الدفاع ، ولكن ليقول للعالم انه متحرر ! ..

وانى لأخشى ، ان يكون جان بول سارتر نفسه ، قد وقع فى هذه الغلطة ، وفاق كل المتطرفين فى الدفاع عن اليهود لهذا السبب .. من حيث يدرى او من حيث لا يدرى ! ..

ان العنوان الكامل لهذا الكتاب — ١٥٢ صفحة — هو « عدو السامية .. واليهودى ! » ..

وسارتر فى هذا الكتاب يشرح لنا ــ أولا ــ نظريته الفلسفية فى « الانسان » ليقيم على اساسها تبريره المطلق لكل ما يصدر عن اليهود !

ونظريته فى « الانسان » ــ فى محاولة للتبسيط الشديد ــ هى انه لا يوجد شيء اسمه « الطبيعة الانسانية » . أى ان الانسان لا تتحدد صفاته واخلاقه ونزعاته بمجرد مولده .. ولكن يوجد شيء اسمه « انسان فى موقف » .. بمعنى ان « الموقف » الذى يوجد فيه الانسان هو الذى يحدد ويصنع طبيعة الانسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية الى آخره ، فالانسان لايمكن تمييزه او فصله عن « الموقف » الذى يوجد فيه ..

والناس المتشابهون لايتشابهون بحكم « طبيعه » واحدة ولدوا بها ولكنهم يتشابهون بحكم تشابه « الموقف » او « الحالة » التى يوجدون فيها ، فما يجمع بين فئة من الناس هو وحدة « الموقف » وليس وحدة الطبيعة البشرية ..

والنتيجة التى يرتبها سارتر على هذا هى : انه لايوجد شيء اسمه « جنس » يهودى واحد له « طبيعة » واحدة ، فالواقع ، كما يقول : ان هناك « اجناسا » يهودية متعددة ، فالفرق بين اليهودى الروسى مثلا واليهودى اليمنى شاسع جدا كالفرق بين أى روسى وأى يمنى !

فوحدة الجنس اذن ليست هى التى تجمع بين يهود العالم ..

هل هى وحدة التراث والتاريخ ؟

فى رأى سارتر : لا !.. فتاريخ وطن اسرائيل القديم قد انقطع واندثر منذ ألفى عام ، فيهود العالم فى الواقع لا يجمعهم تاريخ واحد ولا عاطفة قومية واحدة

اذن .. هل تكون وحدة الدين ؟

كلا أيضا .. فالناس من أديان كثيرة يعيشون متفرقين فى أنحاء الأرض دون ان تكون بينهم هذه « الرابطة » او « الوحدة » التى نراها بين يهود العالم ، ثم ان اليهود المشتتين لهم نظرات مختلفة الى الدين نفسه ،

وكثير منهم ملحدون فى حقيقــة الأمر ، ولكنهم مع ذلك يتمسكون « بطقوس » الدين فقط ، لأنه يعطيهم احساسا « بالانتماء » الى فئة معينة ، فالدين بالنسبة لليهود لا قيمة له عندهم « كدين » ولكن قيمته عندهم هى « كرمز » فقط

ويخلص سارتر من هذا الى ان الشىء الحقيقى الذى يربط بين يهود العالم هو « موقفهم » ! .. هو موقف كل المجتمعات منهم .. ونظرة العالم اليهم ! ..

وأمضى خطوة أخرى مع منطق جان بول سارتر .. كى تكتمل فكرته أمام القارىء ..

ان اليهودى — فى رأى سارتر — يولد كما يولد أى مخلوق على سطح الارض .. ولكنه حين يشب يجد نفسه فى « موقف » مختلف عن الآخرين : يجد ان الناس ينظرون اليه كيهودى .. وان الدنيــا تعامله كيهودى .. هو وكل يهودى مثله ..

انه يولد وحوله جو من الاستعباد والاشمئزاز والنفور والكراهية !

انه يولد ليجد نفسه فى موقف « الملعون » ، واذا به يكتسب ، بالتالى ، الصفات المادية والمعنوية والسياسية والاقتصادية التى تترتب على هذا « الموقف » ..

انه يولد ولديه القابلية الطبيعية لكى يكون مواطنا مندمجا فى الوطن.. فرنسيا فى فرنسا ، وانجليزيا فى بريطانيا .. ولكن المواطنين هم الذين يأبون عليه ان يندمج .. فلا يجد مفرا من ان يظل « يهوديا » .. وأن تظل اليهودية صفة تميزه وتفصله عن الآخرين .. ويصبح بالتالى « غير قابل » للانتماء الى الوطن — أى وطن — والاندماج فيه

ولما كان اليهودى — أيا كان المكان الذى يولد فيه — يواجه هذا « الموقف » .. فان هذا « الموقف الواحد » بالتالى يوحد بين جميــع اليهود فى العالم .. ويخلق بينهم هــذه الرابطة التى نعرفها .. والتى مصدرها هو هذا الموقف « المنبوذ » وليس مصدرها وحدة الدين ولا

وحدة الجنس ولا وحدة التاريخ ! ..

واقدم تهمة وضعت اليهود فى هذا الوضع المنبوذ من العالم المسيحى هى اتهام المسيحيين لهم بأنهم قتلوا المسيح .. ولذلك فكل مسيحى أوربى يشب وهو ينظر الى اليهود على انهم قتلة أحفاد قتلة ! ..

والفكرة التى يبنى عليها سارتر نظريته ـ الى الآن ـ معقولة الى حد بعيد . ان الذى يجمع اليهود ليس الأصل الواحد ولا الدين الواحد ولا التاريخ الواحد . وهذا أحد الأدلة التى نسوقها لنقول انه لا حق لهم فى الوطن الذى اغتصبوه فى فلسطين . انما الذى يجمعهم هو وحدة « الموقف » .. موقف « النبذ » و « الابعاد » الذى يواجهونه فى اوربا بالذات ..

ولكن سارتر بالغ كثيرا فى ترتيب النتائج على هذه الفكرة . فذهب الى أقصى الحدود فى القاء مسئولية هذا « النبذ » على المجتمعات التى ينشأ فيها اليهود . أى على العالم كله . فى حين لم يفكر لحظة واحدة فى ان يكون اليهود أنفسهم مسئولين ـ ولو الى حد ما ـ عن هذا النبذ الذى يعيشون فيه ..

ومنذ ذلك الوقت ، والمجتمعات المسيحية فى أوربا ترفض ان ينتمى اليهود اليها أو يندمجوا فيها ـ قوميا أو اجتماعيا ـ لقد اختارت أوربا لهم مركز «الملعون» فلم يكن أمامهم مفر من ان يسلكوا سلوك الملعون . كان محرما عليهم ان يمتلكوا الارض أو أن يخدموا فى الجيش .. فلم يكن أمامهم مفر من ان يركزوا حياتهم على النقود . وبتركيزهم المطلق على النقود تعززت اللعنة الأولى عليهم بلعنة جديدة اقتصادية . واليوم ينهم العالم اليهود بأنهم لايعملون أبدا فى أعمال انتاجية كالزراعة أو الصناعة أو العمل اليدوى ولكنهم يعملون فى مهنة النقود .. فان السبب فى رأى سارتر هو أن أوربا المسيحية أبت عليهم أن ينتموا الى الوطن انتماء عاديا ، وأبت عليهم ممارسة أى مهنة أخرى ..

ويستطرد سارتر استطرادا ذكيا فى تحليل حب اليهود المشهور للفلوس ، وتفرغهم للعمل فى الأوراق المالية والبنوك والمضاربات وما الى ذلك ، فيقول : ان الذى يجذب اليهودى الى الفلوس ليس حب الفضة أو الذهب فى حد ذاته ؛ ولكن الذى يجذبه فى الفلوس هو : قوتها الشرائية أو « قدرتها على الشراء » .. الفلوس لا جنسية لها . ولا قومية ولا تراث . انها لغة عالمية .. قوتها مستقلة عن قوة القيم الأخرى التى يجد اليهودى نفسه محروما منها . « ثمن » أى شىء لايتوقف على شخصية ولا جنسية ولا دين المشترى . المشترى هو الذى يملك الرقم المكتوب فى خانة السعر . فاذا دفع الثمن فانه يصبح المـالك القانونى للشىء . فالتملك بالشراء لغة عالمية لا تحتاج الا الى الفلوس . فى الآداب المحلية نقرأ دائما ان هناك أشياء كثيرة ليس لها ثمن .. لا تباع ولا تشترى كالشرف والحب والفضيلة والذوق .. الى آخره ، وهذا فى رأى سارتر أسلوب لاستبعاد اليهودى وحرمانه من نيل هذه الأشياء ، ولكن هذا فى حد ذاته هو الذى يجعل اليهودى حريصا على أن يثبت أن كل هذه الأشياء يمكن شراؤها ، وان الفلوس بالتالى هى أهم شىء . انه لايؤمن بأن أى شىء له « قيمة » ولكن كل شىء له « ثمن » . ان « القيمة » لها معايير كثيرة غير الفلوس .. ترجع الى التراث مثلا أو الانتماء الى أصل معين أوحضارة معينة .. أو .. أو .. الى آخر هذه الأشياء التى يجد اليهودى نفسه محروما منها ، فهو لذلك يحاول الغاء فكرة « القيمة » التى لايستطيع أن يشارك فيها لتحل محلها فكرة « الثمن » .. أى الفلوس .. الشىء الذى يستطيع ان يمتلكه ويشارك فيه

« القيمة » شىء اجتماعى .. فما ليس له قيمة فى مجتمع قد تكون له قيمة كبيرة فى مجتمع آخر . واليهودى منبوذ من كل مجتمع ، لذلك فهو يفضل الغاء فكرة « القيمة » التى لايستطيع أن يشارك فيهـا ، ويحل محلها فكرة « الثمن »

فلهفة اليهودى على الفلوس .. وعدم اعترافه بأى قيمة الا بالفلوس

وبفكرة الثمن .. ليس مصدرهما خسة طبيعية فيه . ولكنهما « رد فعل» لحرمان المجتمع له من المشاركة فى القيم الخاصة بهذا المجتمع

يضاف الى ذلك ان اليهودى دائما قلق فى أعماقه . انه لايطمئن أبدا الى استمرار ملكيته لأى شىء .. انه لايستطيع ان يثق فى ان مركزه أو ممتلكاته أو قوته فى المجتمع الذى يعيش فيه يمكن أن تستمر غدا .. تاريخه عبارة عن عشرين قرنا من التيه والتجوال .. انه مستعد فى أى لحظة لأن يحمل عصاه على كاهله ويرحل . انه لايمكن أن يستشعر فعلا استقرار « الآرى » الذى لايمكن مناقشة التصاقه بأرضه وانتمائه لوطنه ، وكل القيم الاجتماعية المعترف بها فى بلاده

على هذا النحو يمضى سارتر فى سرد كثير من الصفات التى أصبحت لاصقة بشخصية « اليهودى » فى الذهن العام ، مبررا لها جميعا بأنها رد فعل ونتيجة لمعاملة المسيحية الاوروبية ، والقوميات الاوروبية لليهود خلال ٢٠٠٠ سنة مستمرة من الزمان . حتى حين يقول الواحد « يهودية حسناء » يجد ان للكلمة وقعا يختلف عن وقع قوله « امريكية حسناء » او « يونانية حسناء » مثلا . ان كلمة « يهودية حسناء » فيها نوع من لذة الاستباحة والاغتصاب ! .. اليهودية الحسناء هى تلك التى جرها فرسان القوازق من شعرها فى شوارع القرى المحترقة . اليهودية الحسناء فى الفولكلور — الأدب الشعبى — الاوربى ، هى المقهورة المغتصبة أو الذليلة فى حب أوروبى لايهتم لها كثيرا ، وسوف يتزوج آخر الأمر من أوربية مثله .. وفى بعض القصص الشعبية حين تموت اليهودية فى سبيل حبها اليائس لا تقدم القصة موتها على انه استشهاد ، بل على انه نوع من العدل ! » ..

« واليهودى فى فرنسا مثلا قد يصل الى أعلى الدرجات ، ويحقق أكبر قدر من الثراء ، ولكن المجتمع رغم ذلك يأبى عليه أن يلتحق به التحاقا حقيقيا — حتى ولو « قبل وجوده » فى كل مكان — انه قد يصبح وزيرا . ولكن الناس لايذكرونه فيقولون انه « وزير » بل انه « وزير يهودى »

وكما يرسم جان بول سارتر صــورة اليهودى التى خلقها المجتمع الاوروبى .. يرسم صــورة « عدو الســامية » .. وهو ليس المواطن الاوروبى العادى ، ولا حتى الذى يقف من اليهودى هذا الموقف ، بل هو ذلك الذى يتميز بعداء خاص لليهود

يقول سارتر ان أعداء السامية ودعاة التعصب العنصرى ليسوا عادة من الاذكياء أو المتفوقين بأى صورة من صور التفوق .. أى ليسوا من «النخبة» فى أى مجتمع ولكنهم من «العاديين تماما» أوالأقل من العاديين !

وأغلب الدعوات العنيفة ضد السامية نشأت وترعرعت بين أبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة التى لا يملك أفرادها شيئا .. فبمجرد تعصبهم يشعرون فجأة بأنهم يمتلكون شيئا . فالطبقة المتوسطة الصغيرة التى لا تملك الا قليلا فى المانيا كانت هى نواة دعوة معاداة السامية ، انها عاجزة ازاء « اليونكرز » وكبار الصناعيين الذين يملكون كل شىء فى المانيا ، وهى فى نفس الوقت لا تقبل الاعتراف بأنها لا تملك شيئا كالبروليتاريا ، لهذا أقبلت على دعوة معاداة السامية لأنها تعطيها احساسا بالامتلاك وبالتميز ازاء فئة اخرى ، هى اليهود ، تريد أن تسرق منها ما تمتلك وهو الوطن !

ويقول جان بول سارتر ان اليهودى .. ازاء هذا « الموقف » الذى يجد نفسه فيه .. يختــار أحد موقفين .. فريق يحــاول أن يتنصل من يهوديته .. وان يتهرب منها .. وان يتستر عليها .. أى يحاول بوجه عام تخفيف وقع المقاطعة الموجهة ضده .. فهو انسان فى حالة هرب دائما من نفسه ومن وضعه ..

وفريق ثان .. يكون رد فعله عكسيا . انه يقبل اتهام العالم كله ، ويعامل العالم على هذا الأساس ، ومن هذا الفريق الثانى خرج ــ فى رأى سارتر ــ أولئك الذين دعوا الى اقامة وطن يهودى ودولة يهودية ، على أساس ان تأكيد الذات اليهودية والوجود اليهودى ، والرد على النفى الاجتماعى فى انحاء العالم لا يكون الا باقامة دولة تكون لها أرض وقومية ووجود ينتمى اليه ..

ثم يقول : ان اقامة دولة يهودية قد تحل مشكلة اليهود الدين يسكنون فى تلك الدولة . ولكنها لا تحل مشكلة اليهود الذين يفضلون البقاء فى أوطانهم ، بل انها تزيد من تعقيد موقفهم .. ذلك ان قيام هذه الدولة هو دنيل آخر يبرهن على ما يقوله خصومهم من انهم لايحبون الانتماء الى الأوطان التى يعيشون فيها أصلا

وهو يتنبأ بأزمة شديدة بين اليهود المهاجرين الى اسرائيل من جهة .. وبين اليهود الباقين فى أرض آبائهم وأجدادهم ــ فرنسا أو غير فرنسا ــ من جهة أخرى ! ..

الى هنا .. وأعتقد اننى أعطيت وجهة نظر سارتر فى الموضوع فرصة كافية فى حدود هذه المساحة وقد آن أن تتأمل كلامه معا فى سطور قليلة ..

ان الملاحظة البارزة على هذا الكتاب هى ان سارتر كتبه بلهجة المحامى ، فبالرغم من ان فيه أشياء كثيرة صحيحة وعلى درجة كبيرة من ذكاء التحليل .. فان الكتاب كله مكتوب بلهجة المحامى الموكل للدفاع عن قضية معينة . فهو يشعر ان من واجبه تبرير كل شىء . والدفاع عن كل شىء . ونفى كل مسئولية ــ صغيرة أو كبيرة ــ عن موكله !

ونحن ــ كما سبق ان قلت ــ لسنا أعداء للسامية ولا أعداء لليهود كجنس أو دين . بل ولا نختلف فى هذه الناحية عن أى رأى قال به سارتر ولكن المرء حين يفصل فى قضايا نفسية وتاريخية واجتماعية عمرها ٢٠٠٠ عام ، لايمكن ان يلقى كل المسئولية على طرف واحد دون طرف وهو مطمئن الضمير . ولقد بالغ سارتر فى نفى أى مسئولية عن اليهود الى درجة انه كاد يكون « عنصريا » بمعنى آخر ! فكما ان كراهية عنصر معين هو اتجاه عنصرى ، كذلك فان نسبة فضيلة الصواب المطلق الى عنصر معين هى أيضا نزعة عنصرية !

ان سارتر حين يعيد ويزيد ويؤكد ان اليهود يحاولون دائما الاندماج والذوبان فى كل مجتمع يعيشون فيه ، ولكن المجتمعات العالمية هى التى ترفض ذلك ، وهى التى تصر على ابقائهم منفصلين .. انما يتجاهل فى

الواقع محاولات كثيرة جرت لامتصــاص اليهود فى مجتمعات كثيرة ، ويتجاهل ان اضطهاد اليهود اذا كان قد حدث فى مناسبات كثيرة الا انه لم يكن أبدا القاعدة المستمرة فى التاريخ

وفى بلاد كالبلاد الشيوعية ، تم فيها الغاء الدين بصفة رسمية وبالتالى تم فيها الغاء الدين كعنصر تمييز بين مواطن ومواطن ، وانفتحت بذلك فرصة ضخمة لليهود لكى يصبحوا على الزمن جزءا لايتجزآ من البلد الذى يعيشون فيــه .. لم يغــير هــذا من الحقيقة فى شىء ، وظلت المشكلة اليهوديه قائمة بنحو أو بآخر .. بمعنى انه ظلت الرابطة اليهودية المنفصلة عن الرابطة القوميــة العامة فى تلك البــلاد قائمة . وآية ذلك محاولات اليهود فى تلك البلاد من أجل الهجرة الى اسرائيل . بالرغم من ان كثيرين جدا من هؤلاء الراغبين فى الهجرة هم فى الواقع ملحدون ، كما يقول سارتر نفسه فى ملاحظته عن اليهود الاوربيين

انهم هنا يهربون من هذا « الاندماج » الذى يقول سارتر انهم يطلبونه

ولا يمكن القول بأنهم يهربون من نظام اقتصادى لا يحبونه مثلا .. لأنه لايحدث أبدا أن تهرب « فئة بأكملها » من وطنها ، اذا كانت تحس بالانتماء الى هذا الوطن بالمعنى الذى يفهمه أى مواطن فى أى وطن لمجرد اعتراضها على النظام الاقتصادى

وقد ركز ســارتر حديثه خلال صفحات طوال عن اشــتراك اليهود الفرنسيين فى المقاومة السرية ضد النازى وضد الاحتلال الالمانى . وأشاد طويلا ببطولتهم وقال ما معناه : انهم بهذا دفعوا أعظم ضريبة يمكن أن يدفعها أى فرنسى ..

ولكن هذا المثل لايصلح دليلا مطلقا على رغبتهم فى الاندماج والانتماء المطلق الى المجتمع الذى يعيشون فيه . والسبب هو ان العدوان النازى لم يكن موجها ضد « فرنسا » وحدها ، انما كان موجها أيضا ضــد « اليهود » بالذات . كان هتلر يهدد اليهود أكثر مما يهدد فرنسا .. فهم هنا أمام خصم للطائفة لا مجرد خصم للوطن . ولهذا فهم قد حاربوا هتلر

كيهود قبل ان يحاربوه كفرنسيين . حاربوا حرب الدفاع عن بقاء اليهود لا حرب الدفاع عن عظمة فرنسا مثلا !

والدليل على ذلك ان هناك أمثلة كثيرة تدل على ان اليهود فى هـذا الوطن او ذاك لم يكونوا يختارون دائما الانتماء الى الوطن فى ساعات مجد الوطن وساعات ذله على السواء ، وهو الانتماء الحقيقى . انما كانوا كثيرا ما يعتبرون أنفسهم كتلة خارج دائرة الوطن ، لهـا حرية اختيـار الوطن وتغييره وفق المصلحة التى يرونها ..

سارتر نفسه يشير الى الثورة الوطنية البولندية التى نشبت فى القرن التاسع عشر ضد الاحتلال الروسى . وكيف ان يهود وارسـو برفضهم الانضمام الى الثورة كانوا يهدفون الى تحقيق مركز ممتاز لأنفسهم عن طريق موالاة المغتصب الروسى ..

وسارتر يقول ان قيصر روسيا كان يضطهد يهود روسيـا فى نفس الوقت الذى كان يمالىء فيه يهود بولندا ويمنحهم الامتيازات .. وان السبب هو ان القيصر اعتبرهم فئة منفصلة عن الوطن فى الحالتين . فالفئة المنفصلة فى وطنه هى خطر على وطنه ولذلك يضطهدهم . والفئة المنفصلة فى وطن بولندا تفيد سياسته ضد بولندا فهو لهذا يمالئهم !

ولكن هل دفاع سارتر يبرىء اليهود — تماما — من مسئولية الموقف؟

واذا فرضنا ان موقف الاضطهاد داخل روسيا كان « مفروضا » عليهم ولا حيلة لهم فيه .. فهل موقف ممالأة المستعمر فى بولندا أيضا كان مفروضا عليهم ولا حيلة لهم فيه ؟ ! .. بالطبع لا .. !

مثل آخر أضربه لا لأن له دلالة خاصة ، ولكن لأنه كان محل جدل بالذات ، هو : اليهود فى الجزائر ! ..

ان اليهود الجزائريين من سكان البلاد الأصليين . ومنذ الاحتـلال الفرنسى للجزائر على الأقل يمكن القول ان حظهم وحظ أبنـاء سـائر الأديان كان واحدا . فلا يعقل ان يضطهدهم الجزائريون وهم أنفسهم مضطهدون . ولكن اليهود هناك وجدوا الفرصة المناسبة بعد الاحتلال

لكى يختاروا الجنسية وينضموا بكل كيانهم الى الكيان الطـارىء على الجزائر ، صاحب الامتيازات ، ويتخلصوا من جلدهم الجزائرى القديم .. وكان هذا قبـل ان تقرر فرنسا اعطاء الجنسية الفرنسية لكل سكان الجزائر بعشرات من الأعوام .. وبعد مرور حقبة طويلة ، وبعد اشتعال النار تحت بوتقة الثورة الجزائرية ، اصبح اليهود الجزائريون جزءا من الاوروبيين ومن مشكلة الاوربيين

ليس صحيحا اذن هذا الموقف الذى يتخذه سارتر .. من طلب البراءة التامة لكل المجتمعات اليهوديه فى كل زمان ومكان .. وطلب الادانة الكاملة لكل المجتمعات الانسانية الاخرى فى كل زمان ومكان ! ..

وكما أن المحامى الذكى يعمد عادة الى اخفاء واهمال نقط الضعف فى موقف موكله ، كذلك فان سارتر يمر مرور الكرام على نقط الضعف الأساسية فى موقف اليهود اليوم ..

ان الكتاب ـ مثلا ـ مشحون بطاقة هائلة ضد أى اتجاه عنصرى . فماذا عن الدعوة العنصرية فى داخل المجتمع اليهودى .. وهى الدعوة الصهيونية ؟ .. لا شىء ! ..

بالرغم من ان سارتر أشبع كل شىء يتصل بالمسألة اليهودية عرضـا وتحليلا فانه لم يذكر الصهيونية الا فى سطور تعد على أصابع اليـد الواحدة ! .. رغم ان الصهيونية كدعوة كان عمرها أكثر من نصف قرن عندما كتب هذا الكتاب ! .. ورغم ان الصهيونية ـ كدعوة عنصرية ـ أقدم من النازية نفسها بعشرات من السنين ! ..

لأنه لو وضع الصهيونية فى مكانها المناسب من الاهمية ، فكأنه وضع اليهود أو فئة كبيرة منهم تحت رحمة كل مدافعه الثقيلة التى يصوبها فى كتابه الى النزعات العنصرية والى كل أنواع التعصب

ومن المؤكد ان أى دراسـة للمسـألة اليهودية الآن لا تهتم بالدعوة الصهيونية فكريا وسياسيا وتاريخيا .. تكون دراسة ناقصة ومتحيزة الى حد كبير ! ..

مذكرات بن جوريون

من الصفحات الأولى لهذه المذكرات ، يلاحظ القارىء ان بن جوريون لم يحاول قط أن يكتب فى هـذا الكتاب كمؤرخ ، ولا حتى كسياسى متقاعد ، ولكنه كتبه كسياسى مازالت عينه على المسرح ، ينتظر الساعة التى يعود فيها الى الظهور : أى انه كتب فقط مايناسب مواقفه السياسية والمستقبلة ..

والحقائق التى أخفاها بن جوريون ــ بالطبع ــ أهم من الحقائق التى ذكرها ..

ومع ذلك ، فماذا يقول بن جوريون فى مذكراته التى ظهرت منـذ شهور ؟ ..

يقول دافيد بن جوريون :

« منذ آلاف السنين ورغبـة اليهود فى العودة الى أرض اسرائيـل لاتموت . وأحيانا كانت هذه الرغبة تتعدى مجرد رغبة العودة الى رغبة فى زراعة الأرض ذاتها : ففى عام ١٥٩٣ ، جاء « دون جوزيف ناسى » مع أتباعه من أسبانيا الى فلسطين ، حيث أقام أول مستعمرة زراعية فى الجليل ، على شاطىء بحيرة طبريا

ومنذ أكثر من مائة عام حاول مليونير انجليزى يهودى ، اسمه السير « موسى موتنفيور » ، أن يقنع اليهود المتوطنين فى فلسطين بأن يتحولوا الى فلاحين ، ومن أجل هذا الهدف : أقيمت أول « بيارة » يهودية من « بيارات » البرتقال ، بالقرب من يافا ، عام ١٨٥٦

وبعد ثلاثين عاما أسست منظمة يهودية فرنسية ، اسـمها التحالف الاسرائيلى العالمى ، أول مدرسة زراعية فى فلسطين ..

وفى عام ١٨٧٨ ، أسس يهودى من القدس أول قرية يهودية كاملة سماها « بتاح تكفاه Petah Tikva » أى : باب الأمل !

ثم بدأت الهجرة ، مع التحول الى زراعة الأرض بالذات تتوالى : موجات فقيرة تأتى من روسيا وشرق أوربا بوجه عام ، وأموال تأتى من غرب أوربا ، برز من بين دافعيها اسم البارون « ادمون دى روتشيلد » رجل العائلة المالية الشهيرة ، التى كانت تمول أغنى حكومات أوربا كما تمول أقسى حروبها : نفس العائلة التى مولت شراء انجلترا لأسهم قناة السويس التى كانت تملكها مصر ، على يد « الخديو اسماعيل »

وفى عام ١٨٩٦ ، أصدر صحفى ومؤلف مسرحى يهودى اسمه «تيودور هرتزل » كتابا صغيرا ، أطلق عليه اسما غريب الوقع فى ذلك الوقت وهو بالألمانية Der judenstaat أى « الدولة اليهودية »

كان « هرتزل » قد أرسلته صحيفة نمسوية الى باريس ليبعث اليها بتفاصيل محاكمة الضابط الفرنسى اليهودى « دريفوس » ، فتأثر بما وجد من نزعة الى معاداة السامية فى هذه المحاكمة ، فألف هذا الكتاب

ومن يوم صدور هذا الكتاب الصغير ، ولدت الحركة الصهيونية العالمية ، التى وضعت نصب عينيها اقامة دولة يهودية ..

ولم تحدد الحركة الصهيونية مكان هذه الدولة ، فى البدء ، بفلسطين . انما كانت مستعدة لقبول أى مكان يمكنها أن تقيم فيه الدولة الحلم

هكذا ذهبوا فى البداية الى الخليفة التركى العثمانى ليعطيهم مكانا ما فى الشرق الأدنى ولكنه رفض . وفى عام ١٩٠٢ تحولوا الى القوة الجديدة البازغة ، انجلترا ، لكى تسمح لهم باقامة هذه الدولة فى العريش وما حولها من صحراء سيناء ولكن ندرة الماء فى تلك المنطقة من جهة ومعارضة لورد كرومر الذى كان يحكم مصر فى ذلك الوقت من جهة أخرى ، أجهز على الفكرة ، ثم جاء جوزيف تشمبرلين وزير المستعمرات البريطانى وعرض على الصهيونية أن تقيم وطنها فى أوغندا ، وهو الاقتراح الذى

قسم الحركة الصهيونية وقتذاك الى قسمين : قسم يقبل العرض ، وقسم لا يقبله ..

عند هذه النقطة يقول بن جوريون فى كتابه « اسرائيل : سنوات التحدى » .. « ان الثورة الروسية قامت عام ١٩٠٥ ، ثم تمكن القيصر من قمعها » . ويعترف بن جوريون ان هذه الثورة التحررية لو نجحت لأدت الى رفع الاضطهاد عن اليهود الروس ، ولأثرت بالتالى على اقبال اليهود الروس على الهجرة ، ولكن الثورة أخمدت . وسيطر الحكم المظلم من جديد . فبدأت موجة من الهجرة الى فلسطين عرفت باسم « الهجرة الثانية » بعد أن أطلق اسم الهجرة الأولى على الموجة التى أقامت أول مستعمرات زراعية فى فلسطين عام ١٨٨٢ . وقد كان بن جوريون من مهاجرى هذه « الموجة الثانية »

فقد ولد بن جوريون ، كما يقول فى ١٦ ديسمبر عام ١٨٨٦ ، فى مدينة بولندية صغيرة اسمها « بلونيسك » .. كانت فى ذلك الوقت جزءا من روسيا القيصرية . كان أبوه محاميا . وكان بيته مقرا لنشاط يهودى كبير . فلم يلبث دافيد بن جوريون أن أصبح واحدا ممن يشتركون فى الجمعيات اليهودية ويعملون فيها بنشاط كبير

وفى عام ١٩٠٦ ، وجد ان القاء الخطب فى القرى الروسية لا يكفى ، فقرر أن يهاجر الى فلسطين : وفى ذلك الصيف ركب مع بعض اليهود الروس باخرة روسية عبرت بهم الى البحر المتوسط ، بعد أن حصلوا على تصريح تركى بالاقامة فى فلسطين مدة ثلاثة شهور ، وبعد أسبوعين فى البحر رست سفينتهم فى يافا

ويقول بن جوريون : ان أمله خاب حين وجد اليهود الموجودين فى فلسطين يعيشون حياة « الأفندية » على حد تعبيره : يحصلون على ايراداتهم من تأجير الأرض للغير أو من المهن الأخرى التى « فرضت على اليهود » .. يقصد الربا والسمسرة وشتى أعمال المال ..

كان واضحا له ان مثل هذه الحياة لا تخلق شعبا ملتصقا بالأرض

فبين الأرض والشعب ؛ لابد أن تقوم رابطة من العمل »

وبهذا الاتجاه الى العمل ؛ لا الى خلق « طبقة عليا من اليهود » ، بدأ اليهود يغرسون أول جذور لهم فى فلسطين بالعمل اليدوى المباشر فى كل مهنة ، وباحياء اللغة العبرية ، واقامة مدارسها ، وتثبيتها فى الحياة العامة قدر الامكان .. الى هذا العمل بالذات ، يُرجع بن جوريون بدء ميلاد دولة اسرائيل ..

وكان بن جوريون من بين أولئك الذين عملوا فى زراعة البرتقال ، والعنب ، وصناعة النبيذ ، ويقول : انه بينما كان يسير وراء المحراث فى الحقل ، كان يهتم بما تحقق بعد ذلك من اقامة الدولة .. بينما كانت موجة الهجرة الثانية مستمرة ، من الشباب الذين يندفعون وينتشرون فى حقول العمل اليدوى بالذات ..

وكما تعلموا زراعة الأرض ، بدأوا يتعلمون الدفاع عنها ، بدأوا يكوّنون جماعات سرّية مسلحة مدربة على القتال حملت من ذلك الوقت اسم « الهاجاناه » ..

ولما كانت البلاد التى يحدث فيها كل هذا تابعة فى ذلك الوقت للدولة العثمانية ، واليها سوف يتجه عمل اليهود لكسب مزيد من الحقوق ، فقد قرر بن جوريون ، وزميل آخر له اسمه « اسحق بن زفى » ، الذى أصبح بعد ذلك ثانى رئيس لدولة اسرائيل بعد وفاة « وايزمان » ، قرر الاثنان السفر الى القسطنطينية لدراسة اللغة التركية والقانون التركى

***

وجاءت الحرب العالمية الأولى لتضع حدا لدراستهما ، فعادا الى القدس . وهناك اعتقلتهما السلطات التركية بتهمة التآمر ضدها ثم طردتهما من البلاد فذهبا الى الاسكندرية . وفى الاسكندرية نظر الانجليز اليهما أيضا نظرة شك وارتياب بسبب قدومهما من المناطق التركية ، فأعطوهما تأشيرة دخول الى أمريكا ، وأرسلوهما الى الولايات المتحدة الأمريكية ..

وصل بن جوريون وبن زفى الى نيويورك عام ١٩١٥ ، فبدأ على الفور الاتصال بالمنظمات اليهودية هناك . وكانت دعوتهما هى : اقناع الشباب الصهيونى بدراسة الزراعة وتعلمها كى يصبحوا قادرين على الهجرة والزراعة فى فلسطين بعد الحرب . كذلك بدأت الحركة الصهيونية تدعو الى تكوين فصيلة يهودية تحارب مع قوات الحلفاء وتدخل معهم فلسطين بعد طرد الأتراك بمساعدة القاضى برانديس الذى أصبح عضوا فى المحكمة الاتحادية العليا الأمريكية بعد ذلك . ولكن الفكرة نجحت فى انجلترا وليس فى أمريكا . وبالفعل تكونت هذه الفصائل وانضمت الى جيوش « اللورد اللنبى » التى اقتحمت فلسطين ، ولم يشر بن جوريون الى الثورة العربية التى قامت قبل ذلك ضد الأتراك والتى سهلت مهمة « اللورد اللنبى » الى حد بعيد ، فأغلب الظن ان سعى اليهود الى المساهمة فى المجهود الحربى للحلفاء كان توجسا من مجهود العرب الحربى وردا عليه

وفى عام ١٩١٥ ، وعد سير « هنرى ماكماهون » المندوب السامى البريطانى فى مصر ، الشريف حسين أمير مكة بأن انجلترا اذا حررت بلاد العرب من الأتراك فستردها الى العرب وتنصبه ملكا عليها . ورغم ان هذا الوعد لم يشمل فلسطين ، الا أن وايزمان ، كما يقول بن جوريون ، انتبه الى ما قد تجره أمانى العرب ، فأسرع يعمل على استصدار وعد انجليزى باقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين من جهة ، وعلى الاتفاق مع الشريف حسين من جهة أخرى . وبالفعل ، حصل وايزمان على وعد بلفور من انجلترا عام ١٩١٧ . وفى ٣ يناير عام ١٩١٩ ، حصل على اتفاق مع فيصل ابن الشريف حسين أمير مكة يعترف فيه بوعد بلفور هذا ويعد بأحسن العلاقات بين الدولة العربية التى ستنشأ فى الشرق وبين « فلسطين » ..

وبعد شهرين من الاتفاق ، عزز فيصل موقفه بخطاب أكد فيه هذا المعنى وأرسله الى القاضى الصهيونى الأمريكى « فيلكس فرانكفورتر » عضو الوفد الصهيونى الى مؤتمر فرساى فى فرنسا

ويقول بن جوريون : ان اتفاقية « فيصل — وايزمان » هذه لم يكن لها أى شأن . فالعرب فى فلسطين وفى كل الأقطار المجاورة بما فيها العراق التى أصبح فيصل نفسه ملكا عليها ، رفضوا رفضا باتا أن يعترفوا بهذه الاتفاقية ..

ويروى بن جوريون انه حضر المؤتمر الصهيونى العالمى عام ١٩٣٣ على رأس وفد « الماباى » وهو حزب العمال اليهودى فى فلسطين ، وكان يمثل أكبر كتلة فى المؤتمر لأول مرة ، فتم انتخاب بن جوريون عضوا فى المجلس التنفيذى للمنطقة الصهيونية والوكالة اليهودية .. اذن فقد أصبح بن جوريون زعيما !

ويقول بن جوريون : انه كان يرى ان أهم شيء هو الاسراع فى تهجير أكبر عدد ممكن من اليهود الى فلسطين ، ولكنه لم يعد ممكنا فى نفس الوقت تجاهل موقف العرب ، ولذلك فقد حاول أن يجد صيغة توفق بين آمال الصهيونية وآمال القومية العربية ، وذلك بالدخول فى مباحثات مع بعض العرب البارزين فى فلسطين ومصر وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية ..

« وتمهيدا لمقابلاتى مع العرب ، تحدثت مع المندوب السامى ، الجنرال سير آرثر ووتشوب ، الصديق الوفى للقضية الصهيونية ، وسألته عما اذا كانت الحكومة الانجليزية توافق على اتفاق عربى — صهيونى فى هذا الشأن . وردّ المندوب السامى البريطانى علىّ قائلا : انه لايعرف رأى حكومته فى هذا الموضوع ، ولكنه يعتقد شخصيا انها سوف توافق . وقد لعب دكتور يهوذا ماجنس أول رئيس للجامعة العبرية فى القدس دورا كبيرا فى ترتيب مباحثاتى مع العرب ، رغم اختلافى معه حول الكثير من زوايا القضية الصهيونية . وقد اتصلت المباحثات واللقاءات أكثر من عامين فى فلسطين ، وفى البلاد العربية المجاورة ، وفى جنيف ، مقر اللجنة الفلسطينية السورية .. ولكنها لم تؤد الى أى نتيجة »

وفى عام ١٩٣٣ ، وصل « هتلر » الى الحكم فى ألمانيا . وبدأت موجة

جديدة من الهجرة اليهودية الى فلسطين . وبدأت مقاومة العرب الفلسطينيين لهذه الهجرة تتخذ شكلا عنيفا ..

***

ووقف بن جوريون فى فبراير عام ١٩٣٧ ، فى اجتماع « الهستدروت » — اتحاد نقابات العمال الصهيونى — يقول : ان العرب لن يفهموا الا لغة القوة . وان التباحث معهم لايجدى . انما لابد لهم أن يشعروا بأن الصهيونية قوة يحسب لها حساب ، وانها عامل حاسم فى الموقف ، وليست مجرد عنصر ثانوى

وفى نوفمبر عام ١٩٣٦ ، أرسلت انجلترا لجنة ملكية تحت رئاسة « اللورد بيل » لتبحث موضوع العلاقات العربية اليهودية فى فلسطين ، وفى العام التالى نشر التقرير وكان يدعو الى تقسيم فلسطين . ولكنه لم يلبث أن دُفن ..

وفى عام ١٩٣٩ ، دعت انجلترا الى مؤتمر عربى — يهودى — انجليزى فى لندن ، هاجم العرب فيه الانتداب البريطانى واقتراح التقسيم على السواء . أما موقف انجلترا فقد أوضحته فى الكتاب الأبيض الذى نشر فى ذلك العام ، وكان يقرر ادخال ٧٥ ألف يهودى فى الخمسة أعوام التالية . على ألا يدخل البلاد أى يهودى آخر بعد ذلك الا بموافقة العرب . وشنت الصهيونية حملة واسعة على هذا الكتاب الأبيض . وفى مقدمة من هاجموه فى البرلمان البريطانى نفسه ، واحد من كبار أصدقاء الحركة الصهيونية : « ونستون تشرشل » الذى كان يحمل لواء المعارضة ضد رئيس الوزراء « نيفيل تشمبرلين »

***

ثم انفجرت الحرب العالمية الثانية .. ويحاول بن جوريون أن يسجل فى تاريخ هذه الحرب أن العرب وقفوا فيها الى جانب هتلر ، بينما وقفت الحركة الصهيونية الى جانب الحلفاء . وهو تصوير كاذب وغير صحيح .. فالحكومات العربية ذاتها كانت موالية للحلفاء بل ومستسلمة لهم .. أما

الشعوب العربية فكانت تطلب خروج الجميع من انجليز وفرنسيين وألمان من بلادها ، وهو موقف اتخذته كثير من القيادات الوطنية فى البلاد الخاضعة للاستعمار .. مثل غاندى وحزب المؤتمر فى الهند — مثلا — أما الأفراد الذين لجأوا الى ألمانيا فرارا من اضطهاد الانجليز لهم .. فهم لايعطون الصورة الكاملة عن « موقف العرب »

ومضت الصهيونية خلال الحرب ، تنظم الهجرة الشرعية وغير الشرعية الى فلسطين ، بواسطة الأداة العسكرية التى أسستها الصهيونية منذ عام ١٩٢٠ باسم « الهاجاناه » ويعترف بن جوريون هنا ان قوات اليهود العسكرية — الرمزية فى الواقع — التى قاتلت الى جانب الحلفاء فى أوربا كانت مهمتها تنظيم وتسهيل هذه الهجرة غير الشرعية . فلما اقتربت قوات روميل من الشرق الأدنى ، أسس الصهيونيون نوعا آخر من القوات العسكرية اسمه « فرق البالماخ » لتقوم بمهمة مقاومة الألمان خلف خطوط القتال فيما لو احتلوا فلسطين

***

وفى خلال هـذا كله ، كان همهم الوحيـد هو التفكير فى مستقبل فلسطين بعد الحرب ..

ويقول بن جوريون : انه كان واضحا لهم ان ألمانيا سوف تنهزم حتما فى النهاية وتنتصر انجلترا . وقد أصبح رئيس وزراء انجلترا ونستون تشرشل نفسه صديق الصهيونية العريق . ولكن كان واضحا لهم أيضا ان انجلترا وان كانت ستخرج منتصرة الا إنها ستخرج أيضا ضعيفة . أما مركز الثقل فهو ينتقل بسرعة الى الولايات المتحدة الأمريكية .. فالى هناك ، حيث توجد أكبر وأغنى جالية يهودية ، يجب أن ينتقل العمل

وهكذا ذهب بن جوريون الى أمريكا منذ عام ١٩٤٠ ، ليعمل بين المنظمات اليهودية هناك ، وفى مايو عام ١٩٤٢ ، اتخذ مؤتمر الصهيونيين الأمريكيين قرارات عرفت باسم « مقررات بلتيمور » ، نسبة الى الفندق الذى انعقد فيه المؤتمر . وكانت هذه القرارات تقول : « ان مشكلة

السلام فى العالم لن تحل الا بحل مشكلة تشرد اليهود فى العالم بغير وطن .. وانه لذلك لابد من منح الوكالة اليهودية سلطة كافية لتحول فلسطين الى « كومنولث يهودى » بعد الحرب »

وانتهت الحرب . وانقلب الحال فجأة فى انجلترا ، فقد خرج تشرشل من الحكم وجاء حزب العمال . فهل هى صدمة للصهيونية ؟
كلا ...

يقول بن جوريون : « ان حزب العمال كان قد سبق له أن اتخذ خلال الحرب قرارات تدعو الى قيام دولة يهودية ، قرارات فيها ما هو أكثر مما طالبت به الوكالة اليهودية نفسها فى أى وقت ، وخصوصا قرار يقضى باقتلاع كل العرب فى الدولة اليهودية ونقلهم الى البلاد العربية المجاورة ! » ..

ولكن المشكلة فى رأى بن جوريون لم تكن فى عدم حماسة حزب العمال فى خدمة الصهيونية ، ولكن فى عدم قدرته .. وعدم قدرة انجلترا بوجه عام ! .. يضاف الى ذلك ان مجلس الوزراء ليس هو كل شىء ، فهناك أيضا جهاز الدولة وأجهزة المستعمرات ، التى يعتقد بن جوريون انها كانت قد أصبحت كلها ، منذ صدور الكتاب الأبيض ، معادية للصهيونية ..

هكذا أصبح لا مفر من احتمالين : اما الدولة اليهودية ، واما تنفيذ الكتاب الأبيض ..

وهنا يشن بن جوريون حملة على وزير خارجية العمال بالذات ، ارنست بيفن ، الذى كان مسنودا فى رأيه من آتلى رئيس الوزراء ، ويقول : انه وصل الى الاقتناع بأنه لابد من الاصطدام بانجلترا ، وبعرب فلسطين ، وبالدول العربية المجاورة .. « والا بقى اليهود أقلية مغلوبة فى بلد عربى ! » ولهذا لابد للصهيونية من شىء أساسى وهو : القوة !

لا نظير فيما أعرف من كتابات .. لهذا التبجح !

انه يتحدث عن فلسطين ، كأنها بلد خال من السكان !

انه فى لحظة واحـــدة يقلب صفحة الحديث عن العـــدل والانســـانية والديموقراطية حين يصل الى النقطة الحاسمة ، ليتحدث عن أشياء أخرى تماما : القوة ! السلاح ! اقتلاع الشعب من مكانه ! تحـــويل الأغلبية الى أقلية ! ..

ويستطرد بن جوريون قائلا : انه كان دائما رئيس المجلس التنفيذى للوكالة اليهودية دون أن يتولى وزارة بعينها . فلما أنشئت وزارة الدفاع لأول مرة عام ١٩٤٦ ، تولى الاشراف عليها .. وهناك بدأ على الفور بدراسة القوة الحقيقية لفرق « الهاجاناه » فوجدها عام ١٩٤٧ ، كالآتى :

١٠٫٠٧٣	بندقية عادية
١٫٩٠٠	بندقية أوتوماتيكية
١٨٦	مدفع رشاش
٤٢٤	مدفع رشاش خفيف
٦٧٢	مدفع مورتر عيار بوصتين
٩٦	مدفع مورتر عيار ثلاث بوصات

وعلى الفور بدأ العمل لاقامة صناعة أسلحة حربية فى فلسطين ، وفى تهريب المعدات والأسلحة من الخارج . ويقول بن جوريون : انها جاءت من أمريكا بالذات التى كانت على وشك تخفيض صناعاتها الحربية بعد أن انتهت الحرب ، وحين يقول بن جوريون انهم حصلوا بمليون دولار على أسلحة تساوى ملايين كثيرة نفهم ان الأمر لم يكن مجرد شطارة ، انما كان ينطوى بغير شك على تسهيلات رسمية غير عادية ..

أما الدول التى رضيت ـ كدول ـ أن تبيع لهم الأسلحة فكانت : تشيكوسلوفاكيا وفرنسا !

وفى تقرير أصدره بن جوريون فى ذلك الوقت لفرق « الهاجاناه » ، قال : ان العدو المقبل هو انجلترا والعرب . ولكن الأمر يختلف « فخلافنا مع انجلترا سياسى . واذا لجأنا أحيانا الى أعمال عسكرية ضدها فلمجرد تأكيد موقفنا السياسى » أما العرب فالمعركة عسكرية . ثم يدعو الى

تدريب « الهاجاناه » بحيث تصبح قادرة على قتال « الدول العربية » لا العرب الفلسطينيين وحدهم

***

وفى مايو عام ١٩٤٧ ، طرحت قضية فلسطين للمناقشة فى جلسة خاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة . ولأول مرة يسمح للوكالة اليهودية بأن تشترك فى الجلسة وكان السؤال الذى يشير الى مفترق الطرق هو : هل هناك علاقة بين مشكلة اليهود فى العالم وبين فلسطين « كما يقول الصهيونيون » .. أم ان كلا منهما مشكلة منفصلة ، كما يقول العرب ؟

وأيدت تركيا والهند وأفغانستان رأى العرب ، بينما أيد الباقون كلهم رأى الصهيونية ! ..

فقد كان « الوجود العربى الدولى » فى ذلك الوقت فى قاع سحيق من الضعف وعدم القدرة على التأثير !

ثم تقرر تكوين لجنة استقصاء من احدى عشرة دولة

وقررت أغلبية اللجنة تقسيم فلسطين الى دولتين : احداهما عربية ، والأخرى يهودية ، يجمعهما اتحاد اقتصادى

وفى يوم ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧ ، صوتت ٣٣ دولة بما فيها أمريكا ، والاتحاد السوفييتى فى صالح هذا القرار . وصوتت ضده ١٣ دولة : الست دول العربية الأعضاء فى ذلك الوقت ، وأربع دول اسلامية هى : باكستان ، وأفغانستان ، وايران ، وتركيا ، وثلاث دول لا هى اسلامية ولا عربية ، وهى : الهند ، واليونان ، وكوبا . وامتنعت عن التصويت عشر دول بينها انجلترا

وفرح الصهيونيون واليهود فى كل مكان . بينما أعلن العرب انهم لن يقبلوا القرار ، وأنهم سوف يقاومونه بكل الوسائل ..

***

فى صفحات قليلة يطوى بن جوريون قصة الحرب التى نشبت عقب انسحاب انجلترا من فلسطين بين الدول العربية واسرائيل .. واعلانه قيام

دولة اسرائيل فى اجتماع كبير بتل أبيب .. والبيان الذى أذاعه بذلك من محطة الاذاعة السرية التى كانوا قد أعدوها لتصبح اذاعة علنيــة فى تلك الليلة .. بينما كانت الطائرات المصرية تقذف قنابلها فى أول غارة على تل أبيب .. ثم أحداث القتال ، والهدنة الأولى ، ثم الهدنة الثانية .. ثم تكون اسرائيل بعد هذه الخطوب عند حدودها الحالية « التى يقول : انها أضافت الى اسرائيل فوق نصيبها المقدر فى قرار التقسيم بما يصل الى الثلث » ، ثم كل الأحداث السياسية حتى عام ١٩٥٣ ، حين قرر أن يستقيل من رئاسة الوزارة ويعتزل فى قرية « سدى بوكر » فى صحراء النقب ..

ولا أظن اننا فى حاجة الى سرد ما رواه عن هذه الأحداث . ذلك ان الأحــداث نفسها معروفة . ولكن المهم هو أن نقف عنــد « طريقة بن جوريون » فى سرد هذه الأحداث ، والنظر الأمين الى هذه الطريقة يثير الملاحظات التالية :

* يكشف بن جوريون منذ البداية عن نواياه تجاه قرار التقسيم ، الذى يتظاهر باحترامه ، حين يقول : انه تلقى قرار التقسيم بمشاعر مختلطة . صحيح ان هذه أول مرة تعترف فيها المنظمة العالمية بقطعة أرض لاقامة دولة عليها لليهود . ولكنه يرى ان هذه القطعة لاتكفى ، ثم انها مجزأة تربط بينها ممرات تقع تحت رحمة الأرض التى تركها القرار للعرب ثم انها تحرم اسرائيل من مساحات شاسعة فى النقب

وهذه النية هامة ، فهى تكشف عن ان خطة اسرائيل الحربية للتوسع عام ١٩٤٨ ، لم تكن عقوبة استدعتها الظروف الخارجية وحدها ، وتؤكد ان اسرائيل لاترى حتى هذا الذى حصلت عليه خاتمة لآمالها . انما هو فى رأيها خطوة ، يجب التوسع بعدها : كلما سنحت الظروف

* ان بن جوريون يحاول أن يصور الأمر على ان انجلترا والعرب كانوا يقفون فى جهة ، والحركة الصهيونية التى تطورت الى دولة اسرائيل وحدها فى الجهة المقابلة . فالقارىء حسن النية لايلبث أن يعجب بهذه

القوة الصهيونية الصغيرة التى هزمت تحالفا من سبع دول عربية ودولة كبرى ، هى بريطانيا ..

فهو يريد أن يقلب « الصــورة الاستعمارية » الحقيقية التى كانت موجودة فى المنطقة وقتذاك ، مصورا اسرائيل على انها كانت فى موقف القوة الاستقلالية التحررية التى تحاول أن تدافع عن نفسها ضد قوة استعمارية وبريطانية ..

والواقع هو عكس ذلك تماما ..

فالحقيقة الاســتعمارية البسيطة فى المنطقة فى ذلك الوقت هى : ان انجلترا كانت الدولة التى تستعمر المنطقة بجيوشها ونفوذها على السواء ، بما فى ذلك فلسطين نفسها . وانه تحت سمع الدولة الاستعمارية وبصرها وبتشجيعها فتحت أبواب اسرائيل للهجرة « الشرعية » وغير الشرعية وصدرت التصريحات تلو التصريحات ـــ بدأت من وعد بلفور ـــ لخلق أسس قانونية لايجاد كيان يهودى على أرض عربية . أما اذا تحرك العرب فهنا تتصدى لهم هذه القوى الاستعمارية بالضرب والقهر والكبت ..

فالشعب العربى هو الشعب الذى كان واقعا تحت سطوة الاستعمار : يرى جزءا من بلاده يقتطع منه يبطء دون أن يقدر على شىء

دون أن يقدر على شىء : بسبب التخلف الاقتصــادى والاجتمــاعى المفروض عليه . وبسبب الحكومات العميلة التى نصبها الاستعمار ومنحها « وهم » الاستقلال لا حقيقته . وبسبب الجيوش المصطنعة التى كان كثير من ضباطها انجليزا ، وكان مصدر تسليحها وشريان حياتها انجليزيا . وبسبب الوجود الاستعمارى الصريح ممثلا فى قوات الاحتلال العسكرية فى هذه البلاد العربية

لم تكن انجلترا والعرب اذن فى صف ، ووكالة بن جوريون فى صف .. انما كانت انجلترا تقف وقد كبلت العرب بكل القيــود ، تشهد النمو الصهيونى فى تشجيع مستتر ..

و « حادث الحرب » ليس وحده هو الذى صنع اسرائيل انما صنعتها

كل الأحداث السابقة منذ الحرب العالمية الأولى ووعد بلفور : وفى خلال هذا كانت انجلترا تضرب بقوة السلاح كل محاولة لأى نمو عربى فى المنطقة نحو الاستقلال ، بينما كانت تسمح للوجود الصهيونى بأن ينمو ويتبلور يوما بعد يوم ..

واذا كان قد بدا ، فى اللحظات الأخيرة ، أن انجلترا قد أصبحت « عصبية المزاج » فى وجه السياسة الصهيونية وأنها حاولت أن توقف المد الصهيونى عند ذلك ، فذلك لأن الحركة الصهيونية قد كشفت فى هذه الساعات الأخيرة عن انها تخطت السياسة الانجليزية بالفعل . وانه بعد أن كان الظن ان الدولة الجديدة أو الكيان الجديد سيكون تابعا لانجلترا كفلسطين القديمة ، بصورة أو بأخرى ، ظهر أن ولاءها قد انتقل نهائيا الى أمريكا ، وأنها تهدف الى الاستقلال التام وطرد الانجليز ، فأصبحت بذلك تشكل حقيقة جديدة مربكة لانجلترا فى فترة ما بعد الحرب باضطراباتها وبما ظهر خلالها من تشقق فى بناء الامبراطورية البريطانية كله ..

* وكما أن بن جوريون يحاول أن يزيف وضع القوى الاستعمارية فى المنطقة ، فهو يحاول أن يظهر القوى الدولية الكبرى ـ وفى مقدمتها أمريكا ـ وكأنها قامت فى هذه المأساة بدور ثانوى ، بينما قام بن‌جوريون والستمائة ألف يهودى فى فلسطين بالعبء كله . وهذا أيضا تصوير مضلل لحقيقة ماحدث . ان مهارة الحركة الصهيونية ولا شك هى أنها استطاعت أن تنظم قوى اليهودية العالمية حيثما كانت لتأييدها . وانها استطاعت من خلال هذه اليهودية العالمية أن تضغط وترجو وترشو وتلح وتنذر وتساوم وتضلل حتى تمكنت من تحويل الدول الكبرى الى موقف تبنّى القضية الصهيونية ..

وهنا بالذات يبدو فشل العرب الحقيقى خلال تلك الفترة : فقد تمكنت الصهيونية من اقناع دول العالم أنها قوة لها حسابها فى ميزان الصداقة أو العداء ، بينما أعطى العرب عن أنفسهم ، بحكم كل ظروف التخلف

والاستعمار ، صورة الذى لا يكسب أحد من صداقته ولا يخشى أحد من عداوته ..

ولكن هذا كله شيء .. وكون الصهيونية هى التى تولت بقوتها الذاتية تحقيق أغراضها فى فلسطين ، شيء آخر ..

فالقوى الدولية التى سمحت بالهجرة غير الشرعية من قلب أوروبا الى شاطيء البحر ، ثم سمحت للسفن المشحونة بالسفر فى البحر المتوسط تحت سمع الأساطيل وبصرها ، ثم أمرت بايقاف القتال ساعة تحرج وضع اليهود بالهدنة الأولى ، ثم سمحت باستمرار القتال ساعة قوى ساعد اليهود بعد الهدنة ، ثم سمحت بتخطى اسرائيل حدود التقسيم رغم قرارات الأمم المتحدة ، ورغم مصرع رجل الأمم المتحدة « فولك برنادوت » . هذه القوى الدولية التى كانت توجه ، على لسان ترومان ، انذارات مدوية بضرورة قبول مائة ألف مهاجر يهودى فى فلسطين قبل آخر السنة والتى كانت فى نفس الوقت من خلال عملائها وسلطانها ووجودها المسلح فى البلاد العربية تدمر كل رد فعل جدى ازاء هذه الأحداث : هذه القوى بمصالحها السياسية والاستراتيجية الكبرى هى التى قامت وقتها بالدور الأساسى فى ايجاد اسرائيل ، وهى الخصم الحقيقى الذى تمكن آخر الأمر من قهر العرب

ونضال العرب فى السنوات التى تلت ١٩٤٨ ، ضد الاستعماروالرجعية العميلة فى شتى صورها ، كان أحد بواعثه الدرس الذى تلقاه العرب من مأساة فلسطين ذاتها ..

* ويحاول بن جوريون أن يستفيد الى أقصى الحدود من قصة الهجرة العربية من فلسطين : فهو تارة يدلل بها علىجبنالعربوتفككهم.. وتارة يحاول أن يبث فى القاريء شعورا بأن عامة العرب كانوا راضين بالتقسيم حين يقول ان العرب بدأوا يهاجرون تلقائيا من المناطق التى جعلها مشروع التقسيم جزءا من دولة اسرائيل .. وتارة يصف الأمر ، بشكل غير مباشر ، وكأنه تقلص الظلمة أمام انتشار النور والحضارة

والواقع أن مأساة الهجرة تحتاج الى دراسة مستقلة خاصة بها . ولكن الذى يمكن أن يقال فى هذا المجال ، هو أنها بالفعل كانت حدثا خطيرا وظاهرة ذات دلالة بعيدة المدى ، يفسرها بضعة أشياء :

ـ يفسرها ، ولنعترف ، تخلف الأمة العربية حضاريا . فبينما كان المجتمع الفلسطينى العربى صورة من المجتمع العربى فى كل مكان : زراعيا اقطاعيا بدائيا ، بعيدا عن العمل الصناعى والتنظيم النقابى والزراعة العلمية المنظمة والنظرة العلمية التنظيمية فى كل شىء ، كانت الموجة الصهيونية الغازية مزودة بهـذا كله تسندها قوى دولية استعمارية عديدة ، الأمر الذى أكسبها ساعة الصدام الحاسم ميزة كبرى لا شك فيها

ـ ويفسرها القيادة الخاطئة الجاهلة التى منى بها العرب . قيادة لم تتمكن من أن تعطى خط السلوك والتصرف لجماهيرها ، وهل تبقى أو ترحل ، بل ان هذه القيادات كانت تبدو مشجعة لهذه الهجرة ، جاهلة أنها ببقاء العرب فى أماكنهم انما تجعل قيـام اسرائيل كله أمرا شـبه مستحيل ، رغم كل الظروف

ـ ويفسرها ، وهو اعتبار أساسى وان كنت قد أبقيته حتى النهاية ، أن الصهيونيين جعلوا المدنيين الآمنين هدفا أساسيا لهم ، فارتكبوا ضدهم المذابح الشهيرة فى دير ياسين وغيرها ليجعلوا بقاءهم مستحيلا : فهم أيضا من خريجى مدرسة هتلر الوحشية واللاأخلاقية كالنازيين سواء بسواء

بعد ذلك ، يقفز بن جوريون فى كتابه الى أحداث حرب السويس سنة ١٩٥٦ ، وهجوم اسرائيل على شبه جزيرة سيناء خاتما به الكتاب ..

وهو فصل أشبه بقصة من صميم الخيال ..

فقد روى الأحداث على أن اسرائيل هى التى هجمت وهى التى حاربت وهى التى قررت متى تتقدم ومتى تتراجع ..

ولكن ، لسوء حظ بن جوريون ، فان كتابه صدر فى نفس الأسابيع التى صدرت فيها كتب أخرى أحدثت ضجة كبرى ، خصوصا كتـاب « السويس : سرى جدا » للمؤلف الاسرائيلى ميشيل بن زوهار ..

وهو الكتاب الذى يشرح قصة الفصل التالى ..

الفصل الثامن

حرب السويس

لا يمكن الفصل بين قصة اسرائيل ، وقصة حرب السويس ..

وحتى الآن ، ما زالت هنـاك موجة طاغية جديدة من الكتابة ــ فى أوروبا وأمريكا واسرائيل ــ عن حرب السويس ، والكتب الجـديدة تصدر مثقلة بأسرار بالغة الخطورة والغرابة .. ويؤدى نشرها بالتالى الى ضجة كبرى وجدل عنيف . ولا يمكن أن يعيش القارىء هنا فى عزلة عن هذه الأسرار والمنازعات التى تهمه فى الدرجة الأولى ..

ثم ان اذاعة هذه الأسرار الخطيرة ، عما كان يدور فى واشنطون ولندن وباريس وتل أبيب وغيرها ، بصرف النظر عن خطورة هـذه الأسرار وغرابتها ، فان فيها دروسا لا تقدر بثمن .. انها تعلمنا كيف تدور عجلة الفكر والعمل فى الدوائر السياسية والعسكرية العليا فى تلك البلاد

يضاف الى ذلك أن كثيرا من القوى التى حركت أداة الحرب ضدنا ، بسبب تصادم مصالحها معنـا ، ما زالت فى مراكز الحكم أو التأثير فى الحكم فى بلادها ، وما زالت بعض مصالحها تصطدم بنا .. فالقصة لم تذهب بكل ذيولها بعد ..

ومن أبرز وأخطر الكتب التى ظهرت عن حرب السويس أخيرا كتابان :

الأول : كتاب « دالاس والسويس » للمؤلف الأمريكى هيرمان فينر ، الذى ثارت بسببه ضجة عنيفة فى البرلمان الانجليزى ، جعـل المعارضة تطالب سلوين لويد بالاستقالة .. لأن الكتاب يسـجل انه كذب على البرلمان البريطانى حين قال انه لم يتآمر مع اسرائيل على الهجوم ضد مصر ، فى حين أن المؤلف يروى أن سلوين لويد طار الى باريس سرا

وقابل بن جوريون هناك قبل الغزو بأيام

وقد سئل المؤلف ، فى برنامج تليفزيونى ، عن مصدر هده الواقعة . فقال : انه سـمعها من كريستيان بينو ، وزير خارجية فرنسـا فى ذلك الوقت ، والرجل الثالث الذى كان فى الاجتماع السرى .. مع سلوين لويد ، وبن جوريون ..

وفى باريس اتصلت جريدة لوموند بالوزير الفرنسى السابق ، وحاولت أن تسأله عن صحة الواقعة .. فرفض أن يكذبها !

والكتاب الثانى هو : « السويس : سرى جدا » للمؤلف الاسرائيلى « ميشيل بن زوهار » ، وهو كتاب يذيع أدق الأسرار وأخطرها عن خطة الغزو والمؤامرات التى سبقتها ..

والمؤلف الأول حاقد طول الكتاب على دالاس لأنه يعتقد أن دالاس هو الذى عرقل الهجوم على مصر زمنا طويلا ، فلما وقع الهجوم فعلا ، تخلى عن حلفائه ، مما جعل عبد الناصر ينتصر .. الأمر الذى يندم عليه المؤلف ندما شديدا ..

والمؤلف الثانى ، يرى فى تآمر اسرائيل السرى مع بريطانيا وفرنسا صفحة مشرفة مشرقة .. يزهو بها

ولكن تبقى بعد ذلك الفائدة الكبرى للمعلومات الخطيرة التى يدليان بها ..

ان الكتاب الأول يركز على الجانب السياسى الدبلوماسى

والكتاب الثانى يركز على جانب التآمر والتنفيذ ..

الكتاب الأول يروى القصة عن أمريكا

والكتاب الثانى يرويها عن لندن وباريس وتل أبيب

ولهذا آثرت أن أقدم الكتابين ـــ بل الوثيقتين ـــ معا فى سرد واحد لأنهما ترويان قصة واحدة ..

ربما كانت حرب السويس تعد « حربا صغيرة » اذا قيست بعدد الأيام الخاطفة التى استمر فيها القتال المسلح ..

ولكنها كانت «حربا» بأوسع معانى هذه الكلمة وأخطرها : اذ تعرضت فيها أقدار دول كبرى ودول صغرى للخطر .. وتعرضت فيهـا مبادىء النظم السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية للامتحان .. كما تعرض العالم كله — فى بعض مراحل الحرب — لكارثة محققة

وكل يوم ، تفتح الأسرار عن جوانب أخرى فى هذه القصة التى لم نعرف كل جوانبها بعد ..

والكثير جدا مما يحدث فى عالم اليوم ، ترتب فى الواقع على الأحداث الكبرى لهذه الحرب القصيرة : حرب السويس

يقول — مثـلا — هيرمان فينر ، مؤلف الكتاب الأول : ان النزعة الاستقلالية فى أوروبا ، التى يمثلها ديجول ، والتى تريد ألا تكون تابعة لأمريكا .. قد أصبحت عقيدة لدى دوائر أوروبية كثيرة ، منـذ تجربة حرب السويس ، وما يسميه المؤلف خيانة دالاس لحلفائه الأوروبيين ، واخضاع مصالحهم لمصالحه .. أى مصالح أمريكا ، كما تصورها ..

وكأى حرب ، كانت هناك أحداث جسيمة أدت الى وقوعها ، بل جعلت نشوب الحرب حتميا ..

هذه الأحداث ، كما تكشف عنها هذه الكتب هى :

— صفقة الأسلحة بين مصر والاتحاد السوفييتى

— حلف بغداد ووقوف مصر فى وجهه

— ارتباط مصر بمساعدة الثورة فى الجزائر

— اعتراف مصر بالصين الشيوعية

— السد العالى ، وسحب دالاس العرض الخاص بتمويله ، ثم تأميم عبد الناصر لشركة قناة السويس ردا على ذلك

بل ان من يتأمل أثر هذه الأحداث فى العالم الخارجى ، وما كان يدور بسببها وراء الكواليس فى لندن وباريس وواشنطون وتل أبيب يجد أنه كان من المستحيل ألا تقع الحرب ! ..

ولما كانت هذه الأحداث ليست ، هى فى حد ذاتها الموضوع الرئيسى

لهذا الحديث ، فلا بأس أن يكون المرور بها سريعا خاطفا ، بقدر ما يقف بنا ــ فى وضوح ــ عند بدء مؤامرات الحرب ذاتها ؛ وما أحاط بها من أسرار عجيبة ..

فهذه الأحداث أو المعارك التمهيدية التى أدت الى الحرب ، كانت لها ردود فعل مختلفة لدى أربع دول هى أمريكا وبريطانيا وفرنسا واسرائيل. كل دولة منها لها خط يسير مع مصالحها السياسية . وفى بعض الظروف كانت هذه الظروف تتفق ، وفى ظروف أخرى كانت تختلف وتتناقض وتضطرب ..

***

فبالنسبة لبريطانيا ، يكشف الكتاب الأول « دالاس والسويس » عن انها كانت أول دول الغرب تنبها الى خطر عبد الناصر والثورة المصرية عليها..فصفقة الأسلحة قوت عبد الناصر،وأخرجت مصرمن دائرةالخضوع فى تسليحها للغرب . ومعركته ضد حلف بغداد عزلت أنصار بريطانيا الى حد بعيد . وهكذا كانت بريطانيا أول الدول تفكيرا فى التدخل المسلح ضد مصر ..

يروى الكتاب ان أنطونى ايدن طار الى واشنطون فى فبراير سنة ١٩٥٦ ، أى قبل سحب عرض السد العالى وتأميم القناة ، حيث قابل ايزنهاور وجون فوستر دالاس وطلب منهما أن تشترك أمريكا مع بريطانيا فى عمل مسلح ضد عبد الناصر . وكان الأساس الذى استند اليه فى هذا الطلب هو أن عقد صفقة الأسلحة السوفييتية فيه خرق «للبيان الثلاثى» . وهو البيان الانجليزى الفرنسى الأمريكى الذى أعلنت فيه الدول الثلاث وصايتها على الحدود القائمة فى الشرق الأوسط

ولم يكن دالاس أقل انزعاجا من صفقة الأسلحة . بل ان الكتاب يروى انه ساعة سمع النبأ صاح فى أعوانه قائلا « هذا أخطر حادث دولى منذ حرب كوريا ، بل منذ الحرب العالمية . ولكن دالاس مع ذلك رفض قبول طلب ايدن . وتذرع فى ذلك بأن أى استخدام للقوات الأمريكية المسلحة

يحتاج الى اذن من الكونجرس ، وهو أمر بالغ الصعوبة ..

وقدم ايدن لايزنهاور ودالاس ما يثبت أن عبد الناصر هو سبب كل « المشاكل » فى العراق ولبنان وسائر البلاد العربية . ولكن الجانب الأمريكى ظل متمسكا بموقفه ..

وعندما عاد ايدن الى بلاده ، لم يخف دالاس ارتياحه من هذا التطور ، وقال لأعوانه ان ايدن كان يقف أشبه بالوسيط المعتدل بين الاتحاد السوفييتى وأمريكا ، فالآن قد اضطرته ظروف الشرق الأوسط الى طلب الالتصاق بأمريكا والوقوف معها فى عمل مشترك ..

ومن ساعتها ، بدأت توجد حفرة من الشك بين ايدن ودالاس ، حتى أصبحت مع أحداث السويس هوة عميقة

***

أما بالنسبة لأمريكا ، فالكتابان يصوران لنا كيف ان سياستها فى تلك الفترة كانت مزيجا من عناصر شتى : فالدبلوماسيون الأمريكيون ينصحون بالتفاهم مع عبد الناصر ومهادنة الحركة العربية بوجه عام . والصهيونيون وبعض الزعماء الأمريكيين فى الداخل يؤيدون خطا معاكسا . وبريطانيا وفرنسا تشكوان من مصر باستمرار . وايزنهاور لا يريد الحرب بأى ثمن ، خصوصا كلما اقتربت معركة انتخابات الرئاسة . ودالاس تضطرب فى نفسه عوامل شتى : من تركيز على معركته المقدسة ضد الاتحاد السوفييتى . ونفور من الارتباط المطلق بمصالح أمريكا وشك فى اسرائيل. وغيظ مستمر من تمرد عبد الناصر . ورغبته فى تحقيق ما يريده ايزنهاور فى عدم نشوب أى قتال ..

على أن أهم عمل ايجابى قام به دالاس فى تلك الفترة هو ولا شك سحب العرض الأمريكى الخاص بتمويل السد العالى ..

فازاء تذمره من تمرد عبد الناصر ، خصوصا بعد اعترافه بالصين الشيوعية ، والضغط المسلح عليه من حلفائه الغربيين لتأديب عبد الناصر قبل أن تستشرى النار ، وبحثه عن وسائل أخرى غير الحرب ، بدت فكرة

سحب عرض السد العالى وكأنها تلبى كل هذه الحاجات

صحيح أن جورج همفرى وزير مالية أمريكا كان قد قدم رأيا قاطعا ضد تمويل السد العالى على أساس ان مصر لا يمكن أن تنهض بالتزامات مثل هذا المشروع . وصحيح أن بعض نواب الجنوب طلبوا عدم ابرام القرض لأن السد العالى سيزيد المساحات المزروعة قطنا ، مما يؤدى الى منافسة القطن الأمريكى « !! »

وصحيح أن بعض حلفاء أمريكا « تركيا وايران وباكستان » احتجوا على مساعدة أمريكا لدولة محايدة تقاوم أمريكا . وصحيح أن اعتراف عبد الناصر بالصين الشيوعية كان قد هيأ الرأى العام الأمريكى لمثل هذا القرار . ولكن المؤلف مع ذلك يعتقد أن هذه كلها « أسباب » للقرار .. ولكنها لا تعبر عن كل « دوافع » جون فوستر دالاس : ان الدافع الأكبر هو الرغبة فى تأديب هذا الضابط المصرى ، حديث العهد بالسياسة الذى يثير الاضطراب فى كل مكان ، ويهدد الغرب ويرهبه ، ويرفض المساومة

***

وقد أخذ دالاس رأى حلفائه فى سحب العرض ، ولكنه احتفظ لنفسه بحق اختيار الوقت ، والكاتب يسجل كيف أن دالاس بقى ، الى ما قبل اعلان القرار للسفير المصرى فى واشنطون بساعات ، وهو غير مجمع رأيه على قرار حاسم ..

ويروى المؤلف أن بريطانيا وفرنسا كان لهما موقفان محددان من قصة سحب القرض ..

فقد ذهب كوف دى مورفيل ، سفير فرنسا فى أمريكا فى ذلك الوقت ، الى دالاس وقال له : انه يحذر بشدة من الاقدام على سحب العرض . وقال له انه كان سفيرا فى القاهرة سنوات طويلة ويعرف عبد الناصر جيدا ويعرف انه سيرد ردا عنيفا على هذا العمل .. !

وأشار كوف دى مورفيل الى أن رد الفعل قد يؤثر على قناة السويس .. ولكن دالاس استبعد الفكرة ساخرا ..

أما بريطانيا ، فقد وافقت على سحب العرض ولكن سفيرها قال لدالاس «Play it long» .. أى ليكن السحب على دفعات . فلا يقول لمصر : لا ! ولكن يقول ان الأمر يحتاج الى اعادة بحث . ثم يتراجع تدريجيا ..

ولكن دالاس اختار الطريقة العنيفة . طريقة الرفض القاطع فى اللحظة التى يلحق فيها السحب أكبر الضرر بعبد الناصر ، لأنه فى رأى المؤلف كان تحت تأثير الدافع الذى سبقت الاشارة اليه : دافع توجيه الضربة بقصد الاهانة والتأديب ..

***

يروى المؤلف انه عندما كان دالاس يقول للسفير المصرى أحمد حسين « ابحث عن فلوس السد فى روسيا ! » بلهجة المنتصر ، كان هناك اثنان ينتظران نهاية المقابلة ليتناولا معه طعام الغداء : هنرى لوس صاحب مجلة تايم وجاكسون صاحب مجلة فورتشن . وقد روى الاثنان أن دالاس جاء اليهما فى أعظم حالات الغبطة والابتهاج . وأبلغهما الخبر وكأنه يبلغهما قصة « ضربة معلم » وجهها الى الاتحاد السوفييتى ومصر معا .. فلا الاتحاد السوفييتى قادر على تمويل السد ولا مصر قادرة على الرد .. وقال لهما فى معرض الحديث ، فخورا بنفسه : « ناصر يهددنى ؟.. لست أنا !! » ..

.. هكذا ، لم يكد دالاس يعرف من أخيه ألن دالاس مدير المخابرات الأمريكية فى ذلك الوقت أن عبد الناصر قد أمم شركة قناة السويس ، حتى احتقن وجهه ، وغضب غضبا لم يسبق له مثيل ..

والمؤلف يقول : ان خبر التأميم كان صدمة حياته

ونترك دالاس عند صدمة التأميم ، لنعود اليه بعد أن نستكمل باقى الخيوط ..

وقد بقى أن نعرف خط سياسة فرنسا ، وخط سياسة اسرائيل فى نفس هذه الفترة ..

وهنا يجب أن نسرد الخطين معا : اذ ولدت من التقائهما أول فكرة محددة عن غزو مصر .. ولذلك كان لهذا الجزء أهمية خاصة فى التمهيد للأحداث المقبلة الدامية

وفى هذه النقطة بالذات ، سوف أعتمد أساسا على الكتاب الثانى « السويس : سرى جدا » للكاتب الاسرائيلى ميشيل بن زوهار

عندما ألقى حلف بغداد ظله على الأحداث فى الشرق الأوسط ، كان هم فرنسا أن يفشل الحلف ، انه طريقة لنشر السيطرة البريطانية نهائيا على المنطقة كلها ، بعد الاجهاز على نفوذ فرنسا المتبقى فى سوريا ولبنان

هكذا توجهت فرنسا — فيمن توجهت اليهم — الى اسرائيل تسألها سؤالا صريحا : هل أنت مع الحلف ، أم ضد قيامه ؟

وردت اسرائيل قائلة : ان خصومها الحقيقيين هم مصر وسوريا !

كانت اسرائيل تنظر الى المسألة من زاوية واحدة : ان الحلف لا يفيد مصر ، ولكنه يفيد العراق ، وأعداء اسرائيل الأساسيون هم أعداؤها الرابضون على حدودها مباشرة . فكانت اسرائيل ترى فى الحلف صدمة لا شك فيها لمصر أساسا وللعرب بوجه عام . ففى الحلف دول معترفة باسرائيل مثل تركيا وايران . ودولة أخرى غير معترفة باسرائيل ولكن ليس لديها أى عداء نحوها وهى باكستان . يضاف الى ذلك أن الحلف يمزق الجبهة العربية ، وكل هذا ينطوى على فوائد كبيرة لاسرائيل بصورة أو بأخرى ..

ولكن اسرائيل محتاجة الى أسلحة فرنسا فهى تراوغ وتناور ..

واستمر هذا الموقف حتى طلبت فرنسا من اسرائيل أن تحدد موقفها نهائيا من الحلف : ضده ، أو معه . هكذا ، وقد أصبح ظهر اسرائيل الى الحائط ، بحكم اعتمادها الأساسى فى التسليح على فرنسا ، قالت بلسان موشى شاريت فى الكنيست ، انها ضد الحلف ، ارضاء لفرنسا . ولكن هذا الاعلان الكلامى لم يؤثر فى ترحيب اسرائيل الحقيقى بالحلف

قال دبلوماسى اسرائيلى فى ذلك الوقت « فى كل مرة ، كنا نذهب الى

وزارة الخارجية الفرنسية فى طلب أسلحة ، كان المسئولون الفرنسيون يرددون السؤال التقليدى : ولكن ما هو موقفكم أولا من حلف بغداد ؟ وفى نفس الوقت كان هنــاك وعد من بريطانيا بتسليم غواصــتين الى اسرائيل ، فكنا نخشى أن تؤدى أية معارضة جديه منا للحلف الى الغاء هذه الصفقة ! .. »

المشكلة الأخرى التى ثارت بين فرنسا واسرائيل فى ذلك الوقت هى مشكلة هجرة اليهود من تونس والجزائر والمغرب . فمع اشتداد الحركة الاستقلالية هناك ، واحتمال حصول هذه البلاد على استقلالها ، نشطت اسرائيل لبث دعاية صهيونية بين يهود تلك البلاد ، بقصد دفعهم للهجرة الى اسرائيل ... الأمر الذى أثار حفيظة فرنسا ..

قال موسى شاريت للمؤلف : « لقد غضبت فرنسا لسببين : السبب الأول هو ان هجرة واسعة بين السكان اليهود سوف توحى للجميع بأن الوجود الفرنسى هناك فى طريقه للزوال ، مما يزيد الضغط عليه . والسبب الثانى هو أن يهود شمال افريقيا كانوا دائما من العناصر الموالية لفرنسا والتى تعتمد عليها فرنسا ، ولا أحد يحب أن يرى العناصر التى يعتمد عليها تهاجر وتترك البلاد »

وفى تصريح أدلى به موسى شاريت وقتها لجريدة « لموند » قال : « ان الضــمانات التى تتوافر لليهود فى تونس أو فى المغرب تحت الحمــاية الفرنسية لا تتوفر بنفس الدرجة فى تونس مستقلة أو فى مراكش مستقلة. ولذلك يجب أن تظل اسرائيل مفتوحة الذراعين ليهود شمال افريقيا

***

ولكن أحداث الجزائر لم تلبث أن أصبحت القضية الأولى . بحيث أثبتت ان أثرها على الشرق الأوسط سيكون أعمق بكثير من أثر حلف بغداد ..

ففى عامى ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤ ، أصبحت القاهرة مركزا رئيسيا للنضال ضد النفوذ الفرنسى فى شمال افريقيا . وأخذ صوت العرب من القاهرة

يثير الخواطر ضد فرنسا .. « بشكل صدم حتى منديس فرانس الذى كان يأمل فى الوصول الى حل مع شمال افريقيا ! »

« .. ثم لم يلبث عبد الناصر أن استقبل فى القاهرة تحت راية الوحدة العربية ، قادة الثورة الجزائرية ، كما بدأ يزود جيش التحرير الجزائرى بكل وسائل المساعدة فقد فتح لهم مخازن السلاح ، بغير حد .. »

وأخذت الصحف الفرنسية تنشر صورا تثبت أن بعض المقاتلين الجزائريين فقد تدربوا فى القاهرة ، وبالتدريج بدأ اسم ناصر يستخدم كرمز لعداوة فرنسا ..

وكان من الطبيعى بعد ذلك أن ينتشر العطف على اسرائيل بين كل دعاة « الجزائر الفرنسية » وكل الفرنسيين وقتها كانوا من دعاة الجزائر الفرنسية ! .. ولم يلبث أن تم التقارب بين الموقفين « فرنسا فى شمال افريقيا واسرائيل فى الشرق الأوسط » كل منهما جزيرة من الحضارة الغربية ، ورأس جسر للعالم الغربى ، وسط بحر من الكراهية العربية »

« وشيئا فشيئا أخذ يتبلور الرأى القائل ان مساعدة اسرائيل وتسليحها هو الذى يجعلها تقهر عبد الناصر : ان ضرب رأس الثورة الجزائرية يقضى عليها . هذه الرأس اسمها ناصر ، وتوجد فى القاهرة ، ولا أحد يمكن أن يضربه هناك سوى اسرائيل »

ثم بدأ هذا الجو يقود الى خطط مشتركة

ففى بيت أحد الأصدقاء ، التقى اثنان من الرجال سرا : الأول فرنسى ، اسمه « آبل توماس » ويعمل مديرا لمكتب « بورجيس مانورى » وزير الداخلية والمسئول مباشرة عن حرب الجزائر ، والثانى اسرائيلى هو « م . ناحمياس » المبعوث الخاص لوزارة الدفاع الاسرائيلية »

وبسرعة اتفق الاثنان على انه من مصلحة فرنسا أن تتقوى اسرائيل عسكريا ، ثم لم يلبث ناحمياس أن قابل بورجيس مانورى ، وفى المرة التالية كان الذى قابل مانورى هو شمعون بيريز ، وكيل وزارة الدفاع الاسرائيلية ..

وكان اقناع الضباط الفرنسيين ووزارة الدفاع الفرنسية ســهلا : فالجيش هو الذى يقاتل فى الجزائر ويشعر أكثر من غيره بالحاجة الى حليف فى المعركة المسلحة ..

كان ذلك فى أواسط عام ١٩٥٥ ، وهكذا بعد أن اطمأن الاسرائيليون لحلفاء أقوياء فى وزارة الدفاع الفرنسية فى «الجنرال كوينج» وزير الدفاع الذى قاتل معه الضباط الاسرائيليون خلال الحرب العالمية ــ وجدوا فى بورجيس مانورى حليفا آخر بالغ الأهمية ، وقد جاء دليل أهميته وولائه لهم سريعا ..

***

فقد دق جرس التليفون يوما فى السفارة الاسرائيلية فى باريس ، وكان المتكلم هو « رجلنا فى مرسيليا » كما يقول المؤلف . وكان يقول ان السفن على وشك أن تشحن دفعة من الدبابات AMX 13 الى مصر .
وكان قد تمت قبل ذلك الموافقة على توريد عدد من هذه الدبابات الى مصر والى اسرائيل على السواء ، وفى المجلس الوزارى الذى يجب أن يقرّ هذه الصفقة ، استطاع «انطوان بيناى» أن يسهّل صفقة مصر ويعطل صفقة اسرائيل ، وعلى الفور وصلت الدبابات الى رصيف مرسيليا تمهيدا لشحنها الى مصر ..

وعلى الفــور اتصلت الســفارة الاسرائيلية « ببورجيس مانورى ، وبالجنرال ليكونت » مدير مكتب « الجنرال كوينج »

واتصل مانورى بالجنرال كوينج ، الذى أصدر قرارا بعدم شحن أى سلاح الى مصر ، ووصل الأمر الى مرسيليا ، حيث كان يوجد الكولونيل عكاشة « الدكتور ثروت عكاشة الملحق العسكرى المصرى فى فرنسا فى ذلك الوقت » وطار عكاشة على الفور الى باريس . وسأل وزارة الخارجية التى لم تكن تعرف شيئا عن أمر الجنرال كوينج ، واستجوبه « انطوان بيناى » نفسه فى الأمر ، فرد عليه قائلا : نعم ، أنا الذى أصدرت الأمر . ولن أعدل عنه الا اذا شحنت دبابات اسرائيل فى نفس الوقت !

يقول المؤلف : ان الجو وقتها فى باريس كان معاديا لمصر ، اذ كانت الصحف بالمصادفة ملأى بصور الأسلحة المصرية فى الجزائر ! ..

واحتدمت الأزمة الوزارية ، وفى النهاية انتصر « كوينج » فقد شحنت دبابات اسرائيل ، وتلكأت دبابات مصر

وظهرت الدبابات الفرنسية فى عرض عسكرى اسرائيلى فى تل أبيب ، وبدأت الهمسات تترى عن قرب بيع طائرات ميستير وأوراجان لها ، الأمر الذى زاد من قلق البلاد العربية ..

لقد باعت فرنسا بالفعل ١٠٠ دبابة لاسرائيل وعددا من الطائرات . وفى خطابه يوم ٢ اكتوبر ذكر عبد الناصر هـذه الأرقام وهو يبرر عقـده لصفقة الأسلحة مع الاتحاد السوفييتى

وقد ظلت المجموعة الفرنسية المؤيدة لاسرائيل تتزايد باستمرار ، مع تفاقم الحرب فى الجزائر

« .. اليمين الفرنسى ، رغم عدائه التقليدى الغامض للسامية واعتقاده بعدم دوام اسرائيل بدأ يحبها ، والاشتراكيون الفرنسيون بدأوايتعاطفون مع تجارب اسرائيل فى الزراعة والصناعة ومشروعات الهستدروت ، ثم هناك قضية الجزائر التى تضع البلدين فى موقف واحـد من العرب . « لاكوست مثلا ، انه اشتراكى ولكنه أيضا الحاكم العام للجزائر ، فلديه سبب قوى لكى يصبح مؤيدا لاسرائيل » . ثم هناك اليهودية الفرنسية . قال « جيلبير » السفير الفرنسى فى اسرائيل وقتها للمؤلف : ان اليهود الفرنسيين قد بدأوا يذوبون فى المجتمع الفرنسى منذ مطلع هذا القرن ، وبالتالى كانوا لا يحبون أن يعرفوا أى شىء عن الصهيونية ، وبعد وعد بلفور ، عندما أثار وايزمان الأمر أمام مؤتمر فرساى ، وقف سيلفيان ليفى ، ممثل اليهودية الفرنسية ، وهاجم وايزمان والصهيونية هجـوما عنيفا ، ان اليهودية الفرنسية لم تشأ أبدا أن تقوم اسرائيل .. لماذا ؟ .. « لأنها لم تكن صهيونية قط ، ولأنها كانت تخشى من تهمة العـدوان المزدوج التى تعرضت لها خلال الاحتلال فى الحرب العالمية الثانية »

ولكن هذا كله تغير مع استمرار اسرائيل ونجاحها ، ومع اقتراب سياستها وسياسة فرنسا « ولما كان جزء كبير من الصحافة الفرنسية والسينما الفرنسية مملوكا لليهود ، فقد أمكنهم أن يوسعوا الشعور المؤيد لاسرائيل بنجاح كبير » ..

فى فبراير عام ١٩٥٥ ، عاد بن جوريون من عزلته فى سد بوكر الى الحكم ، عاد بسبب ما سماه ضعف وسائل الدفاع الاسرائيلية . ثم لم يلبث أن أمر بالهجوم الاسرائيلى المشهور على أحد معسكرات الجيش المصرى بالقرب من غزة ..

وسرعان ما تعددت حوادث الحدود بين البلدين

هل زادت حوادث التسلل المصرية الى اسرائيل بسبب عنف الهجمات الاسرائيلية ؟ .. أم ان عنف الهجمات الاسرائيلية كان بسبب زيادة حوادث التسلل ؟.. انها حلقة مفرغة فى رأى المؤلف ..

المهم .. ان عبد الناصر أصبح فى حاجة الى السلاح . فرنسا لا تعطيه بسبب الجزائر . وبريطانيا وأمريكا لا تعطيانه بسبب حلف بغداد . وهكذا اتجه الى الاتحاد السوفييتى

هذه الصفقة الشهيرة سجلت موت « البيان الثلاثى » فى الشرق الأوسط ..

وازداد قلق اسرائيل ..

ان التقارير عن التسلح المصرى الجديد مخيفة . وسباق التسلح الذى بدأته اسرائيل كما يقول المؤلف نفسه ــ باللجوء الى فرنسا ــ قد انقلب عليها .. فحرب الفناء اذن قد تقع ولا بد لها من أسلحة أخرى حديثة سواء لاعادة التوازن أو للاستعداد لحرب وقائية ضد مصر

يقول المؤلف : « أسلحة لاعادة التوازن أو للجولة الثانية : تلك كانت الفكرة الطاغية على السياسة الاسرائيلية فى الشهور التالية . وهكذا بسبب المبادرة الاسرائيلية الى شراء الأسلحة تفجرت الأحداث حتى وصلت الى حرب السويس »

ان اســتقلال مصر بمصادر أسلحتها أصــبح حقيقة كبرى قلبت كل حسابات الغرب واسرائيل ..

وأمام الكنيست ، وقف رئيس الوزراء الاسرائيلى الداعى الى التهدئة موسى شاريت ، يتكلم عن احتمال الحرب الوقائية . ويطلب السلاح من الجميع . ثم طار على الفور الى باريس حيث قابل وزراء خارجية الدول الكبرى وهم يســتعدون لمؤتمر جنيف ، قابل ادجــار فور ، وهارولد ماكميلان ، وانطوان بيناى . وتكلم مع مولوتوف بالروسية . كما قابل جون فوستر دالاس

وفى جو الاستعداد للحرب الوقائية ، عاد بن جوريون الى تسلم رئاسة الوزارة ..

قال شــاريت : انه فى نهاية أكتوبر عام ١٩٥٥ ، طلب من ادجار فور رئيس وزراء فرنسا ان تسلم فرنسا الى اسرائيل طائرات « ميستير ٤ » التى تستطيع أن تقاوم الميج التى حصل عليها عبد الناصر . فوافق ادجار فور ووعد بالمساعدة . ولكنه حين ذهب وقابل انطوان بيناى وجد هذا « رسميا ، باردا ، جافا »

***

ولكن بعــد قليل ، عقد فى باريس مؤتمــر لسفراء فرنسا فى الشرق الأوسط ، برئاسة انطوان بيناى

فى هذا المؤتمر ، كان السفراء الفرنسيون فى البــلاد العربية يتزعمهم دى شايلا سفير فرنسا فى القاهرة ، يطالبون بمحاولة جــديدة لتحسين العلاقات بين فرنسا والبلاد العربية . بينما كان جيلبير الســفير الفرنسى فى اسرائيل ضد هذا الرأى على طول الخط

وقرر المؤتمر سلوك الاتجاه الأول ، عاد دى شــايلا الى مصر يقول لعبد الناصر انهم لن يقدموا أسلحة الى اسرائيل بل سوف يرسلون أسلحة الى مصر ، نظير ايقاف الحملة على فرنسا فى شمال افريقيا

يقول المؤلف : ان بيناى كان مستعدا لأى شيء مقابل أن تشترك فرنسا فى بناء السد العالى الذى كانت المباحثات بصـدده قد بدأت بين مصر والدول الغربية ..

يقول موسى شاريت للمؤلف : « ان وزارة الدفاع (أى بن جوريون) كانت ترفض رفضا مطلقا أن تدخـل الظروف السياسية فى اعتبـارها ، فعندما كنت أفاوض دالاس فى جنيف ، قامت هى بهجوم مفاجىء على « الكونتيلة » فى مصر ، فتغير موقف دالاس . وعندما كنت على وشك الحصول على صفقة أسلحة من فرنسا ، هاجم الجيش مواقع سورية فى طبرية ، فقال لى انطوان بيناى : « كيف تهاجمون السوريين وهم أصدقاء لنا ؟ .. » وأمر بتأخير تسليم الأسلحة التى سبق الاتفاق عليها مع اسرائيل

ويقول المؤلف : انه من أبرز ملامح هذه الفترة فى باريس وتل أبيب على السواء ، الخلاف بين وزارة الدفاع ووزارة الخارجية فى كل من البلدين ..

فظروف اسرائيل جعلتها تخضع كل شيء لمشكلة الأمن وبالتالى لوزارة الدفاع . حتى أصبح المعيار الوحيد لصداقة أى بلد لاسرائيل هو مقدار ما تزودها به من أسلحة . ونوع هذه الأسلحة ، لا أكثر ولا أقل

ويروى الـكتاب كثيرا من القصـص التى تشـبه أحيـانا الروايات البوليسية ، عن سعى اسرائيل للحصول على الأسلحة من فرنسا بالنسبة لطائرات ميستير مثلا :

يقول المؤلف : ان أول وعد تلقته اسرائيل ببيع طائرات « ميستير ٤ » لها ، كان من منديس فرانس رئيس وزراء فرنسا عام ١٩٥٤

وعندما جاء ادجار فور فى رئاسة الوزارة بعد منديس فرانس ، كرر هذا الوعد ..

وتم بالفعل اعداد الطائرات . ودهنت بألوان دولة اسرائيل ، ووقفت فى المطار تنتظر الأمر بالطيران الى تل أبيب ، ولكن احدى الصحف نشرت صورة لها ، واذا بالأمر يشتهر والصفقة تتوقف ، ولم يعرف سفير اسرائيل

بنوقف الصفقة الا حين ذهب لحفلة توقيع الصفقة !

وقيل له انه ظهر ان الطائرات الميستير لايمكنها أن تطير من باريس الى تل أبيب دون توقف ، ولكن السبب الحقيقى وفق معلومات المؤلف هو أن أمريكا تدخلت لايقاف الصفقة ..

وعاودت اسرائيل بذل الجهود ..

وذهب وزير فرنسى ـ لا يذكر المؤلف اسمه ـ الى ادجار فور رئيس الوزارة وقال له : « هل ترضى أن تضع طياريك فى طائرات أقل من « ميستير ٤ » ليواجهوا طائرات الميج التى حصل عليها عبد الناصر ؟..

وقال ادجار فور : بالطبع لا !

وتمت الصفقة ، فى ١٢ نوفمبر عام ١٩٥٥

كانت هذه نقطة تحول بالنسبة لاسرائيل ، ونقطة تحول فى علاقات اسرائيل مع فرنسا

ان « اخوة السلاح » تنمو بين البلدين

ولكن ادجار فور قرر الاستقالة فجأة ، واجراء انتخابات عامة ..

وارتبكت خطط اسرائيل : فمن القادم ياترى بعد الانتخابات ؟..

يروى الكتاب أن شمعون بيريز ، وكيل وزارة الدفاع الاسرائيلية ، والرجل المسئول عن هذه الصفقات كلها ، عاش فى فرنسا شهرا كاملا مع عشرات من معاونيه : اقتحم المعركة الانتخابية فى فرنسا كما اقتحمها المرشحون . طاف بكل زعماء الأحزاب والمرشحين البارزين يشرح لهم الموقف ، ويحصل منهم على الوعود ، ويشرح لهم كيف أن الطريقة الوحيدة لضرب ثورة الجزائر هى التخلص من عبد الناصر ، والقاعدة الوحيدة للتخلص من عبد الناصر هى اسرائيل

يروى المؤلف : ان اجتماعات بيريز مع المرشحين كانت تتم أحيانا فى سيارة اللورى المكللة بلافتات الدعاية التى يتخذها المرشح مقرا متنقلا له

وعندما ذهب بيريز الى جى موليه فى دائرته الانتخابية ، وعده موليه بالمساعدة .. ويروى المؤلف ان بيريز قال لموليه : أرجو ألا تكون مثل

اشتراكى آخر هو ارنست بيفن ، كان معنا وهو مرشح فلما تولى الحكم أصبح ضدنا .. يشير بذلك الى وزير خارجية بريطانيا السابق فى حكومة العمال ..

فرد عليه جى موليه قائلا : « كلا !.. سوف أثبت لك اننى لست مثل بيفن ! .. »

ومن أغرب ماحدث خلال تلك الفترة ، ان الحكومة الفرنسية أعطت بيريز ، وكيل وزارة الدفاع الاسرائيلية ، مكتبا ومقرا دائما لمدة شهر فى مقر رئاسة الوزارة الفرنسية بحجة احتياجه اليه لتنفيذ صفقة الأسلحة ومن هذا المقر الرسمى كان بيريز يتصل بشبكات عملاء اسرائيل المنتشرين فى أنحاء فرنسا ويدير « المعركة الانتخابية » الخاصة ، مستخدما مكاتب الدولة وتليفوناتها وتسهيلاتها

ونجح جى موليه فى الانتخابات ..

يقول المؤلف : ان وصول جى موليه الى السلطة كان نقطة تحول فى علاقة فرنسا باسرائيل .. وفى التمهيد للحرب

***

ذهب مئات آلاف المصريين الى الميدان فى الاسكندرية يستمعون الى الحل الذى وعدهم به عبد الناصر لتمويل السد العالى وفى ضحكة قصيرة ، أعلن عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس ..

وبينما كان الجنود المصريون يحيطون مكاتب الشركة فى الاسماعيلية ، والسويس ، وبورسعيد . كان سكرتير انطونى ايدن يقتحم عليه مأدبة العشاء التى أقامها تكريما لفيصل ملك العراق ، ونورى السعيد . كان الأمر مفاجأة له . أما فى فرنسا فيقول المؤلف : ان المخابرات الفرنسية كانت تشك فى الأمر منذ أسبوعين

وفى نفس الليلة اجتمع الوزراء البريطانيون الكبار مع قادة أركان الحرب ، مع سفيرى أمريكا وفرنسا ، وفى يوم ٢٩ وصل « كريستيان بينو » الى لندن . وفى نفس اليوم وصل « روبرت مورفى » مبعوث

ايزنهاور الخاص ، اذ كان دالاس متغيبا فى بيرو . وطلب سلوين لويد وكريستيان بينو من مبعوث ايزنهاور أن تشترك أمريكا مع الدولتين فى عمل حربى سريع للاستيلاء على القناة . وبدون انتظار أجلت فرنسا رعاياها عن مصر ، ثم تبعتها انجلترا بعد قليل ..

وبعد يومين كان قد تجمع فى ميناء « طولون » أسطول مبدئى للغزو : بارجتان وحاملتا طائرات و ٢١ مدمرة ، وست غواصات . وفى لندن كان يوجد « الأميرال نومى » ، قائد الأسطول الفرنسى ، لينسق العمليات الحربية بين الدولتين . وكان فى حساب الدولتين حتى هذه اللحظة أن أمريكا سوف تشترك معهما . ان الوقت ثمين . والدولتان تضغطان من أجل السرعة . ان الاستيلاء على قناة السويس فى رأيهما سوف يؤدى الى اسقاط عبد الناصر . وفى نفس اليوم الذى كانت انجلترا فيه تستدعى الاحتياطى ، كان « الكولونيل بريور » يهبط فى لندن ومعه كشف كامل بكل القوات الفرنسية التى سوف تشترك فى المعركة

قال ضابط فرنسى للمؤلف : « .. لمدة ثمانية أيام كانت القيادةالفرنسية والانجليزية تعمل فى نشاط هائل لبدء الهجوم .. ولكن فى اليوم الثامن جاءت مذكرة أجلت فكرة التدخل فورا ، وبعدها أخذ التعاون الانجليزى الفرنسى شكل التمرينات العسكرية « فحسب »

***

وهناك تفسير لهذا الذى حدث ..

ففى أول أغسطس ، اجتمع فى لندن ايدن وجى موليه وجون فوستر دالاس . وقال دالاس لأول مرة بشكل نهائى حاسم : ان أمريكا لن تشترك فى أى عمل مسلح ضد مصر . وعلى الفور قال القادة الانجليز : ان القوة التى استعدت للغزو كان فى حسابها اشتراك قوة أمريكية معها . أما بعد هذا الموقف الجديد ، فهى غير كافية للغزو . ولذلك لابد من التأجيل ، للاستعداد من جديد ، على أساس عدم وجود قوات أمريكية

وقد روى انطونى ايدن بعد ذلك فى مذكراته ، ان فكرة التدخل

المسلح فورا تأجلت لسببين : الأول عدم امكان تجميع قوة ضاربة كافية فى وقت قصير ، والثانى هو الأمل فى الوصول الى حل سلمى

قال دالاس فى هذا الاجتماع : ان الحكومة الأمريكية لا يمكن أن تدخل فى عمل عسكرى بدون موافقة سابقة من الكونجرس ، ثم اطلع الحاضرين على رسالة من ايزنهاور يطلب فيها المفاوضة أولا قبل البحث فى أى أسلوب آخر . والغريب أن المؤلف يقول : ان سلوين لويد انضم أخيرا الى رأى دالاس ، بينما ظل بينو يلح فى التدخل الفورى

وأخيرا قبل الجميع فكرة دالاس فى اقامة مؤتمر دولى لبحث مشكلة قناة السويس ، على أن ينعقد المؤتمر فى ١٦ أغسطس ..

كان هذا فى رأى المؤلف هو أول انتصار لدالاس . فمنذ تلك اللحظة ، وطوال شهرين بعد ذلك ، ظل يعارض أى محاولة للقيام بغزو مسلح ضد مصر ..

انعقد المؤتمر فى ١٦ أغسطس ، وانفض يوم ٢٢ ، بعد أن تبنى اقتراح دالاس بايجاد جهاز دولى يدير القناة ، وفى يوم ٣ سبتمبر سافر منزيس الى القاهرة حاملا هذا الاقتراح الذى قبلته ١٨ دولة من ٢٢ ، ولكن عبد الناصر رفض الاقتراح ..

ولم يذعن دالاس لضغط انجلترا وفرنسا فخرج باقتراح جديد هو تكوين مابسمى بجمعية المنتفعين بالقناة ، وقبل ايدن وموليه مرة أخرى الذهاب الى مؤتمر لندن الجديد الذى عقد فى ١٦ سبتمبر . ولكن لما كان دالاس قد رفض مبدأ استخدام القوة فى تمرير سفن الدول المنتفعة ، فلم يبق لدى المؤتمر فى حقيقة الأمر أى شىء يقوم به . فلم يكد دالاس يترك العاصمة البريطانية الى جزر برمودا لقضاء بضعة أيام من الراحة ، حتى كانت انجلترا وفرنسا قد قررتا الذهاب الى مجلس الأمن

ولم تكن انجلترا وفرنسا تشكان فى أن الفيتو الروسى سيقف فى وجهيهما فى مجلس الأمن . ولكن ، كان هذا الاجراء مقصودا به فتح

الباب لاستخدام القوة بعد ذلك ، ولهذا كان دالاس يعارض حتى فى الذهاب الى الأمم المتحدة ..

وقبل ترك هذه المرحلة ، أذكر أن الكاتب هرمان فيز قال : ان ايدن اقترح على دالاس أن يسافر هو على رأس البعثة الى مصر لمقابلة عبد الناصر بدلا من منزيس . أراد بذلك أن يرى دالاس بنفسه « تعسف » عبد الناصر ، وأن يعود ـ اذا رفض عبد الناصر ـ ثائرا لكرامته . ولكن دالاس اعتذر بحجة أن لديه أعمالا كثيرة فى واشنطون .. ووقع الاختيار على منزيس ..

فى خلال هذا كله ، كانت الاستعدادات الحربية قائمة على قدم وساق ، فطوال هذه المباحثات والمفاوضات لم يغير الانجليز والفرنسيون رأيهم لحظة واحدة فى ضرورة التدخل المسلح . غاية ما فى الأمر ، انهم بعد أن تأكدوا من أن أمريكا لن تشترك ، أعادوا الخطة القديمة الى القيــادة العليا لتضع خطة جديدة ، تقوم بها الدولتان بمفردهما ..

***

وفى « البدروم » المحفور عميقا تحت أرض وزارة الحرب البريطانية ، حيث توجد قيادة العمليات الحربية ، ممتدة الى ماتحت أرض نهر التيمز ، عكف الجنرالات الانجليز والفرنسيون بغير انقطاع على وضع الخطة الجديدة ..

وأطلق على القيــادة المشتركة اسم سرى هو Terrapin وكان أعلى المسئولين يجهلون الأمر كله ، باستثناء رئيسى وزارتى الدولتين وعدد قليل جدا من الوزراء . كانت هذه القيادة السرية ساهرة تضع الخطة تلو الخطة ، وعلى بعد أمتار منها مؤتمرات ومفاوضات ومباحثات وســاسة لايعرفون شيئا ..

ومنذ البداية ، قال الجنرالات انه يلزمهم ستة أسابيع على الأقل لاعداد الحملة العسكرية ووضعها فى وضع الاستعداد للحركة ، وعلى ذلك فالغزو يمكن أن يبدأ فى منتصف سبتمبر ..

كانت الخطة الأولى التى أقيمت على أساس اشتراك أمريكا فيها قد أطلق عليها اسم Hamilcar أما هذه الخطة الثانية فقد أطلق عليها اسم موسكتير وتم وضعها فى وقت سريع جدا : آخر أغسطس

وكانت خطة موسكتير تقضى بالنزول فى الاسكندرية ، ثم شق الطريق رأسا الى القاهرة ، على أساس ان اسقاط عبد الناصر هو الهدف الأساسى وفى دوسيهات الـ Terrapin الى الآن المشروع الكامل للحكومة المصرية التى كانت ستحل محل عبد الناصر . وقد قام بعض عملاء فرنسا وانجلترا المجهولين باتصالات ببعض العرب المقيمين فى القاهرة . وتم طبع منشورات باللغة العربية لتلقى على مصر ، وتم فى فرنسا طبع بنكنوت مصرى لتستخدمه قوات الاحتلال ، وتم تخزين كل هذا فى مخازن سرية جدا ..

قصة غريبة تعيد الى الأذهان نفس خطة الانجليز القديمة ضد ثورة عرابى ..

ولكن خطة الموسكتير لم يقدر لها أيضا أن تعيش طويلا ، ففى سبتمبر بدأ اعداد خطة أخرى هى : الموسكتير المنقحة . ذلك ان الساسة حكموا على الخطة الأولى بأنه سيصعب تبريرها أمام الرأى العام ، اذ ستجرى العمليات الحربية فيها بعيدا جدا عن القناة ، التى هى ذريعة التدخل العسكرى . أما الخطة الجديدة فكانت تقضى بالنزول فى بورسعيد ، ثم الزحف على طول القناة الى السويس ، مع اندفاع قوة أخرى من القناة الى القاهرة لاسقاط عبد الناصر

وتبريرا للحملة ، كان المفروض أن تسافر قافلة من السفن الى القناة ، ثم ترفض دفع الرسوم للادارة الجديدة . وهنا سوف يمنعها المصريون من العبور ، فينفجر الخلاف ويبدأ الغزو . وللتأكد من ان المصريين سوف يمنعون القافلة ، رئى أن تكون من بين سفن القافلة سفينة اسرائيلية . وان المصريين حتما سوف يمنعون أى سفينة اسرائيلية من العبور . وفى تلك الأثناء كانت قوات الغزو تتجمع فى صمت فى قبرص ، ومالطة ، وبعض موانى شمال افريقيا .. والغريب ، انه رغم كل الجهود البريطانية

والفرنسية فى حشد « ارمادا » بحرية ، وتجميع أعداد ضخمة من الجنود وفرق الباراشوت والطـائرات وسفن النقل حتى أصبحت قبرص كلها ترسانة مسلحة .. رغم هذا كله فقد كانت القوات دائما غير مستعدة تماما للقتال ..

لماذا .. ؟

المؤلف يرجع السبب مرة أخـرى الى أمريكا . فجون فوستر دالاس ــ كما قال كريستيان بينو بعد ذلك ــ كان يريد أى شىء الا أن يقع غزو مسلح فرنسى انجليزى قبيل انتخابات رئاسة الجمهورية فى أمريكا . وكان هذا يفت فى عضد الحشد العسكرى ، اذ يضطره الى أنواع من السرية تعطله ..

وكانت انجلترا بالذات هى التى بدأت يداها ترتعشان ، كلما فكرت فى موقف أمريكا . الأمر الذى أغاظ فرنسا ، التى مضت فى حشدها بنفس النشاط وأخذت تلوم الجانب البريطانى على تأخره فى تنفيذ خطة الحشد العسكرية والتعلل بهذا السبب أو ذاك ..

***

اذن ، فما الحل ؟

قال الفرنسـيون : « اذا كان يبدو أن الانجليز يترددون فلنجرب اسرائيل ! » ..

ولكن ، متى ذكر اسم اسرائيل لأول مرة ، فى هذه العملية كلها ؟ ..

فى غرفة العمليات الحربية ، بعيدا فى أعماق الأرض ، تحت مبنى وزارة الحرب البريطانية ، وبينما دخان السجاير منعقد ومختلط بالمناقشات . ثارت مشكلة ان عملية الغزو كلها ، ليس لها « قاعدة » قريبة من مصر قربا كافيا ..

وقال جنرال فرنسى ، شاء المؤلف أنّ يحتفظ باسمه سرا « ان اسرائيل هى أقرب أرض الى منطقة العمليات المقبلة ، فلماذا لاتجرب الاستفادة منها ؟ .. »

كانت هذه أول مرة ..

وعندما عاد الجنرال الفرنسى الى باريس ، وراجع رؤساءه فى الأمر ، دهش حين وجدهم يوافقون على المضى فى الاقتراح ! ..

وقد لامه بعض زملائه بعد ذلك بزمن ، اذ قالوا له لا شك انه كان يعرف ان اسرائيل فى العملية من قبل .. وان اقتراحه لم يكن بريئا !

والواقع ، كما يقول المؤلف الاسرائيلى ، انها كانت موجودة ..

ففى أول أغسطس عقد اجتماع بالغ السرية بين بعض الاسرائيليين وبعض كبار رجال وزارة الدفاع الفرنسية . وفى يوم ٧ أغسطس اجتمع هؤلاء الاسرائيليون مع هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى ، بحضور آبل توماس ، مدير مكتب بورجيس مانورى . وفى هذا الاجتماع تمت صفقة أسلحة ضخمة بالغة الأهمية . وتلك كانت الخطوة الأولى الأكيدة ..

فقد كانت فكرة التعاون بين فرنسا واسرائيل فى «موضوع السويس» بصفة عامة تنمو بسرعة فى اجتماعات القادة الفرنسيين والاسرائيليين . بل ان فكرة شن هجوم على مصر ، أثيرت مرة فى اجتماع تم بين بورجيس مانورى وزير الداخلية وشيمون بيريز فى يونيو السابق .. ثم ترددت الفكرة أكثر من مرة ، ولكن دون أن تتبلور فى صـــورة « عمليـــة » محددة ..

فبعد أن أبرمت صفقة الأسلحة الروسية التى قلبت ميزان القوى ، بدأت اسرائيل تفكر فى « حرب وقائية » سريعة . ولكن حتى بعد أن تسلمت اسرائيل الأسلحة الفرنسية الحديثة ، لم يكن فى مقدورها أن تضمن نجاح مثل هذه الحرب . كانت اسرائيل توازن التفوق المصرى فى العدد بتفوقها فى النوع . فلما حصلت مصر على الأسلحة الحديثة ، أصبحت متفوقة على اسرائيل كما وكيفا ..

لهذا أصبحت اسرائيل تنظر الى فكرة الحرب الوقائية على انها ضرورة حتمية . وكلما سافر شاريت أو بيريز الى أوربا لشراء أسلحة ، خلال سنة ١٩٥٥ ، كان كل منهما يمر بفرنسا ليسأل حكامها : ماذا يكون موقفهم

بالضبط ، فى حالة قيام اسرائيل بحرب مسلحة ضد مصر ؟

ولم يكن الفرنسيون يربطون أنفسهم بشىء ، ولكنهم كانوا يشجعون الفكرة . فالجنرال جيوم شجع الجنرال ديان . وجى موليه ، عشية الانتخابات العامة ، وعد بيريز بكل مساعدة ، وبورجيس مانورى وكل رجاله كانوا مع اسرائيل مائة فى المائة : اليمين الفرنسى كان يشجع بسبب دور عبد الناصر فى الجزائر ، واليسار كان يشجع اسرائيل على أساس ان عبد الناصر هو هتلر آخر ، ولا يجب أن تقع ميونيخ أخرى ، هكذا قال جى موليه بالضبط . كذلك قال : « اننى أساعد اسرائيل لأنها دولة اشتراكية توشك على الزوال كما زالت أسبانيا الاشتراكية فى وجه فرانكو . سنة ١٩٣٦ لم نكن أقوياء ولهذا زالت أسبانيا ، أما سنة ١٩٥٦ ، فاننا أقوياء ، ولهذا لن تزول اسرائيل »

هكذا كان حكام الجمهورية الفرنسية الرابعة يشجعون اسرائيل : وبعضهم شجعها الى أبعد من هذا ، الى حد الاشتراك معها فى أى خطة ضد مصر ..

ولكن أمريكا كانت ، كما سبق ، تعرقل تسليم الأسلحة الى اسرائيل ..

كذلك كان موسى شاريت — فى رأى المؤلف — ضد أى محاولة غزو عسكرى . صحيح انه طرق كل الأبواب لشراء الأسلحة . وانه اقتحم مؤتمر جنيف لفتح ملف اسرائيل أمام مولوتوف وايدن وماكميلان وبيناى وادجار فور .. للدفاع عن اسرائيل التى تعرضت للهجوم : فشاريت كان يعتقد دائما أن الأمم المتحدة والقانون الدولى والرأى العام العالمى تشكل كلها عقبة خطيرة فى وجه مثل هذا العمل . وان الدول الأسيوية الافريقية بالذات سوف يكون رد فعلها غاية فى السوء . وشاريت يعتقد دائما أن العالم الأسيوى الأفريقى يمكن أن يكون عالما صديقا لاسرائيل «مسالمة» لا محاربة ، وانه يمكن أن يسهم فى تحويل علاقة اسرائيل بالعرب

ولكن شاريت كان الأضعف . فكان عليه أن يرضخ لبن جوريون أو يرحل . وقد آثر أن يرحل ، فاستقال يوم ١٨ يونيو ١٩٥٦

قال بن جوريون يومها : ان المخاطر الجديدة توجب خلق انسجام كامل بين وزارتى الخارجية والدفاع . ان وزارة الخارجية فى حاجة الى قيادة جديدة تماما . ولهذا يجب على شاريت أن يستقيل

وبهذا بدأت اسرائيل تستعد جديا لشن الحرب : حرب وقائية صغيرة اما أن تفرض الصلح على العرب واما أن تضمن لها الهدوء بضع سنوات أخرى ..

وفى هذه الظروف جاءت أزمة السويس

يؤكد المؤلف هنا : ان الأزمة لم تغير موقف اسرائيل . فاسرائيل كانت ستشن هجومها المسلح على مصر على أى حال . ولكن أزمة السويس سهلت لها أصعب مهمة وهى الحصول على الأسلحة بكميات وفيرة ..

***

ليلة ٢٦ يوليو .. نفس الليلة العجيبة التى أعلن فيها عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس كان شيمون بيريز فى باريس ..

وفى اليوم التالى ، واسم مصر يملأ كل الصحف ، ذهب بيريز الى وزارة الخارجية الفرنسية وفى ذهنه سؤال واحد : هل يغير هذا الحادث ، أخيرا ، برود وزارة الخارجية الفرنسية تجاه اسرائيل ، ورغبتها المستمرة فى التفاهم مع العرب ؟

ولكنه خرج بلا نتيجة ..

ومن يومها ، لم يطرق بيريز باب وزارة الخارجية . بل ان اتصالات اسرائيل كلها برئيس الوزارة ووزير الحربية والقيادة الفرنسية جرت فى سرية تامة عن وزارة الخارجية . من يومها لم تعرف وزارة الخارجية الفرنسية شيئا ..

قال كريستيان بينو « كانت الكاى دورسيه تعارض السويس . ان أحدا فيها لم يعرف السر أبدا . بل اننى كنت أذهب الى الاجتماعات الخاصة بهذا الموضوع بمفردى ، وأنا أقود سيارتى بنفسى ، وأنظر خلفى حتى أتأكد من أن أحدا لايتبعنى »

فاذا اجتمع بينو بأحد فى بيته .. اجتمع به فى الشقة الخاصة .. وفى حجرة نومه بالذات .. حتى لايثير الشبهات !

ولكن ، حتى ذلك الوقت لم تكن فكرة التعاون العسكرى فى عملية حربية قد طرحت . صحيح ان خطوات خطيرة كانت قد اتخذت ، ولكن عدا هذه الخطوة ..

من هذه الخطوات الخطيرة : انشاء « قيادة عسكرية سرية » تختص بموضوع العلاقات الفرنسية الاسرائيلية !

ولكن فرنسا ، طوال هذا الوقت ، كانت ماضية فى السر فى تخطيطها المشترك مع انجلترا ، محتفظة باسرائيل فى يدها الأخرى . لربما تحتاج اليها اذا فشل تخطيطها مع انجلترا لسبب أو لآخر . واسرائيل نفسها لم تكن تفكر فى عمل عسكرى مشترك : انها تريد فقط الأسلحة لتتابع حربها الخاصة بها ..

كل ما كان يعرفه بينو هو : ان اسرائيل تريد الأسلحة لتقوم بحرب منفردة ضد مصر ، عندما يصل انشغال أمريكا بانتخابات الرئاسة الى أقصاه ..

وهكذا تمت الصفقة الكبرى للأسلحة فى ذلك الاجتماع السرى ، يوم ٧ أغسطس ..

وعرف أن انجلترا تؤيد هذه السياسة ..

وبعيدا عن أى أجهزة أخرى فى الدولة كان جى موليه وبينو ، وبورجيس مانورى ، والقيادة العسكرية .. يفاوضون الاسرائيليين رأسا ، ويعطونهم كل مايشاءون من سلاح . « وأصبح هذا الأمر روتينا عاديا . ان فرنسا واسرائيل لهما الآن هدف موحد تماما ، هو : « قهر مصر » . فلم تعد هناك أى عقبة على الاطلاق ، تعرقل تسليم الأسلحة الى اسرائيل

وفى سبيل تسهيل تسليم الأسلحة الى اسرائيل ، لجأت الحكومة الى أساليب لا سابق لها ولا مثيل فى تاريخ الدول ..

فاذا كان الاتفاق الأول ينص على تسليم ٢٤ طائرة مستير .. فبتزوير

بسيط فى الاذن ، يتحول الرقم الى عشرات ومئات ..

أو يستخدم نفس الاذن ، أكثر من مرة ، وفى كل مرة تسلم مصانع « مارسيل داسو » ــ الرجل الذى خطفت احدى العصابات زوجته فى باريس منذ مدة ــ ماتحتوى عليه الأذون المزورة . بناء على تعليمات صريحة من الحكومة الفرنسية ..

وكانت الطائرات تهبط فى شمال افريقيا ، أو فى برنديزى فى ايطاليا . بعد أن أغمضت حكومة ايطاليا عيونها على « هجرة هذه الطيور النفاثة الى اسرائيل » على حد تعبير المؤلف .. !

يروى السفير الفرنسى فى اسرائيل « جلبير العقيد » أنه كان يقف فى مطارات اسرائيل مع بيريز ، ومع ليفى اشكول رئيس وزراء اسرائيل الحالى ووزير المالية فى ذلك الوقت ، يرقصون طربا لمشهد وصول الطائرات « المستير ٤ » .. وكلما هبطت طائرة ، صاح بيريز فى وزير المالية : وهذه ربع مليون دولار أخرى وفرتها عليك ! » ..

وعلى أمواج البحر ، تأتى سفن حربية فرنسية لتعزيز السلاح البحرى الاسرائيلى ، ثم يرتدى بحارتها الفرنسيون ثيابا مدنية ويتركونها فى تل أبيب ، ويعودون من طريق استانبول ، الى فرنسا ..

وخلال ليال طويلة ، تشحن الناقلات الضخمة الرابضة فى موانىء فرنسا بالدبابات ، والمدافع ، وصناديق قطع الغيار ، ثم تبحر تحت جنح الليل الى اسرائيل ..

أما على شواطىء اسرائيل ، فكانت السرية تتم بطريقة أخرى ..

كانت احدى فرق دبابات الجيش الاسرائيلى تأتى الى منطقة معزولة على الشاطىء وتعسكر فيها . وتقوم طول النهار بمناورات حامية ، حتى ادا جاء الليل ، اقتربت من الشاطىء تلك السفن الفرنسية المشحونة بالدبابات والمدافع . وتتم عملية التفريغ طول الليل ، وتبحر السفن . وتتحرك الأسلحة الجديدة الى النقب . دون أن يعرف أهالى القرى الفرق بين أسلحة المناورات والأسلحة الجديدة ..

ومن أهم الأسلحة التى نقلت بكميات ضخمة ، مدافع SS-10 الصاروخية المضادة للدبابات ، التى أراد الغرب أن يجربها فى الدبابات السوفييتية خلال معركة سيناء ..

وقد بلغ من سرعة نقل الأسلحة ، وكثرة كمياتها ، أن فرنسا لم تسأل اسرائيل عن الرقم الحقيقى للأسلحة التى وردتها اليها ، الا بعد انتهاء حرب السويس كلها بشهور !

ولم تكن فرنسا حتى ذلك الوقت تفكر فى تحالف طويل المدى مع اسرائيل : ففى حالة ما اذا تقرر القيام بهجوم مع بريطانيــا من قاعدة قبرص ، فساعتها كانت فرنسا سوف تشرح الأمر لحلفائها البريطانيين — أى أنها كانت تفضل أن يتم الأمر بدون اسرائيل . وهذا ما كان يقلق اسرائيل جدا ، التى كانت تريد أن تشترك فى الحرب ، لحساب نفسها

ولما يضيق صدر فرنسا باعتراضات دالاس ، وبتردد انجلترا ، كانت تميل بشدة الى فكرة القيام بحرب منفردة مع اسرائيل

كانت الاحتمالات هى : هجوم فرنسى اسرائيلى على حدود مصر من النقب . وهجوم اسرائيلى منفرد على الأردن لايقــاف الانتخابات التى كانت على وشك الاجراء والتى كانت ستقرب ما بين الأردن ومصر . وارسال سفن الى القناة ، لتعترض مصر على مرورها ، وتكون الحرب الشاملة ..

كانت الخطط تتبلور فى بطء ، وفى ارتباك أحيانا ..

وفى ٢٠ سبتمبر هبط فى مطار تل أبيب وفد فرنسى رسمى ، من بين أعضائه بالتأكيد آبل توماس والكولونيل مانجان ومع الوفد خطة عامة : أن تقوم اسرائيل بهجوم مباشر على مصر . أما مساعدة فرنسا فلن تقف عند حد الأسلحة « والتأييد الدبلوماسى فقط » بل ان سلاح الطيران الفرنسى والأسطول الفرنسى يمكنهما المشاركة فى تأييد الجيش الاسرائيلى وحماية اسرائيل من رد الأسلحة المصرية وقاذفات ناصر . ثم يصحب هذا التدخل مباشرة تدخل انجليزى فرنسى على أرض مصر ، مع انزال قوات

مشتركة . أما الموعد التقريبى المحدد ، فهو أول نوفمبر »

وتكونت فى فرنسا « حكومة داخلية » لهذه الحرب من : جى موليه رئيس الوزراء ، بورجيس مانورى وزير الحربية ، كريستيان بينو وزير الخارجية ، لاكوست حاكم عام الجزائر « ! » وشابان دالماس رئيس مجلس النواب . وفى رواية أخرى أن دالماس كان يجرى اخطاره بالخطوط العامة فقط ، بسبب علاقته بديجول ، حتى يكون الجنرال على معرفة بالأمر ..

كانت « حكومة الحرب » هذه قد اقتنعت بعد فشل مهمة بعثة منزيس وفكرة جمعية المنتفعين بالقناة أن التدخل المسلح بحجة القنـاة أصبح صعبا ، فلم تبق حجة لهذا التدخل الا قيام حرب بين مصر واسرائيل ..

وتأكيدا للخطة ، قام جسر جوّى بين باريس وتل أبيب : أسفار يومية يقوم بها الجنرالات الفرنسيون والاسرائيليون لدراسة الخطة واستكمالها . أبرز هؤلاء كانوا : الجنرال شال وجوهر من فرنسا ، نفس الجنرالين اللذين قادا العصيان المسلح فى الجزائر ضد ديجول ، ثم حكم عليهما بالسجن بعد ذلك ، وموشى ديان وبيريز وبن ناثان من اسرائيل ..

وفى مبنى وزارة الدفاع الفرنسية ، شارع سان دومينيك ، أقيمت محطة ارسال تكون على صلة دائمة بتل أبيب

وفى يوم ١٠ أكتوبر ، تم الاتفاق على كل التفاصيل : بما فى ذلك نقل ورشة فرنسية كاملة لاصلاح الطائرات من « ريمش » الى اسرائيل ..

كل هذا وفرنسا واسرائيل يؤرقهما شىء هام هو : موقف انجلترا ..

ان عدم اشتراك انجلترا فى الهجوم معهما يعطيها حرية تصرف تسمح لها بعرقلة كل شىء ، لو أرادت

ثم ان اسرائيل كانت تضع فى مقدمة شروطها للهجوم على مصر : تدمير كل المطارات المصرية من أول يوم ، منعا لحركة طائرات عبد الناصر .. وفرنسا ليس لديها قنابل حديثة ، فى حين أن بريطانيـا تملك قاذفات « كانبيرا » الشهيرة ..

وكانت انجلترا تعرف بأن ثمة مفاوضات بين اسرائيل وفرنسا . ولم تكن تعترض . ولكن بقى أن تلتقى أطراف المثلث الثلاثة وجها لوجه انجلترا وفرنسا واسرائيل

وانطلق كريستيان بينو يعمل !

كانت هناك اذن عمليتان منفصلتان ، كل منهما تستعد لغزو مصر . عملية اسرائيلية ــ فرنسية ، وعملية فرنسية ــ انجليزية ، وقد حاول الانجليز أن تنفذ العمليتان منفصلتين ، حتى لاتتهم بالتآمر مع اسرائيل ، بينما صممت اسرائيل على أن يلتقى الثلاثة وجها لوجه ، ويعملون معا .. وهذه هى القصة ..

***

فى نهاية سبتمبر ، وصل الى اسرائيل ضابط انجليزى يهودى اسمه الكولونيل روبرت هنريك . وعلى الفور ذهب الى لقاء بن جوريون

كان يحمل رسالة سرية جدا من الحكومة الانجليزية تقول : ان انجلترا تحذر اسرائيل من أى هجوم على الأردن . وهى تبلغ اسرائيل انه لا مانع لديها ، فى حالة هجوم انجلترا على مصر ، أن تبادر اسرائيل بدورها بالهجوم . فى هذه الحالة سوف يكون على انجلترا أن تستنكر ــ علنا ــ هجوم اسرائيل على مصر ، وتستنكره بكل شدة .. ولكنها ساعة ابرام الصلح تتعهد بأن تحصل على أحسن شروط ملائمة لـ « اسرائيل !! »

استمع بن جوريون الى هذه الرسالة وسكت

ان انجلترا تعرف نصف الحقيقة . تعرف ان هناك تحالفا مسلحا بين فرنسا واسرائيل ، ولكنها لاتعرف أكثر من ذلك .. لاتعرف أن التحالف يشمل « القيام بعمل عسكرى مشترك » .. فقد كان الجانب الفرنسى يخاف أن تفضل انجلترا فى اللحظة الأخيرة عدم المغامرة بمصالحها فى البلاد العربية فتعدل عن الحرب ، لهذا آثر أن يبيتها فى الظلام

وقد صدق ظن الفرنسيين ..

فبعد فشل شكوى انجلترا وفرنسا ضد مصر فى مجلس الأمن ، طار ايدن وسلوين لويد الى باريس يوم ٢٦ . كان يبدو انهما تراجعا عن فكرة الحرب وأخذا يبحثان عن مخرج كريم من الأزمة كلها

وكان لدى ايدن اقتراح محدد :

ان هناك انتخابات على وشك أن تجرى فى الاردن . وكل التقارير تدل على أن أصدقاء عبد الناصر سوف يكتسحونها . والحل هو أن تدخل القوات العراقية ، قوات نورى السعيد الأردن ، وتمنع الانتخابات وتخلق ظروفا جديدة تسمح بضم الأردن الى حلف بغداد ، ان هذا سيكون ضربة قاصمة لعبد الناصر ذهب ايدن الى حد القول بأنها قد تسقطه فى مصر . أو على الأقل تنتقم من تأميم شركة القناة . وفى ظل هذا يمكن التفاوض معه بشأن القناة ..

ولكن هذه الخطة تحتاج الى مساعدة فرنسا .. كيف ؟ .. ان فرنسا عليها أن تقنع اسرائيل بعدم الاعتراض على دخول القوات العربية الى الأردن ..

ولكن جى موليه رد على طلبات ايدن ردا عنيفا ..

قال له : ان هذا كله حل لا تجنى فرنسا أو اسرائيل من ورائه شيئا . ولو ضغطت فرنسا على اسرائيل على هذا النحو فلن تقبل اسرائيل أن تشترك مع فرنسا مرة أخرى فى عمل ضد عبد الناصر . ثم ان القيام بانقلاب فى الأردن لايؤدى الى اسقاط عبد الناصر ، واسقاط عبد الناصر هو الهدف الرئيسى للسياسة الفرنسية الآن

وبعد مناقشات دامت عشر ساعات ، لم يصل الطرفان الى شىء . ولكن هذا الحوار كان له أثر واحد : هو اندفاع فرنسا أكثر وأكثر فى طريق الاعتماد على اسرائيل ، حتى وصلت الى اتفاق ١٠ أكتوبر سنة ١٩٥٦ .. الذى سبق أن أشرت اليه ..

أما اسرائيل ، فمضت فى تحرشاتها على طول الحدود الأردنية : لقد اكتشفت أن هذا يساعد على تحويل الأنظار عن ترتيباتها لغزو مصر ..وفى

منتصف أكتوبر ، سكتت انجلترا بدورها على هذه التحرشات ، اذ كانت قد انضمت الى فرنسا واسرائيل ، واكتمل المثلث

وطار بينو ومعه الجنرال شال الى لندن يحاولان اقناع انجلترا مرة أخرى . ولكن الذى أقنع انجلترا نهائيا ـ فى رأى المؤلف ـ هو تأكدها أن اسرائيل مصممة نهائيا على الهجوم على مصر . ففى يوم ١٥ أكتوبر ، وفى وسط اتجاه الأنظار الى الاصطدامات على حدود الأردن ، قال بن جوريون : « لايجب أن ننسى أن العدو الأول لنا هو مصر » . وبعد ساعات من هذا التصريح ، كان ايدن يتصل تليفونيا بموليه ويخطره انه آت الى باريس فى اليوم التالى

وفى غرفة مغلقة ، اجتمع ايدن ولويد وموليه وبينو . وبعـد انتهاء الاجتماع طارت الى بن جوريون برقية سرية تقول له « تستطيع أن تثق تماما من موقف بريطانيا »

لقد نشر فى الصحف صبيحة هذا الاجتماع ، ان موضوعه كان أزمة الحدود بين الأردن واسرائيل . وهذا غير صحيح . ففى هذا الاجتماع اتخذ قرار خطير : الهجوم على السويس !

ففى هذا الاجتماع ، أخطر الفرنسيون ايدن ولويد عن نية اسرائيل الحاسمة للهجوم . وبعد تردد طويل ، ورفض من جانب لويد ، قبل ايدن الاشتراك فى الغزو ..

أما حجة الغزو ، وهى ارسال سفينة اسرائيلية الى القناة تقوم مصر بمنعها من المرور ، فقد رفضها الانجليز بتاتا . ثم قبلوا أن تكون ذريعة التدخل هى « حماية القناة من القتال بين مصر واسرائيل »

واتفق الطرفان على أن يتم فى هذه الحالة تنفيذ الهجوم طبقا لخطة « موسكتير المعدلة » وقد أشرت اليها أيضا من قبل ..

واشترط الانجليز ، ألا يقوم أى تنسيق بينهم وبين اسرائيل ، انما تنفرد فرنسـا فى التآمر مع اسرائيـل ، وتظل انجلترا بعيدة تماما عن

المؤامرة ، انما تشترك مع فرنسا فقط فى القسم الثانى وهو : التدخل فى القناة لحمايتها من القتال !

كان هم الانجليز : ألا يتورطوا فى أى عمل يقيم الدليل على تآمرهم مع اسرائيل ، خشية أن يعصف هذا بمصالحهم فى العالم العربى

ولكن مع تقدم الخطة ، وضرورات التنسيق ، لم يكن هناك مفر من انغماس انجلترا مع اسرائيل فى المؤامرة ذاتها ..

صاح وزير فرنسى فى المؤلف « الانجليز لا يعرفون عن اتفاقنا مع اسرائيل ؟ كيف ؟ .. اننا لم ننفرد باسرائيل بعد ذلك فى أى اجتماع الا نادرا ! » ..

قال بول جونسون مؤلف كتاب « حرب السويس » : ان البرقيات الفرنسية الاسرائيلية التى التقطتها المخابرات الامريكية تؤكد علم انجلترا بكل التفاصيل » ..

***

منذ ١٦ أكتوبر ١٩٥٦ ، بدأت أداة الحرب المثلثة تدور بسرعة .. فى مقر القيادة البريطانية ، يعاد النظر فى خطة « موسكتير » لتلائم المنظر الجديد : منظر التدخل « للفصل » بين قوات مصر واسرائيل . اجراءات أمن هائلة . برقيات الشرق الأوسط تنقل من الخارجية وتصبح فى يد السكرتارية الخاصة لرئيس الوزراء بمفرده . دبلوماسيون كثيرون انجليز تنقطع عنهم كل المعلومات عن الشرق الأوسط . خبير فى الوزارة فى الشئون العربية يمنح اجازة طويلة .. عدد آخر من الرسميين تأتيهم دعوات مفاجئة للسفر الى الخارج وترك العاصمة البريطانية حتى لا يعرفوا ويعارضوا . سير والتر مونكتون وزير الدفاع يستقيل يوم ١٨ أكتوبر لأنه عارض فى الغزو ، فيحل محله انطونى هيد المتحمس للقتال ..

وفى يوم ١٧ أكتوبر ، تستدعى اسرائيل سفراءها من لندن وباريس وموسكو وواشنطن . ويقوم حاجز من الكتمان حول سفراء أمريكا وملحقيها العسكريين فى لندن وباريس وتل أبيب .. الملحق العسكرى

الأمريكى فى تل أبيب يكتب الى حكومته ملاحظا ان الملحقين الانجليزى والفرنسى قد انقطعا عن رؤيته وبدءا يتشاوران ويسافران بمفردهما . بعد أن كان الثلاثة على اتصال دائم .. المخابرات الأمريكية فى روما تلاحظ زيادة غير عادية فى البرقيات الشفرية المتبادلة بين باريس وتل أبيب ..

من واشنطن ، يصف المؤلف الآخر ، هيرمان فينر نفس اللحظة فى العاصمة الأمريكية : دالاس غاضب ثائر على توقف انجلترا وفرنسا عن تداول معلوماتهما مع أمريكا كالعادة . لا تقارير قط تأتى من سفرائه فى لندن وباريس .. وهو لا ينقطع عن ابداء شكوكه فى الأمر

وفى نفس الوقت بدأت تحركات كبرى لتركيز القوات الفرنسية الانجليزية فى قبرص ومالطة : فى وضع استعداد حاسم أمام بور سعيد ..

ويسأل الضباط الانجليز : ما هو موعد الغزو ؟ .. فيقول لهم الساسة سنخطركم قبله بأسبوعين ! ..

والواقع ان الموعد ظل يتأرجح زمنا طويلا . كان الموعد المفضل هو يوم ٦ أو ٧ نوفمبر ، أى يوم انتخابات الرئاسة فى أمريكا بالضبط . ولكن تحديد الموعد فى النهاية تم بطريقة درامية مثيرة ..

***

فى احدى الليالى هبطت فى مطار اسرائيل الطائرة الضخمة DC 4 التى كان الرئيس ترومان قد أهداها للجنرال ديجول . ونزل منها الكولونيل مانجان . وبعد ساعات كانت الطائرة تعود الى فرنسا وتهبط فى مطار « فيلا كوبلاى » الحربى بالقرب من باريس ، وينزل منها ثلاثة اسرائيليين ..

وصاح جى موليه الواقف عند سلم الطائرة : كيف لايعرف الناس بن جوريون بشعره المنكوش الأبيض وموشى ديان بالعصابة السوداء على عينه ! ..

وكان معهما أيضا سيمون بيريز ، وعلى الفور ، توجه الجميع الى بيت قريب منعزل ، تحت كتمان مطلق وحراسة مشددة ..

لماذا جاء بن جوريون الى باريس فى هذا الوقت ، وبهذه الطريقة التى دمغت المؤامرة كلها أمام التاريخ ؟ .. لمـــاذا وقد أصبح كل شيء معدا للعمل ؟ ..

قال جى موليه بعد ذلك مرة : « لم يكن ممكنا أن أقدم على هـــذا العمل الخطير دون أن أرى بن جوريون وجها لوجه »

وقال مرة أخرى : « لقد جاء بن جوريون يقول لى : ان عبد الناصر لديه ١٢٠ طائرة ميج و ٨٠ طـــائرة اليوشين ومعنى هـــذا ان اسرائيل ستضيع ! لقد أنقذت اسرائيل فى عام ١٩٥٦ » !

ولكن ألم ترسل فرنسا طائرات الميستير الى اسرائيل بكميات وفيرة من قبل ؟ ..

الواقع ان بن جوريون قد وجد فى اللحظة الأخيرة ان هذا كله ليس كافيا ! .. ان مصر تملك قاذفات قنابل مخيفـــة أسرع من الصوت . فى دقائق تستطيع أن تكون فوق تل أبيب وحيفا وبئر سبع وتدمرها دون أن يكون لدى اسرائيل أى دفاع ضدها ..

وقرر بن جوريون ألا يتحرك قبل أن يضمن « مظلة جوية » تحميه . ان انجلترا وفرنسا ستتدخلان حقا بعد أن يشتبك هو مع القوات المصرية بقليل ولكن ماذا عن الساعات الأولى ، التى ســـتكون فيهـــا اسرائيل بمفردها ضد مصر ؟ .. ماذا عن « الصدمة الأولى » للقتال مع مصر ، واسرائيل وحدها ؟ ..

ثم .. الانجليز ؟ .. هل يضمنهم بن جوريون حقا ؟ .. أو انهم يمكن أن يتخلوا عنه فى اللحظة الأخيرة ؟

وبسرعة تأكد بن جوريون من جى موليه واطمأن : ستزوده فرنســـا بمظلة جوية وبحزام بحرى

ومع ذلك لم يطمئن . بل طلب طلبـــا آخر : طلب تدمير كل المطارات المصرية فى الساعات الأولى للقتال ..

ولكن فرنسا ليس لديها طائرات من قاذفات القنابل البعيدة المدى .

لابد من الحصول على طـائرات « كانبيرا » الانجـليزية . فهل يرضى الانجليز ؟ ..

بعد ساعة ونصف ، وصلت المؤامرة الى قمتها ، فقد انطلقت السيارات بالفرنسيين والاسرائيليين الى بيت قريب فى منطقة « سيفر » فى ضواحى باريس ، حيث التقى الكل بسلوين لويد وعدد من أقرب مساعديه ..

فى أول أكتوبر تم اتفاق فرنسا واسرائيل

فى منتصف أكتوبر تم اتفاق فرنسا وانجلترا

الآن ، يتم لقاء الثلاثة معا ، فى مكان واحد ..

أخيرا ، التقى الانجليز ، أســاتذة فن المراوغة ، وجهـا لوجـه مع بن جوريون ، الأمر الذى كانوا لا يريدونه قط ..

كان ذلك يوم ٢٣ أكتوبر . وبعد اللقاء مباشرة طار سلوين لويد الى انجلترا وترك مساعديه . وبقى بن جوريون فى فرنسا يومين ، حتى جاء رد لويد الى مساعديه ..

لقد تم الاتفاق فعلا على تدمير المطـارات المصرية فى الساعات الأولى حتى تتوفر الحماية لاسرائيل .. وتم الاتفاق على صيغة الانذار الفرنسى البريطانى الذى سيوجه الى مصر واسرائيل . وعلى موقف الدولتين فى الأمم المتحدة . واتفق أيضا على تقديم موعد الغزو : فروسيا مشـلولة بحكم أحداث المجر ، وأمريكا مشلولة بحكم انتخابات الرئاسة . وعلى هذا تقرر انتهاز الفرصة وأن يكون الموعد هو ٢٩ أكتوبر ..

تم الاتفاق من ثلاث نسخ ، ولا شك ان انجلترا وفرنسا قد أحرقتا الآن نسختيهما اللتين تدلان على أغرب مؤامرة فى التاريخ الحديث

ولكن المؤكد أن بن جوريون يحتفظ بنسخته الثمينة ، عليها توقيع سلوين لويد ، فى مكتبه ! ..

وفى اليوم التـالى عاد بن جوريون الى تل أبيب ، وأعلنت اسرائيل التعبئة العامة ، وأخطرت القيـادة الفرنسية البريطانية بموعد الغزو . وتحركت فعلا عجلة الحرب ..

وقفة قصيرة ، قبل استئناف القصــة مع المؤلف عنــد هــذه اللحظة التاريخية الرهيبة . اللحظة التى تورط فيها المتآمرون حتى قمة رءوسهم ..

يتساءل المؤلف :

ـ ما هى الأهداف التى يريد الغـزاة تحقيقها بهذه الحـرب التى يستعدون لها ؟ .. ما الذى دفعهم الى هذا الموقف البالغ الخطورة ؟ ..

يجيب المؤلف :

ـ بالنسبة لاسرائيل الهدف بسيط وواضح :

ضرب قوة الجيش المصرى . وتدمير الأسـلحة الروسية المكدسة . والقضاء على مواقع « الفدائيين » الذين يتسللون منهـا الى اسرائيل ، وقتل القيادة العسكرية المشتركة « المصرية السورية الأردنية » وهى فى المهد ، تلك القيادة التى كان يجب أن تصبح قائمة ابتـداء من يوم ٢٨ أكتوبر أى قبل الغزو بيوم واحد . كذلك كانت اسرائيل تريد كهدف بعيد المدى : اسقاط حكم عبد الناصر واقامة حكم أكثر اعتدالا ..

ويزعم المؤلف ان اسرائيل ، لهـذه الأسـباب ، لم تكن مرتاحة الى اشتراك انجلترا وفرنسا معها فى الحرب . فهذا سـوف يوسع المسألة . ويسلب اسرائيل ميزة احراز النصر بمفردها . فضلا عن ان هذا يربطها بقضية الدول الاستعمارية . انها كانت تفضل أن تخوض الحرب بمفردها ، وانجلترا وفرنسا تساعدانها عسكريا وسياسيا من وراء ستار فحسب . ومع ذلك ، فهى ازاء المزايا الكبرى التى كانت تعود عليهـا من الغزو الثلاثى ، مستحيل أن ترفض هذه الشركة ..

وقد بقى أمر الحرب سرا ، الا بالنسبة لعدد قليل من وزراء حزبى « ماباى » و « احدوت افودا » . أما الباقون فلم يعرفوا الا يوم ٢٨ أكتوبر ، أى ليلة الغزو . وزارة الخارجية باستثناء جولدا مايير لم تكن تعرف . السفير الاسرائيلى فى باريس كان يعرف عن أمر التسليح لا غير

يروى المؤلف ان بن جوريون عقد اجتماعا لسفراء اسرائيل فى انجلترا وفرنسا وأمريكا يوم ١٧ أكتوبر . وفى أثناء المناقشة سألهم بن جوريون

عرضـا : « وماذا تظنون يكون رد فعل الدول الكبرى لو اضطرت اسرائيل الى مهاجمة مصر ؟ .. »

ورد السفراء جميعا قائلين : « ان هذا سوف يكون كارثة ! .. وسوف نعترض كل الدول الكبرى على موقف اسرائيل »

وكتب بن جوريون على ورقة أمامه « هل نقول لهم ؟ » وأعطى الورقة لجولدا مايير الجالسة معهم ، فردتها اليه بتعليق يقول : « قطعا لا » .. فلم يقل لهم شيئا ..

أما موسى شاريت ، رئيس الوزراء السابق ، فلم يعرف الا من نهرو ، اذ كان مجتمعا معه فى نيودلهى ساعة جاءت أول أنباء الغزو ! ..

هذا عن اسرائيل ، فلماذا ذهبت فرنسا الى الحرب ؟ ..

يعدد المؤلف الأسباب بترتيب أهميتها كالآتى :

أولا ــ الجزائر . فقد ظن الفرنسيون أن اسـقاط عبـد الناصر هو الطريقة الوحيدة لاخماد ثورة الجزائر

ثانيا ــ ان التأميم كان انتصارا « عربيا » ..

والعروبة فى رأى بعض الفرنسيين هى الخصم الأول لفرنسا فى العالم الاسلامى ..

ثالثا ــ شركة قنـاة السويس ومساهموها الأقوياء والصـغار على السواء ، وقدرتهم على الضغط على الحكومة

رابعا ــ حاجة فرنسا النفسية الى نصر عسكرى بأى شكل بعد هزائمها الطويلة فى ساحات القتال من الهند الصينية شرقا الى المغرب العربى غربا

ان ايدن فى رأى المؤلف لم يكن متحمسا أول الأمر . وحين اندفع فى المغامرة تشققت من حوله الجبهات : فى داخل الوزارة ، كان يؤيده دنكان سانديز وماكميلان وانطونى هيد ، بينما كان يعارضه ناتنج ، ويعارضه بشدة ريتشارد بتلر « ولى العهد » داخل حزب المحافظين فى ذلك الوقت ، فى حين ظل سلوين لويد مترددا

وفى الجيش البريطانى أيضـا كله ثمة أكثر من رأى . فريق يتزعمه

نورد مونتباتن ويعارض الغزو أصلا . وفريق يتزعمه الجنرال تمبلر يؤيد فكرة الحرب ولكن يعارض فى الذهاب الى الحرب جنبا الى جنب مع اسرائيل ..

فماذا كانت العلاقة بين « الحلفاء الثلاثة » ؟

يقول المؤلف : ان التحالف والتفاهم بين فرنسا واسرائيل كان قويا للغاية . أما انجلترا فكانت هى العنصر القلق فى الحلف الثلاثى . كانت تشعر أن بين فرنسا واسرائيل روابط لا تعرفها كلها . وكان هذا يقلقها . وفى نفس الوقت كانت لا تريد أن تدفع ثمن المعرفة ، وهو الاشتراك الكامل ، لأنهـا ظلت مهتمـة بأن تتحاشى أى شىء ينم عن تآمرها مع اسرائيل مقدما خشية رد الفعل لدى العالم العربى

لهذا التقى الساسة الانجليز والاسرائيليون واتفقوا . ولكن العسكريين لم يلتقوا قط . فكان هناك حربان : حرب فرنسية انجليزية فى بورسعيد . وحرب اسرائيلية فى سيناء والانجليز مرتبطون بالاثنين..ولكنهم يحاولون ألا ينم أى شىء عن هذه الرابطة ..

ثم يقف المؤلف عند نقطة بالغة الأهمية : هل كانت أمريكا تعرف أن ثمة هجوما على سبيل اليقين ، وبالتالى كان فى امكانها ايقافه ، أم انها لم تكن تعرف ؟ ..

يروى المؤلف أن وزيرا فرنسيا قال له :

ــ ان دالاس كان يعرف بالتأكيد : لقد حرصنا على أن نجعل الأمريكان يعرفون .. بشرط ألا يعرفوا بشكل رسمى ، حتى لا تكون لديهم ذريعة رسمية لتعطيل الهجوم : لقد كان الن دالاس ، أخوه ، يعرف بأن هناك ترتيبات ضخمة تتخذ للحرب ، هل معقول انه لم يقل له ؟ ..

اذن ، هل يكون ايزنهاور هو الذى قلب الأمور على الحلفاء ؟ ..

ازاء هـذه الأسئلة ، أعود مرة أخرى الى الكتاب الأول « دالاس والسويس » ، الذى يروى القصـة من الجـانب الآخر للمحيط ، من الولايات المتحدة الأمريكية ..

يقول المؤلف «هيرمان فينر» : ان أنباء الاستعدادات العسكرية المريبة كانت تتسرب بالفعل الى أمريكا ..

ففى باريس ، أسرَّ وزير فرنسى بالأنباء الى دوجلاس ديلون وزير مالية أمريكا حاليا ، وسفيرها فى باريس فى ذلك الوقت ..

كما أن اشاعات الحرب ترددت ليلة فى ردهات البرلمان الفرنسى ، فأسرع نواب من «أصدقاء» السفارة الأمريكية الى التليفونات ، يخطرونها بالأمر

كما ان بعض ضباط المخابرات الفرنسية عملوا على « تسرب » السر الى زملاء لهم فى المخابرات الأمريكية ..

وفى نفس الوقت ، لاحظت المخابرات الأمريكية فى ايطاليا زيادة هائلة فى برقيات الشفرة المتبادلة عبر البحر المتوسط بين باريس وتل أبيب ! ..

فكيف لم يتصرف دالاس فى الوقت المناسب ، لايقاف العملية ؟ ..

هناك رأى يقول : ان دالاس كان يعتقد ان المحاولة لن تتم الا بعد ٦ نوفمبر ، أى بعد انتخابات الرئاسة الأمريكية . وبالتالى فمن مصلحة الحكومة الأمريكية أن يبدو كل شىء هادئا سليما حتى يوم الانتخابات ، خشية التورط فى مشاكل عاتية قبلها ، بما قد يتركه هـذا من أثر على نتيجتها ..

ولكن دالاس ، ابتداء من يوم ١٦ أكتوبر ، بدأ الفأر يلعب فى عِبِّه . فقد انقطعت فجأة التقارير السرية الانجليزية والفرنسية المعتادة . وأحس السفراء الأمريكان انهم فى ظلام دامس وان المسئولين فى باريس ولندن وتل أبيب يتهربون منهم ..

ثم توالت الأحداث بسرعة مذهلة ..

ففى يوم ١٩ أكتوبر جاءت أخبار أزمة بولنـدا مع روسيا . وجاءت تقارير تشير الى بوادر اضطرابات فى المعسكر الشرقى

هذا هو اليوم الذى كان دالاس يحلم به ، ويعمل له ، ويتنبأ به ! .. انه هو صاحب الرأى القائل : ان المعسكر الشرقى سينهار من الداخل ، وها هى نبوءته توشك أن تتحقق ..

ثم جاءت أنباء ضبط الأسطول الفرنسى لباخرة يونانيةاسمها«آثوس» كانت تنقل أسلحة مصرية الى ثوار الجزائر ! .. وباسم مراقبة شواطىء مصر ، أبحر الأسطول الفرنسى الى شرق البحر المتوسط ، والواقع انه اتخذ الأمر ذريعة لكى ينفذ أحد شروط الحرب المقبلة : حماية شواطىء اسرائيل ! ..

وفى يوم ٢٢ أكتوبر ، نجحت فرنسا فى خطف احمد بن بيللا ورفاقه من قادة الثورة الجزائرية ، فى حادث الطائرة الشهير ، وطار الفرنسيون فرحا : انه فأل حسن لحربهم المقبلة فى مصر ..

وبينما كان الفرنسيون ينقلون بن بيللا الى السجن ، يوم ٢٣ ، كان بن جوريون يصل الى باريس سرا ، فى رحلته التى سبقت الاشارة اليها ، ليلتقى بموليه وسلوين لويد ويوقع اتفاقية « سيفر » السرية

وفى ٢٣ انفجرت الاضطرابات فى المجر ! .. ونشب القتـال المسلح فى بودابست نفسها ! ..

هـذا أسعد يوم حقـا فى حياة جون فوستر دالاس ! .. ان وزارة الخارجية كما يقول المؤلف تفيض بالغبطة والحبور ! .. يا لها من أيام مثيرة ! ..

واغتبط أيضا المتآمرون .. فهذه الأحداث سوف تشل يد روسيا كما ان الانتخابات تشل يد أمريكا ! .. لم يكن ممكنا أن تشن حرب ضـد مصر وعبد الناصر فى ظروف أحسن من هذه ! ..

وبقدر ما اغتبطت لندن وباريس ، اكفهر الجو فى وزارة الخارجية الأمريكية ! ..

فقد جاءت رسالة من السفير الأمريكى فى اسرائيل تقول : ان التعبئة العامة قد أعلنت سرا هناك ! ..

هذا آخر علامة كانت منتظرة ! ..

واستدعى دالاس سفير اسرائيل ابا ايبان وسأله عن الأمر ، فقال له هذا : لابد انها عملية دفاعية ! ..

واستدعى الدريتش السفير الانجليزى وسأله عن التعبئة العامة الاسرائيلية ، فقال له : انه لا يعلم . وكل ما يعرفه ان حكومته حذرت اسرائيل من أى عمل ضد الاردن . فسأله دالاس : ومصر ؟ .. فقال السفير : لا أعرف عنها شيئا ! ..

وأرسل ايزنهاور رسائل سريعة الى بن جوريون يحذره من أى عمل مسلح ..

ولكن بعد مضى ساعات ، من آخر رسالة كتبها ايزنهاور ، عبرت قوات اسرائيل حدود سيناء

***

لقد بدأت الحرب ! ..

فماذا نفذ من تفاصيل الاتفاق السرى .. وماذا لم ينفذ ؟ ..

يقول « ميشيل بن زوهار » مؤلف كتاب « السويس : سرى جدا » : ان التفاصيل التى اتفق عليها فى باريس ولندن وسيفر للهجوم على مصر ، تم تنفيذها حرفيا ، بما فى ذلك الانذار الذى وجه من انجلترا وفرنسا يوم ٣٠ أكتوبر الى مصر والى اسرائيل ! .. ذلك الانذار الذى اشترك فى كتابته : جى موليه ، وسلوين لويد ، وبن جوريون ! ..

وكما سبق : كان فى مقدمة هذه التفاصيل ، حماية اسرائيل حماية مطلقة من بطش القوات المسلحة المصرية ! ..

فقبل بدء الهجوم الاسرائيلى على مصر بأيام ، وصلت الى المطارات المجاورة لتل أبيب قوة من طائرات الميستر وطائرات سابر ــ ف ــ ٨٦ ، الفرنسية .. بطياريها الفرنسيين وجنودها .. بل وبعدد كبير من الميكانيكيين، وكمية هائلة من قطع الغيار ..

جزء من هذه القوة لم يشترك فى الهجوم على مصر ، انما كانت مهمته فقط حماية مدن اسرائيل من الطائرات المصرية : وفى كل مرة أطلقت فيها صفارات الانذار ، كانت هذه الطائرات تسرع محلقة فى الجو ..

فلما دخلت انجلترا وفرنسا الحرب رسميا بعد الانذار المزيف ، واتسع

نطاق هجمات الطيران البريطانى على المطارات المصرية ، استطاعت هذه القوة الفرنسية أن تتحرر من مجرد الدفاع عن المدن الاسرائيلية ، وتشترك اشتراكا ايجابيا الى جانب قوات اسرائيل ضد الجيش المصرى فى سيناء

وكانت مهمة الطيران الفرنسى الأساسية ضرب خطوط الامداد المصرية الى سيناء ..

***

وفجأة ، تلقى الطيران الفرنسى فى اسرائيل برقية عاجلة من القيادة الفرنسية فى قبرص تقول : « اضربوا الأقصر ! »

فقد علم الغزاة ان المدينة التاريخية فيها ممرات جوية حديثة للطائرات الأسرع من الصوت ، وان الطائرات « اليوشين ٢٨ » المصرية رابضةهناك

وصرخت اسرائيل تطلب تدمير « مطار الأقصر » ووقعت مشادة عنيفة بين انجلترا وفرنسا .. لماذا ؟ ..

السبب هو انه كان قد تم قبل العدوان تقسيم دقيق لاختصاص كل دولة فى المناطق التى تضربها بقنابلها ، فلما طلبت فرنسا السماح لها بضرب «الأقصر» ، اعترضت انجلترا ، وأخيرا ، سمحت انجلترا للطيران الفرنسى بأن يخترق « مجال اختصاصها لمدة يوم واحد ، يقوم خلاله بضرب الأقصر » ! ..

ولم يكن هذا هو كل ما تلقته اسرائيل من عون من الطيران الفرنسى فى حربها ضد مصر ، فقبل القتال وبعده كانت طائرات النقل الفرنسية تقيم جسرا جويا لنقل الأسلحة الى اسرائيل .. كذلك فان الطائرات التى أنزلت فرق الباراشوت الاسرائيلية فى قلب سيناء كانت طائرات فرنسية . ثم جاءت طائرات فرنسية أخرى من قبرص رأسا لتسقط لهم معداتهم فى وسط سيناء ..

هكذا كانت القوات الاسرائيلية تقاتل فى سيناء والامدادات الفرنسية تهبط عليها من السماء بما فى ذلك الماء والبترول وقطع الغيار والسيارات الجيب المصفحة . وقد رأى راندولف تشرشل ، الذى طار الى اسرائيل

بمجرد بدء القتال ، بنات تل أبيب يرفهن علنا عن ضباط الطيران الفرنسيين الذين يشتركون فى القتال .. كما يقول المؤلف ..

وبنفس الطريقة ، يصف الكتاب كيف ان السفن الحـربية الفرنسية الثلاث : « كيرسانت » و « بوثيه » و « سيركوف » تصدت للمدمرة المصرية « ابراهيم الأول » وضربتها أمام شاطىء اسرائيل ..

كما ان السفينة الحربية « كيرسانت » مع سفينة أخرى حربية فرنسية اسمها «جورج ليجى» قامتا بضرب رفح وشاطىء سيناء من البحر لتمهيد الطريق أمام الهجوم الاسرائيلى . وكان هذا يتم ليلا ، حتى لا يعرف أحد أى سفن تقوم بالضرب ..

وتفاصيل هذه القصص غريبة ..

ففى يوم ٢٩ أكتوبر ، عصرا ، اتصل الكولونيل « نيشرى » الملحق العسكرى الاسرائيلى فى باريس بالأميرال الفرنسى بارجو قائد الأسطول الفرنسى الرابض فى شرق البحر المتوسط ، وطلب منه ضرب رفح والعريش

وكان هناك فى ذلك الوقت اسطولان فرنسيان متصلان فى المنطقة : اسطول مرتبط باسرائيل رأسا ، ومهمته حمايتهـا من البحرية المصرية ومساعدة حملتها ضد مصر .. واسطول مرتبط بالانجليز ويكون جزءا من القوة التى تستعد للنزول فى بور سعيد بالاشتراك مع القوات الانجليزية

ورد الأميرال بارجو قائلا : ان سفن الأسطول الاول ليس لديها الا مدافع ١٣٧ ملليمترا وهى لا تكفى لضرب رفح والعريش ، فلا بد من ضم البارجة « جورج ليجى » المزودة بمدافع عيار ١٥٢ ملليمترا حتى يتسنى القيام بالضرب ..

ولكن البارجة « جورج ليجى » كانت جزءا من القوة التى تستعد لغزو بور سعيد مع الانجليز يوم ٦ نوفمبر ! .. لهذا كان لابد من استئذان الجنرال كيتلى الانجليزى ، القائد العام للقوات الفرنسية الانجليزية التى ستغزو مصر ، ورد كيتلى قائلا : « لا مانع . بشرط ألا أعرف هذا رسميا فكأنكم لم تطلبوا منى شيئا ، وكأننى لم أسمح لكم بشىء ! »

ومن أطرف اللحظات التى مرت بها المؤامرة ، ماحدث يوم ٤ نوفمبر ..
ففى ذلك اليوم ، لم تكن القوات الفرنسية والانجليزية قد بدأت بعد فى النزول فى بورسعيد ، ويومها أراد ابا أيبان أن يوهم الأمم المتحدة ان اسرائيل قد قضت على المقاومة المصرية فقال : لقد توقف القتال فعلا فى سيناء ! ..

وذعرت لندن وباريس ! ..

انهما ستغزوان مصر بحجة وجود القتال ! .. فماذا يريد ابا ايبان ؟ .. هل غدرت اسرائيل بهما ، وتلقت مساعداتهما حتى تحتل سيناء ، ثم تقول ان القتال قد انتهى ؟ ..

وكيف تتدخل الدولتان الآن ؟ ..

واهتزت أسلاك التليفون بين لندن وباريس تبحث عن بن جوريون شخصيا وتسأله تفسير هذا الموضوع .. حتى هدأ بن جوريون من روعهم وقال : انه لم يقصد بذلك الى قبول قرار وقف اطلاق النار وبالتالى ايقاف الغزو ..

فالغزو اذن يستطيع أن يستمر ..

***

يعتقد المؤلف ان من أكبر أخطاء الغزو تردد الانجليز ، وعدم جرأتهم فى « التآمر » مع اسرائيل بنفس الصراحة التى تآمر بها جى موليه معهم
كان الانجليز يستعدون للقتال وفرائصهم ترتعد من احتمال واحد : أن ينكشف تآمرهم السابق مع اسرائيل ! ..

ولكن المعركة كانت تقتضى مزيدا من التعاون وجها لوجه بين العسكريين الانجليز والاسرائيليين ، اذ لم يكن وقت المعركة يسمح بتوسط الفرنسيين بين الاثنين فى كل عملية حتى يظل الانجليز يزعمون انهم غير مشتركين مع اسرائيل ! ..

ومن أخطر اللحظات التى ترتبت على هذا الجو ، قصة غريبة يرويها المؤلف :

فقد كان المفروض أن يبدأ انزال قوات فرنسا وانجلترا فى بورسعيد يوم ٦ نوفمبر ، ولكن ازاء تفاقم الجو الدولى خطر لفرنسا واسرائيل تقديم موعد الغزو الانجليزى الفرنسى من ٦ الى ٣ نوفمبر ، كسبا للوقت .. كما اقترحوا أن يتم الغزو بانزال قوات براشوت على طول القناة فى نفس الوقت ، لا فى بورسعيد وحدها ، ثم التقدم الى الداخل كما تقضى الخطة الأصلية : لأن هذا أصبح تخطيطا بطيئا جدا ازاء سرعة الأحداث وتطورات المعركة

وسأل الانجليز : ولكن مَن الذى يموّن هذه القوات ، التى ستنزل دفعة واحدة على طول القناة ؟

وكان الرد : اسرائيل .. من سيناء

وعرض الأمر على القيادة البريطانية العليا فى لندن

كان معنى هذا انكشاف التآمر علنا وفى عز المعركة ..

وانقسم الانجليز ..

ولكن ضابطا معينا فى القيادة ، رأى ان هذا معناه الذهاب بعيدا فى المغامرة ، والتورط فى عمل جديد سوف يجعل انكشاف التآمر محققا .. هذا الضابط هو اللورد مونتباتن

انه ليس ضابطا عاديا .. انه قائد عام الأسطول ، وقريب الملكة ، وحاكم الهند السابق ، وأكبر اسم عسكرى فى القيادة البريطانية

ولم يضيع مونتباتن لحظة واحدة . فقد خرج من القيادة العامة رأسا الى القصر الملكى حيث طلب أن يقابل الملكة فورا

وفى لهجة دراماتيكية أحاط الملكة بالأمر : وقال لها ان انجلترا على وشك أن تكشف أوراقها فى أخطر مغامرة أقدمت عليها ، وان نتيجة انكشاف المؤامرة مع اسرائيل هى : انهيار كل مصالح انجلترا فى الشرق العربى بضربة واحدة

وازاء هذا التحذير ، اتصلت الملكة اليزابيث تليفونيا بأنطونى ايدن وطلبت منه الحضور فورا الى القصر ..

وعندما وصل ايدن الى القصر . قالت له الملكة : انها قد أحيطت علما بكل ما يدور وخصوصا بالخطوة الجديدة التى توشك الحكومة ان تقدم عليها . ونظرا لخطورة هذه الخطوة الجديدة على مصالح الدولة ، فهى تطلب من انطونى ايدن أن يستشير مقدما زعيم المعارضة ، هيو جيتسكيل !

وأدرك ايدن أن هـذا الكلام معناه مطالبته بالتراجع عن المغامرة الجديدة داخل المغامرة الجارية بالفعل ! ذلك أن جيتسكيل كان على رأس حزب العمال يعارض العملية كلها علنا ويشن عليها حربا شعواء ..

هكذا طلب ايدن العدول عن الفكرة الفرنسية الاسرائيلية ، والالتزام بالخطة القديمة : خطة الغزو يوم ٦ نوفمبر ، فى بورسعيد ، حتى لاينكشف تآمر انجلترا مع اسرائيل !!

الى هذا الحد كان حرص انجلترا على ان يبقى تآمرها المسبق مع اسرائيل سرا لا ينكشف ! الى هذا الحد كانت تعتقد انه من السهل خداع العالم ! ..

ان تقديم قصة الحرب ذاتها ليست مهمة بقدر اهمية قصة الترتيبات التى سبقت الحرب : فهذه المؤامرات والترتيبات هى التى تكشف أعماق المصالح الاستعمارية ، وابعاد التآمر السياسى ، تكشف الكراهية الاستعمارية العميقة لظهور أى قوة مستقلة فى المنطقة العربية

قصة عمرها مئات السنين ، ولكنها تتبدى فى حجمها الحقيقى من خلال قصة الشهور التى سبقت بدء العدوان المشترك على مصر ، بهدف واحد هو ضرب الثورة فى مصر .. وبأمل واحد هو أن يؤدى ضرب الثورة فى مصر الى انهيار كل الحركات الثورية التحررية فى كل انحاء العالم العربى

قال ميشيل بن زوهار ، المؤلف الاسرائيلى ، فى ختام الكتاب :

« لقد ولد الغزو ميتا ! أما الانتصار الحقيقى فقد كان انتصار عبد الناصر ، الذى خرج من المعركة وهو بطل العالم الثالث ، أى عالم آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية . ان كل عملية السويس ، التى أرادت أن تقضى عليه ، قد كللته فى النهاية بأكاليل الغار ! »

الفصل التاسع

الصهيونية والنازية

« ان أشهر الذين يزعمون أنهم شعب مختار هم اليهود · فالحركات الصهيونية والنازية سواء فى ادعاء هذه الصفة العنصرية غير الصحيحة
« ان الحركة الصهيونية قد جمعت بين جنبيها أسوأ ما فى الحضارة الغربية : القومية العمياء ، والاستعمار ! فان استيلاء الحركة الصهيونية على بيوت وأراضى وأملاك ٩٠٠ ألف عربى فى فلسطين ، هم الآن لاجئون ، ليس أرقى من الناحية الاخلاقية من أبشع الجرائم التى ارتكبت خلال الخمسة قرون الاخيرة بواسطة الغزاة والمستعمرين · وهذا هو حكمى الاخير على تاريخ الصهيونية فى فلسطين ··
« ان اليهود من بين كل شعوب العالم ، لهم أطول تاريخ فى التعرض للاضطهاد · وقيام اليهود بتحميل طرف ثالث مسئولية الاضطهاد الذى لاقوه على يد الغرب يشكك المرء فى الطبيعة الانسانية كلها »

أرنولد توينبى

قبض البوليس فى نيويورك مرة على شاب يرسم شارة الصليب المعقوف واذا به طالب يهودى ! وقد كشف هذا عن رغبة الصهيونية فى ايهام العالم بأن بذور النازية ما زالت باقية تهدد اليهود .. لكى تستفيد من ذلك !

ان كراهية اليهود ، فى العالم المسيحى قديمة . فى حين لم تكن هناك كراهية قديمة بين اليهود والمسلمين ، ولا بين اليهود والعرب

وسبب كراهية العالم المسيحى الغربى لليهود .. يرجع الى الدين . فاليهود هم الذين قاوموا المسيح واضطهدوه وتآمروا عليه . وفى التاريخ المسيحى ان اليهود هم الذين قتلوه وصلبوه ! وهذه قصة يقرأها كل تلميذ مسيحى فى كل مكان من العالم ، خصوصا اذا كان كاثوليكيا وتستطيع أن تحس هذا بوضوح فى روما بلد البابا .. وعاصمة الكاثوليكية ! وتستطيع أن تحسه بوضوح أكثر اذا علمت بالجهود

الجبارة التى تبذلها اسرائيل لكى تجعل الفاتيكان يعترف بها !

والمؤرخ اليهودى الفرنسى « جول ايزاك » يقول : انه من المألوف اذا طلب طفل يهودى فى المدرسة من طفل مسيحى ان يلعب معه ، ان يرد عليه الطفل المسيحى قائلا : كلا . لأنكم قتلتم المسيح !

وقد روى لى شاب ايطالى انه كان يسكن وهو طفل مع أهله فى عمارة كبيرة فى روما .. وفى الدور الاول من العمارة كانت تسكن أسرة يهودية.. فكان أهله يقولون له : « اياك ان تعرف سكان الدور الاول اليهود أو تدخل شقتهم .. والا خطفوك وذبحوك كما فعلوا بالمسيح ! » وانه عاش سنوات يسرع فى صعود السلم عندما يعبر الدور الذى تسكنه الأسرة اليهودية ! ..

وبصرف النظر عن الاسباب التاريخية او الاجتماعية ، فمن المؤكد ان اليهود ، على مر الزمن ، أصبحوا مجتمعا مغلقا على نفسه يقف موقف العزلة ، واحيانا العداء ، مع شعور بالتفوق ، ازاء سائر اجناس الارض وشعوبها ..

وهذه النزعة العنصرية ، تبلورت فى شكل سياسى عنصرى سافر بظهور الحركة الصهيونية ..

ان الحركة الصهيونية لا تؤمن بأن النـــاس كلهم سواء ، وبأن كل انسان ينتمى الى الشعب الذى ولد فيه ويعيش فيه . انما تؤمن بأن هناك صفات خاصة تجمع بين اليهود كعنصر واحد من دم واحد وعرق واحد وأصل واحد وان الرابطة بين اليهود أسمى من رابطة الوطن أو أى رابطة أخرى .. ولذلك فهى تدعو الى اقامة وطن قومى يكون سكانه يهودا وشعبه يهودا وجنسيته اسرائيلية ! .. ومعنى هذا أيضا ان اليهودى فى المانيا أو فرنسا أو امريكا يجب ان يشعر ان ولاءه الاول لدولة اسرائيل وليس لألمانيا أو فرنسا أو امريكا !

ولا يجب ان ننسى ان الحركة الصهيونية ولدت فى اوروبا ولم تولد فى البلاد العربية . انها وجدت فى أوروبا بالولادة .. ولكنها وجدت فى

الوطن العربى بالغزو الخارجى والهجرة . والسبب هو ان كراهية اليهود لم تكن موجودة بين العرب ، فلم تنجم عندنا حركة صهيونية متعصبة ، كما نجمت فى اوروبا .. ولكنها جاءت بالهجرة والغزو مع اليهود الذين عاشوا فى اوروبا وتربت عندهم عقدة العـداء والكراهيـة والتعصب العنصرى هناك .. وبن جوريون وموشى ديان وكل اقطاب اسرائيـل ليسوا من ابناء فلسطين ولكنهم مهاجرون من روسيا وبولندا والمانيـا وغيرها ! انما ولدت كراهية الصهيونية عندنا من حضـورها الى بلادنا واغتصابها فلسطين لاقامتها وطنا عنصريا على أشلاء شعب عربى ! ..

ومن الاشياء الطبيعية والمنطقية ان ظهور حركة عنصرية لابد ان يؤدى الى اصطدامها بحركات عنصرية أخرى . فاذا كان هناك شعب يزعم أنه ارقى الشعوب وانقاها .. فمن البديهى ان يصطدم مع أى شعب آخر تقول انه ارقى الشعوب وانقاها !

ومن هنا .. كان اصطدام الصهيونية بالحركة العنصرية الالمانية ، أى النازية ، أمرا طبيعيا بل وحتميا ! ..

ان النازية كانت تقوم على اساس ان الالمان عنصر ممتاز خلق لكى يسود ويقود سائر الشعوب والاجناس . والالمانى بناء على هذه الفكرة يجب ان يكون من سلالة المانية طاهرة لم تلوث بأى عنصر آخر . ولذلك كان على عضو فرق الشباب الهتلرى مثلا.. اذا أراد أن يتزوج أن يحصل على موافقة الحزب على زواجه . وكان الحزب يتحرى عن الزوجة ويتعقب اجدادها وسلالتها لكى يتأكد من انها سلالة المانية سليمة قبل ان يوافق على ان تتزوج احد اعضاء فرق الشباب الهتلرى !

واليوم .. نرى اسرائيل تقرر ان الاسرائيـلى يجب ان تكون أمه اسرائيلية .. وأم أمه اسرائيلية .. لكى يثبت ان دمه يهودى خالص !

نشرت جريدة النيويورك تايمز الامريكية ، المشهورة بعطفها القوى على اسرائيل ، رسالة لمراسلها فى اسرائيل ، فى عدد ١٩ يناير ١٩٦٥ تقول :

« تحت المظهر اللامع لهذه الدولة » تختفى معتقدات شديدة التعصب

« وقد تجلت هذه الحقيقة أخيرا فى قضية السيدة « رينا عيتانى » التى تقطن فى الناصرية . فبعد أن عاشت هذه السيدة كل حياتها على أنها يهودية ، فوجئت بهم هنا يقولون لها انها ليست كذلك ..

« لقد كان ابوها يهوديا . وشبت فى المانيا كيهودية وقد اضطهدها النازيون لانها يهودية . واعتقلها الانجليز فى قبرص لأنها يهودية . وجاءت الى اسرائيل كيهودية ، من الذين تسللوا اليها بالهجرة غير الشرعية . وعاشت رينا فى احد المعسكرات اليهودية ، وساهمت فى بناء اسرائيل بيديها ..

« وتزوجت رينا يهوديا فى اسرائيل ، وعاشت تمارس الشعائراليهودية . ولكن فجأة ، منذ بضعة أسابيع ، أعلنت وزارة الداخلية ــ بناء على بلاغ سرى قدم لها ــ ان هذه السيدة ليست يهودية ، لأن الوزارة علمت ان أمها لم تكن يهودية

« والقوانين اليهودية تعتبر السلالة من ناحية الأم هى السلالة التى يعتد بها فى نقاء الدم اليهودى . وهكذا وجدت رينا أن القانون يعتبرها « غير نظيفة » طبقا لنصوص العهد القديم ..

وقد فجرت هذه القضية مناقشة حادة اختلفت فيها الآراء حول تعريف : من هو اليهودى ؟ ..

يقول المراسل « لا احد يسأل هذا السؤال اكثر من يهود اسرائيل نفسها .. ولا توجد بعد اجابة ترد على كل جوانب هذا السؤال بما فيها الاجابة العامة التى تقول : ان اليهودى هو الذى يقبل اعتراف اليهودى ويعيش طبقا له . فهم يعتقدون ان انواع التراث قد اختلطت بحيث اصبح التراث لا يكفى لهذه التفرقة

وتمتد مظاهر التعصب هذه الى ابسط الاشياء . فاذا كان هناك زوجان يهوديان يسكنان غرفة واحدة فى فندق فلا يستطيعا أن يطلب أحدهما « ساندوتش » دجاج والآخر ساندويتش جبن فى نفس الوقت « لأنه

لا يجوز وضع اللحوم والألبان فى مطبخ واحد !

هذه هى الصهيونية .. وهذه هى النازية !

دعوتان تقومان على نفس الاساس .. ولذلك فهما تتصارعان وتتبادلان ابشع العداء ! ..

والتاريخ يقول : ان الصهيونية ظهرت قبل ظهور النازية « واذا كان النازيون قد ذبحوا اليهود وليس اليهود هم الذين ذبحوا النازيين .. فهذا لايرجع الى ان الصهيونيين طيبون والنازيين رديئون .. ولكن يرجع الى ان النازيين الالمان كانوا أقوى واكثر من اليهود . ولو تصورنا ان وضع القوة كان عكسيا لقام الصهيونيون بنفس المذابح ضد النازيين

هل هذا دفاع عن النازية ؟

كلا بالطبع . فالنازية صفحة سوداء فى تاريخ الفكر العالمى والحضارات العالمية . ولكن الصهيونية أيضا صفحة سوداء . وكل منهما تستند الى نفس المنطق والفلسفة العنصرية المقيتة التى يجب محوها من الارض . وهذه نقطة هامة جدا ، علينا ان نوضحها لأنفسنا وللعالم جيدا .. حتى لا تحاول اسرائيل الاستفادة من سخط العالم على النازية وعدائه لها ! وحتى لا تبدو أمام العالم كأنها نقيض النازية وعكسها .. والواقع انها تقاتلها لأنها شبيهتها ومنافستها ! !

وليس معنى هذا ان النازية ظهرت نتيجة لظهور الصهيونية والتعصب اليهودى العنصرى . ولكن النازية عندما وجدت وظهرت .. كان طبيعيا ان تصطدم باليهود .. للاسباب التى سلف ذكرها ..

ولكن ظهور النازية يرجع الى اسباب كثيرة ، بعضها خاص بألمانيا نفسها ، وبعضها الآخر خاص بتطورات المجتمع العالمى بوجه عام ..

فالألمان ــ باستثناء روسيا التى ظلت أوروبا تعتبرها دولة اسيوية الى عهد قريب ــ وجدوا انهم اكبر شعب فى القارة الاوروبية كلها .. وهو شعب غنى نشيط منتج قوى ميال للنظام .. ومع ذلك فقد تأخرت نهضة المانيا السياسية زمنا طويلا ، بحكم تمزقها الى ولايات كثيرة ، وبحكم

تحالف سائر دول اوروبا على منع وحدة المانيا خوفا منها . فبريطانيا والنمسا وفرنسا وروسيا تحالفت طويلا لمنع وحدة الدويلات الالمانية فى دولة واحدة . وكل هذا من شأنه ان يخلق حركة قومية متعصبة كرد فعل ، وقد حققت ألمانيا وحدتها فعلا بالحرب على يد « بسمارك » . حاربت امبراطورية النمسا ثم امبراطورية فرنسا قبل ان تحقق وحدتها كشعب ، فظلت هذه الروح كامنة فى نفوس كل هذه الاطراف زمنا طويلا

يضاف الى ذلك ان الثورة الصناعية عندما اكتملت فى المانيا واصبحت قوة هائلة .. وجدت ان بلادا اخرى قد سبقتها فى مجال التطور الطبيعى للرأسمالية فى ذلك العصر ، وهو الاستعمار .. فبينما كانت بريطانيا وفرنسا وروسيا وهولندا وبلجيكا تمرح فى مستعمرات شاسعة ، كانت المانيا محرومة الا من القليل ، فلهذا تفاقم العداء بينها وبين هذه الدول وانفجر هذا العداء فى الحرب العالمية الاولى

والاذلال الذى انزله الحلفاء بألمانيا بعد الحرب الاولى ، هو الذى أعطى شهادة الميلاد لحركة عنصرية أقوى وأغنى ، اذ ظهر هتلر على مسرح السياسة الألمانية برسالة أساسية هى استعادة الأراضى المفقودة من ألمانيا .. ثم ما تلا ذلك من نشر دعوة التفوق الألمانى ونقاء العنصر الألمانى والدكتاتورية السوداء التى ذبحت من الالمان انفسهم مثلما ذبحت من سائر بلاد أوروبا !

لقد قال المؤرخون عن « بسمارك » الذى حقق وحدة المانيا : انه جعل المانيا كبيرة .. والالمان صغارا !

وبنفس المنطق يمكن ان نقول عن هتلر والنازية : انه جعل المانيا مخيفه .. ولكنه جعل الالمان خائفين !!

وقد اندثر هتلر ..

فما الذى بعث النازية اليوم ؟ ..

كنت فى فرانكفورت يوما فلاحظت ان المكتبات واكشاك الصحف مليئة بالكتب التى تهاجم النازية والهتلرية وتصور فظائعها وجرائمها !

لاتوجد واجهة مكتبة أو كشك صحف تخلو واجهته من كتاب عليه رسم جماجم وخرائب ونيران وفوقها عنوان عن النازية أو الهتلرية !

ومع ذلك فالمراقبون الاجانب يقولون ان النازية تبعث فى المانيا الغربية اليوم ..

ان المانيا الغربية تنتشر فيها جمعيات ومنظمات للشباب وللطلبة .. منظمات تظهر عليها بوادر النازية .. فأعضاؤها يلبسون الاحذية الطويلة وقمصانا عسكرية واحيانا خناجر كخناجر الكشافة ! والالمانى يقبل بطبيعته على من ينظمه فى طوابير واستعراضات وفرق ترفع الرايات وتلبس الخوذات وبعض هذه الجمعيات تنظم مواكب بالمشاعل على الطريقة النازية ! وفى حانات البيرة ظهر من يسكر فيصيح : عاش هتلر ! ولو حكم عليه بالحبس سنة ! ..

وبعض هذه المنظمات يحمل اسماء قادة الحرب الاخيرة من الجانب الألمانى مثل « جودريان » و « دونيتز » .. ومنذ بضعة شهور فوجىء الناس برجال وشباب يملأون بعض الحانات يغنون ويشربون ويتبادلون التحية .. ثم ظهر ان اليوم هو ٢٠ ابريل .. عيد ميلاد هتلر !! ..

وبعض زعماء هذه المنظمات بدأوا يصبحون فى مصاف الزعماء البارزين الذين لهم أتباع وعابدون ! كل واحد يرشح نفسه لأن يكون هتلر آخر.. ولأن يكون نجما عالميا خلال سنوات قليلة .. مثل : جنتر هيسلر .. والفريد زيتزمان .. وبيتر برناو وكل منهم كان من أعضاء فرق العاصفة الهتلرية القديمة ! ..

وفى نفس الوقت تقول التقارير الالمانية ان بين كل عشرة مدرسين يوجد ثلاثة على الاقل يؤمنون بالنازية لأنهم من تلاميذها القدامى .. ودروسهم للصبيان والشبان مشحونة بالدعاية الظاهرة والخفية للنازية وهتلر ..

فكيف يعتنق عدد كبير من شباب المانيا مثل هذه الفكرة النازية العنصرية المتعفنة ، رغم الدعاية المركزة ضدها ؟

ربما بسبب هذه الدعاية المركزة ذاتها ! ..

فبعد الحرب الاخيرة ، وقف كل الحلفاء من الشعب الالمانى موقف الاساتذة الذين يريدون تأديب الشعب الالمانى وتهذيبه . وكان هنـالك اتجاهان : اتجاه يحاول تصوير المأساة كلها لألمانيا على انها جريمة حزب معين وزعيم معين هو الذى جر شعب المانيا الى هذا الموقف .. واتجاه آخر يحاول ان يجعل الجريمة جريمة الشعب الالمانى كله

ولا يوجـد شعب على وجه الارض يمكن ان يقبـل فكرة دمغه ــ كشعب ــ بالاجرام ، ولو فترة قصيرة جدا من حيـاته ! .. وهذا الاسلوب لا يؤدى الا الى الاستفزاز ، واستثارة كوامن الكبرياء خصوصا فى شعب متقدم ممتاز فخور كالشعب الالمانى .. لايمكن ان يقبل طويلا ان يقف بين الآخرين موقف المذنب الخاطىء الذى يجب ان يؤكد توبته كل يوم ! ..

وفى هذه الاسابيع بالذات ، نجد ان صحافة بريطانيا عادت تتجه هذا الاتجاه ، أى اتجاه ادانة الشعب الألماني كله ، لأن بريطانيا مختلفة مع المانيا اختلافا شديدا فى الاتجاه السيـاسى والاتجاه الاقتصـادى فى اوروبا .. فسياسة المانيا تحول دون الغاء خطر الحرب بالتفاهم مع روسيا فى اوروبا والمانيا هى حجر الاساس فى السوق الاوروبية المشتركة التى تهدد بطرد الاقتصاد الانجليزى من القارة الاوروبية !

وقد اشارت الصحف الانجليزية من جديد الى قصة معهـد الوثائق الامريكى الذى يشغل بيتا فى ضواحى برلين ، ان هذا القصر فيه كل اوراق وارشيف الحزب النازى ، وقد سقطت فى يد الجيش الامريكى قبل ان تحرق .. وهذه الوثائق تضم اسماء عشرة الملايين المانى والمانية الذين كانوا أعضاء فى الحزب النازى . وتضم كل أوراق المحاكمات الجائرة التى اعدم فيها ٦٤ الف مواطن خلال حكم هتلر ! وهذه الوثائق توضع عليها حراسة مسلحة قوية ، ولا يسمح لأى مخلوق بالاطـلاع عليها الا باذن من حكومة امريكا أو من حكومة المانيا !

ان الصحف الانجليزية تطالب بنبش هذه الوثائق .. وبكشف كل رجل

أو امرأة أو شاب أو فتاة كان عضوا فى حزب هتلر .. وكل قاض حكم فى قضية من قضايا هتلر السياسيـــة .. الى آخره ! ومعنى هـــذا ادانة الشعب الالمانى كله ! لأن الشعب كله كان خاضعا بطريقة أو بأخرى لحكم هتلر ، وكان مضطرا أن يعيش فى موكبه شيبا وشبانا وجنودا وضباطا وقضاة ومحامين ! ..

ثم ان الشعب الالمانى يرى ان هؤلاء الحلفاء الذين يهاجمونه ويدمغونه بالجريمة ، ليسوا ملائكة ، ان أيديهم جميعـــا ملوثة بدماء شـــعوب المستعمرات ! انهم يحمون الحرب الاستعمارية فى الجزائر والتفـــرقة العنصرية فى افريقيا ! ثم انه اذا كان الالمان قد دمروا وقتلوا فى البلاد التى احتلوها ، فان الحلفاء قد دمروا المانيا تدميرا وشردوا أهلها تشريدا . وهـــذا كاف لكى ينتهى الحساب ! والقاء كل المسئولية فى الحرب على المانيا فيه تجاهل للحقيقة الانسانية وهى ان الحرب كانت حربا استعمارية الى حد ما من الطرفين .. حرب نظامين رأسماليين يتنافسان على سيادة العالم ! فما كان يخطر ببال انجلترا وفرنسا ، ان تنتهى الحرب بتشديد قبضتهما على المستعمرات واحتكارهما للأسواق

ولا شك فى انه يضاف الى هذه الاسباب النفسية سبب آخر أساسى .. هو أن تقسيم المانيا يشعر الشعب الالمانى بهوان عميق ! فبرغم كل النجاح الذى احرزته المانيا بعد الحرب منجديد ، فان استمرار تقسيمها وتوزيعها وتبعيتها يجعل الالمانى يشعر انه ما زال يعيش فى مستوى اقل من أى مواطن ينتمى الى أى وطن آخر !

وهو نفس الموقف الالمانى فى الفترة التى ظهر فيها هتلر ! لأن هذه الظروف كلها تؤدى الى رد فعل حتمى فى صورة نزعات قومية متطرفة تقوم على العدوان ومقابلة الاحتقار بالاحتقار والاستعلاء بالاستعلاء !

كل هذه الاسباب .. النفسية والسياسية .. توجد تربة خصبة لكى تزدهر فيها بعض بذور النازية فى نفوس الشباب الالمانى ! ان شباب أى شعب يحب مجد بلاده ويأبى اذلالها ! واذا اتجه حب المجد وجهة خاطئة..

كانت الكارثة ! ..

والحل العميق لهذه المشاكل ليس فى تطهير المدارس من المدرسين ولا فى اعتقال هؤلاء الشبان

وانما الحل هو الحل السياسى الكبير ، هو انهاء وضع المانيا الشاذ والعمل على توحيدها ، ونشر منطق من السلام على اوروبا .. يجعل أى نزعة عدوانية غير ذات موضوع .. !

وانه لمن المهم ــ استكمالا للصورة ــ ان نذكر ان هــذه النزعات النازية ، اليمينية ، قد تكون اشتدت فى المانيا نتيجة أيضا لظهورها فى بلد مجاور ملاصق ، هو فرنسا ! .. فالعصــابات السرية الارهابية فى فرنسا .. والجمعيات الفرنسية التى تتعقب الجزائريين وتقتلهم فى المانيا نفسها .. وخطر استيلاء فرق الباراشوت على الحكم .. وظهور نعرة عظمة فرنسا وقيادتها لأوربا ورسالتها الخالدة .. كل هذه أشياء حركت ولا شك عوامل المنافسة التقليدية بين البلدين ، وان كان القادة الرسميون مثل ديجول واديناور على وفاق ! ..

***

ونعود الى اليهودية والصهيونية ! ..

ان اليهودية فى المانيا بالذات لم تعد مشكلة ! ..

ففى أيام هتلر كان اليهود فى المانيا يحسبون بالملايين .. اما اليوم فان عدد اليهود فى المانيا الغربية هو ٤٣ الفا فقط فى شعب تعداده اكثر من خمسين مليونا ! ..

وعلى العكس .. فقد زاد عدد اليهود زيادة كبيرة فى اماكن أخرى .. ففى الولايات المتحدة خمسة ملايين ، وفى الاتحاد السوفييتى ثلاثة ملايين وفى بريطانيا نصف مليون ، وفى فرنسا ٣٣٠ الفا ، وفى رومانيا ١٨٠ الفا ، وفى المجر ٨٠ الفا ، وفى استراليا ٤٣ الفا ! ..

فعدد اليهود فى المانيا الغربية اليوم أقل عددا وأقل نسبة الى عدد السكان ! .. ومركز الثقل اليهودى لم يعد فى المانيا ..

ولكن الصهيونية العالمية .. اقتنصت هذه البادرة الصغيرة فى المانيا .. بادرة ظهور بعض منظمات نازية الطابع .. لكى تعيد استثمار القصة القديمة . فانطلقت القوى الصهيونية فى البلاد الاخرى تثير الخواطر ، وتزيف العلاقات كمحاولات لاستعادة عطف الرأى العام العالمى .. وهذا يفيدها فى خلق نوع من الالتفاف العاطفى والمعنوى حول اسرائيل من جهة ورفع سيل التبرعات والمساعدات لها من جهة أخرى ..

وليس أعجب ، فى هذا المجال ، من قصة ايخمان مع اسرائيل ..

وقد أذاع القصة مستشار بن جوريون الخاص لشئون العلاقات العامة .. « موشى بيرلمان » الذى نشرها كاملة فى كتاب أصدره بعنوان « خطف ايخمان »

تقول القصة : ان يوم ٢١ مارس هو أول أيام الربيع ، ولكنه كان يوما مشئوما بالنسبة لايخمان ، ففى يوم ٢١ مارس عام ١٩٣٥ تزوج ايخمان .. ويوم ٢١ مارس عام ١٩٦٠ ، كان اليوم الحاسم فى مصيره ، اليوم الذى تقرر فيه اختطافه نهائيا ! ..

لقد كان ايخمان ــ بعد فراره من اوروبا ــ يعيش فى ضاحية « سان فرناندو » القريبة من مدينة بوينس ايريس عاصمة الأرجنتين ، كان يسكن هو وزوجته وأولاده الثلاثة « فيللا » متواضعة منعزلة ، وكان يعمل فى مصانع مرسيدس بنز فى الطرف الآخر للمدينة .. فكان عليه أن يسير كل يوم حوالى ٣٠٠ متر الى محطة الاوتوبيس الواقعة على الطريق الزراعى المهجور ، ليركب الاوتوبيس الذى يوصله الى محل عمله ..

ولم يكن أحد يعرف ان هذا هو ايخمان ، كان المعروف فقط ان السيدة ربة البيت هى « ارملة ايخمان » ، وان ايخمان نفسه مات . اما الرجل الذى يعيش معها فهو زوجها الثانى ويدعى « ريتشارد كليمنت » ، هذه هى القصة التى كان الناس يعرفونها ، والتى عاشت هذه الأسرة بها ثمانى سنوات كاملة ، من سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٦٠ ، دون أن يقلقها أحد !

ولكن فى تلك الشهور الاولى من عام ١٩٦٠ ، كان هناك من يراقب

ايخمان ، دون أن يشعر ..

لقد استأجرت مخابرات اسرائيل بيتا يقع على بعد ٢٠٠ متر تقريبا من بيت ايخمان ، لا تفصله عنه الا الحقول ، وخلف نافذة مفتوحة لا تنسدل عليها الا الستائر المعدنية : كان يوجد «تليسكوب» قوى جدا ، يستطيع ان يرى كل شيء فى بيت ايخمان .. ويستطيع الناظر فيه أن يسجل كل حركة يقوم بها ايخمان من لحظة ان يستيقظ من النوم صباحا الى ان يركب الاوتوبيس الذى يحمله الى المصنع صباحا .. ومن لحظة نزوله من الاوتوبيس عصرا ، الى أن يأوى الى فراشه ! ..

كان الذى يجلس وراء هذا التليسكوب يدعى « جاد » ، وهو ليس اسمه الحقيقى طبعا ، ولكنه اسمه المستعار ، فاذا انطلق الاوتوبيس حاملا « ايخمان » الى المصنع ، ترك « جاد » التليسكوب ، ليدق التليفون لرجل آخر من مخابرات اسرائيل اسمه « دوف » ليقول له كلمة واحدة هى « كاراجيل » وهى كلمة عبرية معناها : « كالعادة ! » أما « دوف » هذا الذى يتلقى هذا التليفون فهو يقيم فى شقة أخرى استأجرتها مخابرات اسرائيل أمام المصنع الذى يعمل فيه « ايخمان » ، ومعنى ذلك أن يبدأ فى مراقبته من لحظة نزوله من الاوتوبيس أمام المصنع الى أن يدخل فيه.. ثم فى أثناء خروجه منه آخر النهار ! ..

ولم يكن « دوف » يراقبه من تليسكوب .. انما كان يأخذ فى يده حقيبة أوراق عادية وينزل الى الشارع ، ويقف على محطة الاوتوبيس التى سينزل عندها « ايخمان » ، وعندما ينزل « ايخمان » يحاول « دوف » ان يتبعه دون أن يثير شكوكه . ان فى حقيبة اليد التى يحملها «دوف» توجد كاميرا حساسة جدا . عدسة الكاميرا هى زرار الحقيبة . وبينما « دوف » يسير فى براءة ، يضغط بأصبعه على زرارين فى يد الحقيبة ، فتلتقط صورا متوالية « لايخمان » من جميع الزوايا ..

ولكن .. لماذا كانوا يحاولون التقاط صوره كل يوم .. ويرسلون هذه الصور الى تل أبيب ؟ ..

السبب هو أنهم لم يكونوا متأكدين مائة فى المائة ان هذا الرجل هو « ايخمان » بالفعل ! ..

فمنذ عام ١٩٥٢ ، عندما اختفت زوجته وأولاده من النمسا فجأة .. انقطع خيط المطاردة الاسرائيلية « لايخمان » ، كانوا لا يصدقون ان الرجل قد مات ، ولكنهم لايعثرون له على أثر ..

ويقول المؤلف : ان أهم عناصر المطاردة فى هذه المسائل هم أفراد الجاليات اليهودية فى شتى بلاد العالم .. ومعنى ذلك ان كثيرا من أفراد الجاليات اليهودية فى كل بلاد العالم يتجسسون مباشرة لحساب اسرائيل ، ولو على البلاد التى ينتمون اليها . وفى عام ١٩٥٩ كان هناك تاجر يهودى استطاع أن يدخل المجتمع الارجنتينى دون ان يعرف احد انه يهودى . وعلى هـذا الاساس اختلط بمجتمع الالمان الذين يعيشون فى بوينس ايريس . وعلى اساس هذه الثقة سمع يوما ان « ارملة ايخمان » تعيش فى اطراف المدينة مع زوج جديد اسمه « ريتشارد كليمنت » ، وأرسل اليهودى الأرجنتينى المتنكر برقية سريعة بذلك الى مخابرات تل أبيب .. فبدأت المطاردة من جديد لمعرفة هل هذا الزوج حقا اسمه «كليمنت» ، أم انه « ايخمان » نفسه ؟ ..

ان « ايخمان » برغم خطورة مركزه أيام هتلر ، فان صوره قليلة ، والذين يعرفونه شخصيا قليلون جدا ، فقد كان حريصا دائما على أن يبقى فى الظل ، ومن هنا كانوا يلتقطون له سرا ، عشرات الصور من كل الزوايا ويرسلونها الى تل ابيب ، حيث يجرى عرضها على كل من عرفه أو رآه أو لديه صور له .. وقد كان المرجح انه هو « ايخمان » .. ولكن الدليل القاطع لم يكن متوافرا ..

ومضت مراقبة « ايخمان » فى دقائق حياته يوما بعد يوم ، وأسبوعا بعد أسبوع ، لتسجيل كل حركة له . كان منتظما فى حياته جدا ، لا شىء يتغير أبدا . وفى يوم من الأيام .. حدث تغير بسيط .. لقد اشترى « ايخمان » عند عودته من المصنع باقة فاخرة من الورد ، حملها معه ..

وعندما وصل الى البيت فتحت له زوجته .. وأعطاها باقة الورد فى اعزاز كبير ! ..

وأخذ الذين يراقبونه يفكرون فى السبب . ما هى المناسبة التى تجعله يشترى هذا الورد اليوم ؟ .. وأخذوا يراجعون ما لديهم من أوراق تضم كل المعلومات عن حياة « ايخمان » .. واكتشفوا السر ! ..

ان اليوم هو يوم ٢١ مارس عام ١٩٦٠ ! ..

وقد تزوج « ايخمان » من زوجته يوم ٢١ مارس عام ١٩٣٥ ! ..

اذن فلا بد أن هذا الرجل هو « ايخمان » نفسه . من المستحيل — اذا كان زوجا ثانيا « لأرملة ايخمان » — ان يحضر لها باقة ورد فى ذكرى زواجها الاول !.. ومن المستحيل ان يكون شراء الورد يوم ٢١ مارس بالذات ، بعد مرور ٢٥ عاما على الزواج ، مجرد مصادفة

لقد أرسلوا تلك الليلة برقية الى تل أبيب نصها : «الرجل هو الرجل» وعلى الفور بدأ التفكير فى الخطوات التالية :

كيف يمكن — اولا — ان يتم خطفه ؟.. وأين — ثانيا — يوضع « ايخمان » فى بوينس ايريس حتى يتم اخراجه من البلاد ؟..

وكيف يمكن — ثالثا — تهريبه من الارجنتين الى اسرائيل ؟ ..

وكان لابد من حل المشكلتين : الثانية والثالثة ، قبل تنفيذ عملية الخطف

أما عن المكان الذى يمكن ان يسجن فيه « ايخمان » بعد خطفه ولو لبضعة أيام .. فكان هناك اقتراحان : الاول هو وضعه فى «فيللا» من « الفيللات» المنعزلة التى يملكها احد يهود الارجنتين وهم كثيرون واغنياء والاقتراح الثانى هو استئجار «فيللا» تكون ملائمة لهذا الغرض حتى لا يورطوا احدا من افراد الجالية اليهودية فى مغامرات قد تنكشف

ويقول المؤلف : انهم اختاروا الحل الثانى واستأجروا بالفعل بيتا معزولا اعدوه لهذا الغرض . وقد لا يكون كلام المؤلف صحيحا . ولعلهم ، وهذا مرجح بسبب السرعة وضيق الوقت ، استخدموا بالفعل بيت احد يهود الأرجنتين ، ولكن المؤلف ، وهو مستشار بن جوريون للشئون

العامة ، يريد ان يبعد عن جاليات اليهود فى شتى البلاد شبهة قيامهم بأعمال غير مشروعة لحساب دولة اجنبية .. هى اسرائيل !

أما عن وسيلة نقله الى الخارج فهى : اما البر أو البحر أو الجو ..

ان نقله بالبر سهل جدا .. ولكن الى دول أخرى فى امريكا اللاتينية وهذا لا يقترب به من اسرائيل ..

ان انسب طريقة هى البحر ، بشرط ان تكون الباخرة اسرائيلية ، لأن قبطان أى باخرة من جنسية أخرى لو ارتاب فى الأمر فسوف يطلق سراح «ايخمان» وينزله فى أول ميناء تمر به السفينة . كذلك يجب أن تكون الباخرة الاسرائيلية باخرة بضاعة ، لا باخرة ركاب ، لأن باخرة الركاب سيكون فيها ناس كثيرون من جميع الجنسيات وقد يكتشفون الأمر ويثورون

ولا شك ان الباخرة أسلم من الطائرة ، لأن الطائرة لايمكن أن تطير رأسا الى مطار اللد فى اسرائيل ، بل انها ستتوقف فى عدة مطارات . وأحيانا تجرى عمليات تفتيش للطائرات .. ولكن ميزة الطائرة أنها تصل « بايخمان » بعد ٢٤ ساعة فقط . اما الباخرة فانها تستغرق أسابيع . وقد يذيع نبأ اختفائه وتحدث ضجة قبل ان يصبح « ايخمان » فى اسرائيل فعلا . ثم ان حراسته خلال هذه الاسابيع فى الباخرة صعبة جدا . فمن الممكن ان يقذف بنفسه الى البحر فى أى لحظة ! ..

وتقرر استخدام الطائرة ، رغم كل ما فيها من مخاطر، ولا يمكن طبعا ان تكون طائرة ركاب عادية ، لابد ان تكون طائرة خاصة ..

وتم اعداد كل شيء . تم استئجار طائرة لايكشف المؤلف عن شركة الطيران التى قدمتها لهم .. وتم استئجار بيت واعداد غرفة فيه كزنزانة ليس فيها أى أثاث . وتم رسم خط الطيران . فالطائرة ستطير رأسا الى مطار فى غرب افريقيا ، لا يكشف المؤلف عن اسمه ، ومن غرب افريقيا الى اسرائيل . وبقاء « ايخمان » فى البيت بعد خطفه لا يجب ان يزيد على ثلاثة أيام ، لن تذهب زوجته خلالها الى البوليس والا فمعنى ذلك انها تعترف بأن زوجها هو « ايخمان » . وهى لن تفعل هذا الا بعد

زمن .. أى بعد أن تيأس ! ..

وقصة الخطف نفسها عادية . وقفوا له بسيارة بالقرب من محطة الاوتوبيس التى ينزل فيها . وتظاهروا بأن فى السيارة عطلا حتى لايثيروا شبهات العابرين . واختاروا ساعة عودته الى البيت لأنها ساعة ما بعد الغروب والنور باهت والطريق لا يمر به أحد . وعندما اقترب منهم « ايخمان » هجموا عليه مرة واحدة ، وقفزوا به الى حفرة على جانب الطريق الزراعى حيث اتموا ضربه وربط يديه دون ان يكونوا عرضة لأن تراهم سيارة عابرة ، ثم صعدوا به الى السيارة .. التى انطلقت بسرعة .. و « اذا تحركت حركة واحدة فسوف تضرب بالرصاص ! » .. وكانوا قد عصبوا عينيه حتى لا يعرف مقر السجن الذاهب اليه ..

وعندما دخلوا به الى البيت .. وأغلقوا الابواب .. اضاءوا الانوار القوية ورفعوا العصابة عن عينيه ، وسأله واحد منهم :

— من انت ؟ ..

وكان قد أدرك كل شيء ، فقال : « ادولف ايخمان » ..

وجعلوه يخلع ملابسه كلها .. ويقف تحت الضوء عاريا تماما .. وفتشوه وفتشوا ثيابه تفتيشا دقيقا .. خشية ان يكون معه أى شيء يمكن أن ينتحر به ! ..

وهنا يروى المؤلف قصة مضحكة ساذجة : انه يحاول ايهام العالم ان « ايخمان » ذهب الى اسرائيل طائعا مختارا .. فهذا ما قالته حكومة اسرائيل فى تبرير عملها الذى هزأ بكل قانون دولى أو قانون خاص . فالمؤلف يقول : انهم قالوا له انهم سيأخذونه الى اسرائيل حيث تجرى له محاكمة عادلة .. فهل لديه اعتراض ؟ فقال : لا ..

ثم يقول المؤلف : ان « ايخمان » رحب بالمحاكمة لكى يتخلص من العبء الذى يثقل ضميره !

ومن المضحك طبعا ان نتصور ان « ايخمان » كان مختارا ! .. وان اسرائيل بعد جهود وترتيبات ومغامرات ونفقات عام كامل ، كانت مستعدة

ان تتركه لو قال انه يرفض المحاكمة ! ..

وبالمثل ــ يحاول المؤلف ان يوهمنا ان الوثيقة التى كتبها «ايخمان» تبرر ــ قانونا ــ عملية الخطف .. وثيقة قال فيها :

« أنا الموقع أدناه ، « ادولف ايخمان » أعلن بملء حريتى (!) حيث ان شخصيتى الحقيقية قد عرفت . فلا اجد داعيا لمواصلة تجنب العدالة ، واعلن رغبتى فى الذهاب الى اسرائيل لأواجه المحاكمة !.. واننى أكتب هذه الوثيقة بملء حريتى ، دون تهديد أو ترغيب ، لأننى اريد ان احصل أخيرا على سلام النفس ! »

وتحت ذلك توقيـــع « ايخمان » وتاريخ « بوينس ايرس فى مايو عام ١٩٦٠ »

وغرض اسرائيل من ذلك واضح ..

ان محاكمة « ايخمان » فى اساسها غير شرعية لأن اسلوب خطفه غير شرعى ، ولأن القانون الذى يحاكمونه به غير شرعى ، انه عمل انتقامى سافر مجرد من كل تبرير شرعى . وقد حاولوا تغطيـــة ذلك بارغام « ايخمان » طبعا على كتابة هذا الاقرار . ومن المؤكد انه كتبه فى سجون تل ابيب .. ولكنهم أرخوه بتاريخ وجوده فى الارجنتين ليقولوا انه سافر الى اسرائيل بارادته وليس خطفا

ولكن .. اذا كان الامر كذلك ففيم اذن كان كل هذا لمحاولة نقله سرا ؟ .. وجاء يوم نقله ..

اعطوه فى الليل قهوة فيها مخدر قوى فنام على الفور ، ثم خلعوا ملابسه وألبسوه بيجاما وروب دى شامبر ، وعلى الباب كانت تنتظره سيارة فارهة .. فقد قالوا : انه رجل غنى مريض جدا ومسافر الى الخارج ليعرض نفسه على طبيب عالمى . وهذا يفسر انه فاقد الوعى . وانه فى ملابس النوم . وانه يستأجر طائرة خاصة !... فى المطار اجتازوا به الجمرك بأوراق مزيفة . ونقلوه فى « نقالة » الى الطائرة وهو مخدر تماما وغائب عن الوعى .. ومعه اثنان من مخابرات اسرائيل فى ثياب الممرضين ! ..

ومعهم كميات من القهوة المزودة بالمخدر ، يسقونه منها كلما لاح انه على وشك ان يفيق ! ..

وقال بن جوريون فى البرلمان الاسرائيلى : ان « ايخمان » جاء بملء ارادته ..

شىء هام يلوح فى كل سطور القصة .. ولا يمكن تصورها بغيره هو: العدد الهائل من العملاء الذين يساعدون مخابرات اسرائيل ويعملون لها .. كلهم يهود مواطنون فى بلاد أخرى .. يظهرون الولاء للبلاد التى تطعمهم وتؤويهم .. ولا يبطنون الا الولاء لاسرائيل ! ..

***

وقد اشار محامى « ايخمان » الى ان المتهم لديه قصة غريبة تعرف فى الدوائر السرية باسم قصة اللوريات ! ..

وخلاصة قصة « اللوريات » كما ذكرت الصحف هى : ان «ايخمان» خلال الحرب عرض على الوسطاء الصهيونيين ان يسلمهم مليون يهودى من معسكرات الاعتقال فى مقابل ان يسلموا المانيا عشرة آلاف سيارة لورى عسكرية تساعد الجيش الالمانى فى حربه ضد الاتحاد السوفييتى ! وان الوسطاء الصهيونيين رفضوا هذه الصفقة !

والمفهوم ان « ايخمان » سوف يروى هذه القصة لكى يوضح انه لم يكن متعصبا لاعدام اليهود .. وانما ينفذ الأوامر فقط .. بدليل انه اقترح مثل هذا الاقتراح !

وقد رجعت الى أحد الكتب التى احتفظ بها عن اسرائيل .. تذكرت اننى سبق ان قرأت فيه هذه القصة الغريبة ..

الكتاب اسمه « الطرق السرية Secret Roods » وهو من تأليف الكاتبين الصهيونيين الانجليزيين : جون كيمش ، ودافيد كيمش ..

والكتاب يروى التاريخ السرى للهجرة اليهودية من اوربا الى فلسطين خلال الفترة بين عامى ١٩٣٨ و ١٩٤٨ ، وهو مطبوع عام ١٩٥٤ .. أى قبل ان يتوهم أحد انه من الممكن القبض على « ايخمان » أو العثور

عليه .. بل كان الرأى السائد ان « ايخمان » قد قتل ..

وليست قصة « اللوريات » هى السر الوحيد الغريب الذى يرويه الكتاب .. بل انه يلقى الضوء على علاقات كثيرة بين المانيا النازية وبين قيام دولة اسرائيل !

والقصة التى يرويها الكتاب لقصة « اللوريات » تتلخص فى ان المانيا كانت تحارب فى جبهتين فى وقت واحد .. ضد السوفييت شرقا ، وضد الحلفاء غربا .. وفى خلال ذلك كانت هناك علاقات قوية بين الجستابو الالمانى وفرق العاصفة النازية من جهة ، وبين بعض ممثلى الحركة الصهيونية من جهة أخرى ..

وكان « ايخمان » هو ضابط فرق العاصفة المختص بشئون اليهود ، وقد اتخذ مقرا له فى قصر روتشيلد فى فينا . واستدعى « ايخمان » يوما ممثل الحركة الصهيونية السرية وطلب منه أن يسافر الى استانبول ليقدم هذا العرض : ان يحرر لهم مليون يهودى مجرى من نزلاء معسكرات الاعتقال ويسلمهم اليهم ليبعثوا بهم الى فلسطين فى مقابل ان يقوموا بتسليم ألمانيا الآتى : ٢٠٠ طن من الشاى — ٨٠٠ طن من البن — مليونا علبة صابون — عشرة آلاف سيارة لورى

وطار المبعوث الى استانبول ، ثم طار الى سويسرا ليتصل بزعماء الصهيونية هناك . وكان لابد من حمل هذا العرض الى الانجليز ، فوصل المبعوثون الصهيونيون الى القاهرة ، وعرضوا القصة على اللورد موين ، وزير الدولة البريطانى المقيم فى القاهرة خلال الحرب . ولكن لورد موين رفض الدخول فى أية مباحثات مع الالمان .. وعلى الفور ذهب الدكتور حاييم وايزمان ، الذى اصبح أول رئيس لدولة اسرائيل ، الى لندن وقابل تشرشل وعرض عليه الفكرة . ولكن تشرشل رفض . وقال : « ان الاتحاد السوفييتى يشك فى ان الدول الغربية تحاول عقد صلح منفرد مع المانيا ليتفرغ هتلر لمحاربة الاتحاد السوفييتى ، ولذلك فان آية مفاوضات أو

تسليم مهمات الى المانيـا سوف يؤكد شكوك الاتحاد السوفييتى فى حلفائه الغربيين ...

على ان هذه القصة ليست أهم ولا اغرب ما فى الكتاب ..

ان فى الكتاب صفحات كثيرة تروى قصة التفاهم التام بين النـازية الالمانية وبين الحركة الصهيونية على تسهيل هجرة اليهود الى فلسطين .. وتأييد فكرة قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين !

ومن سخرية القدر ان « ايخمان » نفسه كان فى بعض المراحل من أبطال حركة هجرة اليهود الى فلسطين !

وأترك الكتاب لمؤلفيه الصهيونيين يرويان القصة :

فى عام ١٩٣٨ ، قبيل الحرب العالمية .. كان الكابتن كارل ادولف ايخمان يجلس الى مكتب فى مبنى يحمل لافتة تقول : « المكتب المركزى للهجرة اليهودية».. وكان يستقبل بانتظام شابا صهيونيا اسمه «بارجيلاد»

ان « بارجيلاد » صهيونى قادم من فلسطين . انه يرأس ٤٠٠ صهيونى يسكنون مستعمرة يهودية اسمها «كفار جيلادى» ، بالقرب من الحدود بين سوريا وفلسطين ..

كان الاثنان يدرسان فكرة هامة ..

الفكرة هى اقامة «معسكرات تدريب» فى المانيا ، يتدرب فيها الشبان اليهود لفترة مؤقتة ، تمهيدا لهجرتهم الى فلسطين . ولما كانت الهجرة الى فلسطين ممنوعة ، فسيكون على الحكومة النازية لا مجرد السماح باقامة معسكرات التدريب فقط ، بل تسهيل خروجهم من البلاد سرا بأوراق مزورة ، تسهل لهم الوصول الى فلسطين !

وكان كل ما طلبه « ايخمان » هو ان يدفع اليهود مبالغ كبيرة للدولة الالمانية نظير ذلك . وفى مقابل ذلك سوف يحطم « ايخمان » كل روتين خاص بالهجرة .. لكى يسهل لهم ارسال أكبر عدد ممكن الى فلسطين ..

اما عن معسكرات التدريب ، فقد قال «ايخمان» لمحدثه «بارجيلاد» : ان المانيا النازية مستعدة لأن تعطيهم بعض المزارع الواسعة لكى يقيموا

فيها مراكز تدريب وتجميع الشبان اليهود تمهيدا لتهريبهم الى فلسطين ..

وكانت الحركة الصهيونية لاترحب بهجرة اليهود المسنين الى فلسطين.. وهم اليهود الذين يملكون نفقات السفر .. وكانت تفضل استقـدام الشبان الأقوياء الأصحاء فقط !

ويقول المؤلفان : وقد حافظ « ايخمان » على كلمته فيما يتعلق بكل التعهـدات التى تعهـد بها . فقـد منحهم المزارع والادوات اللازمة للتدريب الزراعى ، بل انه فى احدى المرات طرد عددا من الراهبات من احد الاديرة ، لكى يوفر لليهود كل وسائل التـدريب التى تلزمهم فى احدى المزارع ! .. ويتساءل المؤلفان :

ــ ما هو السر وراء هذه الخطة النازية ؟ ..

ثم يقولان ردا على ذلك :

ــ ان هتلر نفسه وافق على هذه الهجرة السرية الى فلسطين لأسباب كثيرة ، فهو أولا يفضل ان يهاجر اليهود الالمان لا الى البـلاد المحيطة بألمانيا مثل فرنسا ، وايطاليا ، وغيرهما ، بل يفضل ان يراهم يبتعدون عن المانيا .. الى مكان مثل فلسطين .. يضاف الى ذلك ان هجرة اليهود الى فلسطين وقيام دولة صهيونية هناك سوف يوقعان الانجليز فى متاعب مع العرب واليهود على السواء .. وكل متاعب تحدث لبريطانيا هى فوائد لألمانيا ! ..

ولهذا فان « ايخمان » ــ كما يقول المؤلفان ــ اشترك فى وضع حجر الاساس الذى قامت عليه بعد ذلك دولة اسرائيل !

وفى مارس عام ١٩٣٩ ، سافر من برلين اول فوج من الشبان اليهود الالمان .. بناء على هذه الخطة .. واعطاهم النازيون قطارا خاصـا .. وجمعوهم فى القطار الى فينا حيث انضم اليهم فوج آخر تحت اشراف « ايخمان » شخصيا ! .. ثم يستمر الكتاب فى وصف الرحلة الاولى حتى وصلوا الى شواطىء فلسطين .. وهبطوها سرا .. وتسللوا الى المستعمرات اليهودية المتفرقة ! ..

الفصل العاشر

البابا والكنيسة
ووثيقة تبرئة اليهود !

قصة البابا ، والمؤتمر الكاثوليكى العالمى ، والوثيقة التى أصدرها لتبرئة اليهود الحاليين من دم المسيح ، وما يشاع عن وجود ضغط صهيونى على الكنيسة الكاثوليكية .. كل هذه خيوط تتجمع منها قصة من اعجب القصص السياسية فى هذا العصر !

ولعل الكتابة التحليلية الواقعية فى هذا الموضوع تكون بالغة الحرج ، لأنها تصدم كثيرا من المشاعر فى كثير من الجهات ..

هل هى قصة دينية تدور حول صلب المسيح ؟ ..

هل هى قصة عنصرية تتصارع فيها النزعات السامية والمعادية للسامية والصهيونية وغيرها ؟ ..

هل هى قصة سياسية تحتدم فيها مواقف الشيوعية والنازية والرأسمالية وما اليها ؟ ..

انها كل هذا ! ..

ولست اظن ان من مهمة هذا الكتاب ان يتصدى لهذا الجانب أو يتعمق فيه . ان المسيحية تقول : ان اليهود هم الذين صلبوا المسيح ، ثم قالوا : ان دمه عليهم وعلى أبنائهم من بعدهم ، فهم مسئولون عن هذا الجرم حتى اليوم ، والتعديل الذى أراد الفاتيكان ان يدخله هو أن يهود اليوم ، بعد ما يقرب من ألفى عام ليسوا مسئولين ولا ملعونين على هذا الجرم . أما الدين الاسلامى فهو يعلن ان الجريمة ذاتها لم تقع قط ، وبالتالى فلا مسئولية هناك ولا مسئولين !

الموضوع الدينى اذن قديم . والجدل فيه قديم . ولو كان ما استجد

من رأى الفاتيكان مسألة دينية فحسب ، لما اثار هذا الضجيج كله ..

ولكن أول امتداد لهذه القضية هو : الامتداد العنصرى ..

ان الاضطهاد العنصرى ظاهرة قديمة ، عرفتها اوروبا بالذات عبر القرون الوسطى وحتى العصر الحديث .. كما جاء فى الفصل السابق ..

والحروب الدينية والعنصرية ، والمذابح الدينية والعنصرية ، تشغل جانبا باهظا من تاريخ القارة الاوروبية كلها ..

ومن بين المظاهر العنصرية القديمة فى اوروبا : نزعة معاداة السامية التى كانت تجد التعبير عنها فى اضطهاد اليهود ، جيلا بعد جيل ، على يد النظم الاوروبية الدينية والدنيوية ..

فما أنزله هتلر باليهود ، لم يكن أول ما أنزل بهم فى ظل الحضارة الاوروبية بشتى تقلباتها ..

هذه العنصرية ، والنزعة المعادية للسامية ، لم تعرفها المنطقة العربية قط . أولا لأن العرب ساميون . وثانيا لأن الدين الاسلامى لم يقل بنظرية صلب المسيح . وان كان العرب قد أصبحوا فجأة وفى القرن العشرين ضحايا لعدوان صهيونى يهودى متعصب ، يتمثل فى احتلال فلسطين وتشريد العرب واقامة دولة اسرائيل ..

وكأن العرب المتسامحين يدفعون بذلك ثمن قرون من التعصب العنصرى الاوروبى ، كانت قمتها هى ما ارتكبه هتلر فى منتصف القرن العشرين !

وعندما كان الباحثون والمؤرخون ينقبون عن أسباب اضطهاد اليهود المستمر فى اوروبا ، كانوا يصطدمون دائما بسبب كبير بين الاسباب هو: ما يسجله التاريخ عن جريمة اليهود فى صلب المسيح !

ودائما .. كان هناك حلان متصارعان للمشكلة اليهودية ..

حل يقول بتجميعهم فى دولة واحدة ، تكون وطنا قوميا لهم . وهذا الحل كان يتفق عليه المتعصبون ضد اليهود ، اولئك الذين يريدون لهم أن يختفوا من حياة بلادهم ، والمتعصبون من اليهود ، أولئك الذين تكونت منهم الحركة الصهيونية ، التى وصلت الى اقامة دولة اسرائيل

ءاى أشلاء شعب عربى !

وحل ثان يقول : بأن انتشـار روح التحرر والتسامح والمسـاواة ، واختفاء نزعات التعصب الدينى والعنصرى ، سوف تؤدى الى ذوبان اليهودى فى البلاد التى يعيش فيها حين يحس ان له ما لأبنائها من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات . وهو الحق الذى يسمى بال Assimilation وقد سبق الحديث عنه فى فصل سابق ..

والخلاف ، فى العالم اليهودى نفســه ، ما زال حتى الآن حادا بين الاتجاهين ، حتى بعد قيام دولة اسرائيل .. فبصرف النظر عن ان كل يهودى ــ بالتأكيد ــ يتمنى ان تظل وتزدهر دولة اسرائيل ، وهذا أمر طبيعى ، فان هذا الخلاف يتمثل فى قضايا أخرى ، كقضية الهجرة الى اسرائيل ..

وكلنا نذكر الانفجار العنيف الذى حدث منذ عامين تقريبا ، حين ندد بن جوريون بكل يهودى يعيش خارج اسرائيل ويرفض الهجرة اليها ، ذاهبا الى حد اتهامه فى يهوديته ذاتها .. فتصــدى له يهود انجليز ، وفرنسيون ، وامريكان ، ممن لايريدون بالطبع التضحية بحياتهم فى تلك البلاد والهجرة الى اسرائيل . فيومها أيضا كان رأى أصحاب بن جوريون ان ما يراه اليهود اليوم من موجة تسامح فى الغرب أمر عارض ويمكن أن يتحطم فى أى مناسبة . وبالتالى فليس لليهودى الا دولته . فى حين كان من رأى خصــومه ان الاتجاه الى الانــدماج وال Assimilation قوى ونهائى . والتطور الانســانى لا يسمح برجعة الى الوراء فى مجال التمييز العنصرى والدينى ..

المهم هو : ان مصلحتنا الواقعية والسياسية تكمن بالتأكيد فى الاتجاه الثانى الذى يهدف الى اندماج اليهود فى بلادهم المختلفة ، وليس فى الاتجاه الذى يرمى الى التمييز ضدهم ، وبالتالى الى تجميعهم فى دولة اسرائيل ، وتدعيمها بالملايين فوق الملايين عن هذا الطريق ..

وحين نجد اسرائيل والحركة الصهيونية العالمية تعملان من أجل تحويل

موقفنا نحن العرب من اسرائيل ، من موقف سياسى وطنى الى موقف عنصرى تاريخى ، يجب ان نتنبه ، وان نكشف هذه المحاولات فى مهدها

أولا ــ لأن النزعة المعادية للسامية غربية ــ تاريخيا ــ عنا ، وهى نزعة اوروبية فى الدرجة الاولى

ثانيا ــ لأن مصلحتنا السياسية هى فى انتشار موجة التحرر الاوروبية التى تجعل اليهود يجدون مكانهم الطبيعى فى مختلف بلاد العالم ، لا فى دولة اسرائيل القائمة غصبا على ارض عربية هى فلسطين !

ووثيقة الفاتيكان الاخيرة ، من هذه الزاوية غير الدينية يمكن ان تخدم دعاة هذا الاتجاه الثانى ..

ولكن هل المسألة بهذه البساطة ؟ ..

هل المسألة كل المسألة هى ان هذا الاتجاه الى التحرر والقضاء على الحزازات العنصرية اتجاه سليم ويناسب فى منطقه تاريخنا ومصلحتنا .. وخلاص ؟ ..

ان السياسة ــ مع الاسف ــ لا تعرف هذه المثاليات . ولذلك فعلينا أن نتقب عما وراء هذا من ظلال . وهذا ينقلنا الى الجانب الثالث من جوانب القضية الغربية ..

ان الحركة الصهيونية ــ بفروعها المتشعبة ــ تعمــل فى الواقع على مستوى عدة جبهات واتجاهات ..

حيث تستطيع تحريك الشكوك القديمة ، والتلويح باحتمالات دعوة الاضطهاد ، لتدفع مزيدا من اليهود الى الهجرة الى اسرائيل .. تتحرك ..

وحيث لا تستطيع ، أن تعمد الى استغلال الاتجاه المتحرر الداعى الى ازالة كل أسباب التمييز : بأن تربط هذا التحرر لا بقضية اضطهاد اليهود الاوروبية القديمة ، ولكن بقضية اسرائيل والدولة الصهيونية الجديدة . حتى انها ، بنشاطها فى مجال الفكر بالذات ، تنجح احيانا فى ان تجعل تأييد اسرائيل والصهيونية ، علامة من علامات الفكر والتمدن ..

وحيث لا يسعفها التعصب ولا يسعفها التحرر ، تعمد الى سلاح عجيب

خطير ، هو سلاح عقدة الذنب ، وابتزاز هذه العقدة ..

كيف ؟ ..

أمامنا نموذج شهير فى أسلوبها تجاه المانيا الغربية : فالنظام الهتلرى قد أباد من السوفييت الملحدين والبولنديين الكاثوليك والبلقانيين الارثوذكس اكثر مما اباد من اليهود . ولكن حسابات كل هذه المذابح ختمت واغلقت ، وبقى حساب اليهود مفتوحا .. لأن هناك من يحرك عملية استغلاله باستمرار ، وتحويله الى عقدة يكفر عنها بالتعويضات والاعانات ..

فهل هناك « عقدة » تبتز بها الصهيونية الفاتيكان ؟ نعم .. !

وهذا ما كشفت عنه الوثائق الخطيرة التى نشرت اخيرا ..

فقد أزيح الستار لأول مرة عن جزء جديد من ارشيفات الاوراق الخاصة بالدولة النازية الهتلرية ، وكان الجزء الجديد خاصا بالعلاقة بين ألمانيا النازية والبابا الأسبق ، بيوس الثانى عشر ..

ان «النازية» هى احدى الخطايا الكبرى للحضارة فى القرن العشرين .. خطيئة يتنصل منها الآن كل فرد وكل مؤسسة ، كما يتهرب السليم من الأجرب ..

فهل يمكن ان يكون البابا نفسه ، بمركزه الروحى الهائل ، قد انزلق ، أيام المد النازى الرهيب ، الى تأييده ؟ ..

لعلنا نذكر مسرحية « المندوب » التى اثارت ضجة كبرى فى العالم سنة ١٩٦٤ ، والتى دارت حول البابا بيوس الثانى عشر ، وسكوته خلال الحرب العالمية الثانية ، بينما جنود هتلر يجمعون اليهود من الشوارع المحيطة بالفاتيكان ذاتها ، الى حيث كانوا يبادون فى غرف الغاز.. سكوته رغم معارضة بعض رجال الكنيسة له ، سكوته رغم ان الأمور وصلت فى اوروبا الى درجة لا تسمح لأحد بالسكوت أو الحياد السلبى ..

وكانت الطريقة التى استغلت بها المسرحية تنم عن ابتزاز واضح للكنيسة الكاثوليكية وتهديد لها بكشف هذه الصفحة ..

وقد جاءت الوثائق الرسمية التى أذيعت أخيرا ــ ولعل اذاعتها أيضا ليست مصادفة ــ لتؤكد ان ما ذهبت اليه المسرحية ، فى أساسه صحيح ..

ولكن ما هو « المنزلق » الذى انزلق منه البابا بيوس الثانى عشر الى تأييد هتلر أو السكوت عنه ؟ ..

ان البابا بيوس الثانى عشر ، قضى سبعة عشر عاما من حياته فى الكنيسة ، يعمل فى المانيا ، قبل أن ينتخب للبابوية . وشهد هناك فترة العشرينات والثلاثينات حتى كادت الحركة الشيوعية تستولى على الحكم فى المانيا ثم لم يقهرها الا لجوء الرأسمالية الى دكتاتورية هتلر لتدميرها ..

والذى يبدو لى ، من قراءة الوثائق المنشورة ، انه منذ ذلك الوقت تكون لديه اقتناع مبسط : ان الشيوعية بوصفها دعوة الحادية ، هى الخصم الأعظم للكنيسة ، والنازية هى الأسلوب الوحيد الذى نجح فى وقف الشيوعية . وبالتالى فعلى الكنيسة أن تقف من النازية موقفا مؤيدا .. أو موقفا غير معاد على الأقل

هذا التفسير ، يؤكده تصرف البابا بعد ذلك خلال الحرب العالمية الثانية . فمن بين الوثائق المنشورة ، على سبيل المثال :

فى يوم ٢ مارس ١٩٣٩ ، انتخب بيوس الثانى عشر بابا على الكنيسة الكاثوليكية . وفى يوم ٦ مارس أرسل خطابا الى هتلر ، ينبئه بهذا الأمر

والخطاب نفسه اجراء روتينى ، يرسله أى بابا جديد الى رؤساء الدول المختلفة لدى انتخابه .. ولكن الباحثين فى أرشيف الدولة الهتلرية وفى أرشيف الفاتيكان نفسه لاحظوا أمرين : الأول أن الخطاب المرسل الى هتلر هو أطول الخطابات المرسلة الى رؤساء الدول وأكثرها حرارة ، والثانى ان البابا قد وقع بيده ، لا على الخطاب الأصلى المكتوب باللغة اللاتينية كالعادة ، ولكن أيضا على الترجمة المرفقة بالخطاب

وبعد ارسال الخطاب بأسبوع تقريبا ، أرسل « بيرجن » السفير الألمانى فى الفاتيكان رسالة الى وزير خارجيته فى برلين «فون ريبنتروب» يقول فيها ان البابا تعمد أن يشعره بأن أول خطاب أرسله الى رئيس دولة

كان خطابه الى هتلر

ولم تكد تمضى أسابيع على انتخاب البابا ، حتى كانت الأزمة التى ساقت الى الحرب العالمية الثانية قد انفجرت ، وهى أزمة مطالبة هتلر بضم أجزاء من بولندا الى بلاده

ماذا كان رد فعل البابا خلال هذه الأزمة ، مع ملاحظة ان بولندا حتى ذلك الوقت كانت أكثر دول أوروبا كاثوليكية تقريبا ؟

أرسل الى « بيك » رئيس بولندا يقترح عليه اعطاء الأقليات الألمانية مزايا جديدة . ثم أرسل اليه مرة أخرى يقول له « ان اعطاء دانتزيج ويوبلنيا الى ألمانيا قد ينقذ السلام » ويومها ثار « بيك » ورد عليه قائلا: ان نشر رسائل البابا سوف يصدم الرأى العام البولندى الكاثوليكى

واشتعلت الحرب ، اذ اجتاح هتلر بولندا كما هو معروف فى سبتمبر ١٩٣٩ ، أى بعد ستة أشهر فقط من انتخاب البابا السيىء الحظ !

وبتاريخ أول يناير ١٩٤٠ ، أى بعد نشوب الحرب واجتياح بولندا وتحطيمها بأربعة أشهر ، أرسل القائم بأعمال سفارة ألمانيا فى الفاتيكان رسالة يسجل فيها مقابلته الاخيرة للبابا ، ويروى فيها ان البابا أبقاه لديه أكثر من الوقت الرسمى المحدد للزيارة ، وانه قال له خلال المقابلة أن ما يشاع من نفور البابا من النظم الشيوعية « الدكتاتورية » غير صحيح . بدليل علاقاته الطيبة مع النظام الايطالى القائم ، وهو نظام موسولينى الفاشستى

وقد كان البابا يصدر بيانات يعرب فيها عن أسفه ، بوجه عام ، على الدم المراق ، عندما هاجمت المانيا بولندا ، وبعد ذلك هولندا ، وبلجيكا ، وفرنسا . ولكن لوحظ انه لم يصدر حتى مجرد بيان عام عندما هاجم هتلر النرويج والدانيمارك . ولوحظ أن جريدة « أوسر فاتورى رومانو » الناطقة بلسان البابا ، كتبت فى اليوم التالى لهذا الهجوم الأخير تقول : « انه لا يوجد فى النرويج سوى ٢٠٠٠ كاثوليكى فقط . واذا كان البابا له رأيه فى الموقف من الناحية الأخلاقية ، الا انه ، من الناحية العملية ، يجب أن يفكر فى مصير ٣٥ مليون كاثوليكى يعيشون فى المانيا »

وفى أرشيف المانيا الهتلرية ، ان المندوب البابوى فى المانيا كان يقابل

مدير ادارة البروتوكول فى وزارة الخارجية الألمانية يوم ١٠ يونيو سنة ١٩٤٠ ، خلال اجتياح القوات الالمانية لفرنسا ، فقال له انه مسرور للغاية من الانتصارات العسكرية الالمانية ، وانه يتمنى ألا تتأخر ايطاليا فى دخول الحرب الى جانب هتلر ، وكان هذا الحديث قبل دخول ايطاليا الحرب بساعات !

الوثائق التى نشرت أخيرا حافلة بهذا النوع من التقارير . لا أظن ، بعد تقديمها كنماذج ، انه من المهم سرد الكثير منها . ولكن من المهم القفز الى الوثائق الخاصة بسنوات الحرب الأخيرة ، عندما بدأت ألمانيا تنهار وبدأت القوات السوفييتية تزحف من أطراف آسيا الى قلب أوربا

ففى سنة ١٩٤٣ ، توجد خطابات ــ نشرت ــ كتبها السفراء الألمان لدى الفاتيكان ، خلاصتها : ان البابا يقول ان هناك أرضا مشتركة بين الكنيسة والمانيا هى محاربة الشيوعية . وانه لذلك لا يمكن العمل من أجل اعلان هدنة بين الحلفاء الغربيين وهتلر ، تسمح له بتركيز كل قوته ضد الاتحاد السوفييتى بل يجب أن يقوم بين هتلر والحلفاء الغربيين تحالف ايجابى ضد الاتحاد السوفييتى

وعندما أخذ الحلفاء موقفا ، عدم التفاهم مع المانيا الا بعد التسليم بدون قيد ولا شرط .. نقلت التقارير المنشورة ان البابا كان معترضا على هذا الموقف من هتلر . وفى تلك الأوقات بالذات ، اشتدت حركة النازية ضد اليهود ، وتمت واقعة القبض على يهود روما بالذات

ولم يتحرك البابا : لأنه كان لا يريد أن يسهم فى اضعاف موقف المانيا ، التى ظل يعتقد انها الحاجز الوحيد ضد غزو الشيوعية لأوروبا .

ومن يقرأ الوثائق المنشورة سوف يلاحظ ان هذا « التفاهم المتبادل » بين البابا وهتلر ، ليس معناه ان العلاقات بينهما كانت « سمنا على عسل » . فقد كانت تمر بفترات بالغة الصعوبة والتوتر ، ولكن هذا كله كان يقف عند حد معين لا يتعداه : محافظة على اقتناع البابا بفكرة ان المانيا الهتلرية هى الحاجز الوحيد ضد الشيوعية ..

والذى زاد وضع البابا صعوبة ، أن رأيه هذا لم يكن يوافقه فيه كل رجال الكنيسة الكاثوليكية ، خصوصا الذين تعرضوا لمحنة الاحتلال

النازى فى فرنسا وبولندا وغيرها . وهنا أيضا تنم الوثائق عن انه كان هناك صراع حاد داخل الكنيسة الكاثوليكية حول الموقف من النـازية بوصفها عدوانا على كل الشعوب والأجناس

وحين نعود الى أسماء أقطاب الكنيسة الكاثوليكية التى ظهرت على السطح فى مؤتمر الفاتيكان الأخير ، والتى اشتد بينها الجدل حول وثيقة تبرئة اليهود وغيرها من الوثائق ، نجد انها نفس الأسماء تقريبا ، التى اختلفت حول قضية الموقف من النازية ، منذ خمس وعشرين سنة . وكلهم كرادلة فوق السبعين من العمر !

وهذا كله بالطبع غير خاف على اسرائيل ولا على الصهيونية العالمية ، ومن هذه الثغرة تستطيع بالتأكيد أن تمارس داخل الفاتيكان ارهابا من نوع الارهاب الذى تمارسه علنا فى المانيا الغربية : بتهديد كل سياسى وكل موظف كبير بكشف علاقته القديمة مع النازى للتشهير به وتدمير مستقبله .. فى الوقت الذى تمارس فيه جهدها على مستوى آخر ، للربط بين قضية « التحرر » بوجه عام وقضية « اسرائيل » الدولة ، والصهيونية الحركة ، لا اليهودية كدين فحسب ..

تلك هى طبيعة الأرض التى نواجهها فى هذه المشكلة . بتعقيداتها المختلفة وأبعادها الواقعية : وتصرفنا ــ خصوصا الدعائى ــ ازاءها يجب أن يكون شيئا آخر غير مجرد رد الفعل الصارخ العصبى ، تصرفنا يجب أن يؤكد على عدة معان هامة لتطورنا القومى والاجتماعى كله

ــ ان مبادىء التحرر والتسامح والبعد عن العنصرية هى مبادئنا ، وان اسرائيل هى مظهر حركة عنصرية رجعية هى الصهيونية ، وهى تركة اضطهادات أوروبيـة غير عربية ، وان الفهم الحقيقى لقضـايا التحرر والمساواة هو الى جانب العرب لا ضدهم ، وعلى العرب أخذ زمام المبادرة فى هذا المجال ..

ــ اننا مستعدون دائما لنكشف كل محاولة اسرائيلية لاستغلال الدين والهيئات الدينية فى قضايا سياسية فنحن لن نقبـل أن تسـوى أوروبا تركتها العنصرية والسياسية الثقيلة .. على حسابنا !

الفصل الحادى عشر

أبا إيبان والقومية العربية

الكتاب الذى أقدمه فى هذا الفصل يوضح لنا نقطة الارتكاز التى يتف عليها التفكير الاسرائيلى والدعوة الاسرائيلية فيما يتعلق بنا . انه كتاب يتحدث عنا نحن العرب وعن حركة القومية العربية ، كتاب يحاول أن يفلسف الماضى والحاضر والمستقبل . أما مؤلفه فهو من أبرز الأسماء السياسية والفكرية فى اسرائيل

ان المؤلف هو « أبا ايبان » اليهودى الفلسطينى الذى يجيد اللغة العربية ، ويتعمق فى دراسة التاريخ العربى والتراث العربى والذى شغل منذ سنوات منصب مندوب اسرائيل فى الأمم المتحدة ثم سفيرها فى أمريكا ..

كان أبا ايبان قبل الحرب العالمية الثانية يقوم بتدريس اللغة العربية والأدب العربى فى جامعة كامبريدج ، ويومها نشرت صحفنا اسمه لأول مرة عندما ترجم رواية توفيق الحكيم الشهيرة (يوميات نائب فىالأرياف) . ولما قامت الحرب العالمية ، عملت المنظمات الصهيونية على تعيينه ضابط اتصال لدى قيادة القوات البريطانية فى القدس لينظم علاقتها بالمتطوعين الصهيونيين . واشترك أبا ايبان بعد ذلك فى كل الأحداث التى أدت الى ظهور اسرائيل . ثم أرسلته اسرائيل ليكون أول ممثل لها فى الأمم المتحدة ثم ليكون سفيرا لها فى واشنطون ..

والكتاب اسمه « موجة القومية » ..

***

فى البدء ، يدافع « أبا ايبان » عن فكرة القومية بوجه عام . فيقول ان البلاد التى تتهم الحركات القومية بالتعصب وضيق الأفق هى البلاد التى

اكتملت حركتها القومية . فكل بلد كان دائما يتحمس لقوميته . ولكنه يتهم قومية الآخرين بالتعصب ! ثم يقول ان محاولة احلال (العالمية) محل القومية خطأ . لأن القومية والعالمية ليستا شيئين متعارضين . فالعالمية هي مجموع من الوحدات القومية . وتعدد اللغات والثقافات وتنوع التراث الفنى ، وغير ذلك من مميزات القوميات المختلفة . كلها أشياء تساهم فى اثراء العالم وتنويعه . ان وجودها فى العالم يشبه احتواء العالم على سهول وبحار وأنهار وغابات ووديان ، مما يجعل العالم أكثر جمالا وأكثر ثراء ..

ثم يقول المؤلف : ان مركز الحركات القومية التى تشغل العالم الآن قد انتقل من أوربا الى آسيا وافريقيا . وبعد أن يذكر عددا من هذه الحركات يقول : ان أكثرها سطوعا وبزوغا كان ولا شك تحرر الأمة العربية . ثم يقول : انه لم يحدث فى تاريخ العرب ان كانت لديهم الفرص فى ظل أكثر من ١٠ دول عربية مستقلة عدد سكانها أكثر من ٨٠ مليونا ومساحتها أربعة ملايين ميل مربع ، تضم ثروات طبيعية هائلة ، وتضم مراكز الحضارة العربية التى وصل فيها العقل العربى الى أقصى درجات الاشعاع ، مثل القاهرة ودمشق وبغداد والمدن المقدسة فى شبه الجزيرة العربية . ثم يقول : انه لم يحدث فى تاريخ العرب انكانت لديهم الفرص الهائلة ، سياسيا واقتصاديا ، كالتى تتوافر أمامهم الآن .. فرص ضخمة تزيدها ذكريات المجد ثراء ..

وبعد سطور أخرى من التقريظ والاعجاب يضع آبا ايبان أول نصل حاد تحت هذا الحرير فيقول : (.. ولكن القومية العربية ، رغم كل هذه النتائج الباهرة ، لا تواجه العالم بوجه سعيد بالنصر ، بل تواجهه بمرارة عنيفة)

هذه الفقرة العابرة ، تتفرع منها فى أنحاء الكتاب خيوط كثيرة رقيقة ، تحاول أن تنسج لدى القارىء احساسا بأن العرب يجب أن يكونوا راضين قانعين سعداء بما حققوه ، وانه ليس هناك ما يستحق مرارتهم أبدا .

ويكمل هذا أن المؤلف لايشير فى كل الكتاب بكلمة واحدة الى الطريقة التى ولدت بها اسرائيل . ولا يشير بكلمة واحدة الى أن هناك شيئا اسمه مليون لاجىء ، فهو يعرف انه يخفى أسبابا قوية للمرارة

ونعود الى منطق أبا ايبان .. فنجد انه يقول ان هذه المرارة ترجع الى ثلاث حلقات من التوتر ، يسجلها بهذا الترتيب :

الأولى ـــ توتر علاقات العرب بعضهم ببعض

الثانية ـــ توتر علاقتهم بالغرب

الثالثة والاخيرة ـــ توتر علاقتهم باسرائيل

***

وتفسير أبا ايبان لما يسميه توتر العلاقات بين العرب أنفسهم يرجع فى رأيه الى وجود تيارين : تيار يحاول جذب البلاد العربية فى اتجاه الوحدة والمركزية ، وتيار يحاول أن يدافع عن تنوع الأقطار العربية وتعـددها واختلاف ظروفها وضرورة تحقيق اللامركزية فيها . وصراع هذين التيارين فى رأى أبا ايبان هو السبب الأكبر فى كل توتر فى العلاقات العربية ، وبالتالى فى المنطقة بوجه عام ..

وفى صراحة كاملة ، وحماسة بالغة ، ينضم أبا ايبان الى (التيار الثانى) الذى يعارض الاتجاه العربى الى مزيد من الوحدة ، ويشغل صفحات كثيرة من كتابه فى سرد الشواهد السياسية والتاريخية والفكرية والاقتصادية التى تبرر وجهة نظره ..

وهذه عينة من هذه الأدلة :

البلاد العربية ، تاريخيا ، تعودت أن تعيش دولا متفرقة .. وفى الفترات القصيرة التى اتحدت فيها ، كان توحيدها بالغزو العسكرى لا بالرضى والاختيار ..

طبيعة العرب هى أن يعيشوا منفصلين حتى فى فترات استقلالهم . فليس صحيحا أن تفرق العرب وانفصالهم يرجعان الى تآمر الدول الأجنبيـــة الكبرى أو تدخلها ..

صحيح أن الثقافة العربية واحدة والتراث العربى واحد واللغة العربية واحدة . وصحيح أيضا ان التكوين النفسى والدوافع العاطفية للعرب واحدة . وصحيح أن هناك طريقة فى التفكير والكلام ، فى الحزن والفرح ، فى الحب والكراهية ، خاصة بالعرب وحدهم . ولكن هذا كله لا يؤدى حتما الى الوحدة السياسية . فدول أمريكا اللاتينية مثلا بينها هذا التشابه دون أن تخطر الوحدة ببالها ، فلا تصدقوا ان هذه العوامل المشتركة تؤدى حتما الى تدمير الحدود السياسية الحالية بين الدول العربية والى خلق دولة عربية واحدة ..

فى صفحات كثيرة ، يدق أبا ايبان بشدة على هذه الحجج .. يريد أن يحفر فى الأذهان فكرة واحدة : هى ان القومية العربية والتحرر العربى لا علاقة لهما بالدعوة الى الوحدة .. ومن يقرأ الكتاب يجد أن أبا ايبان يحس احساسا قويا أن هناك شعورا عارما بحتمية هذه الوحدة . وهو يعرف أن هذا الشعور فى حد ذاته خطوة هامة فى طريق الوحدة . فهو يحاول أن يزعزع هذه الحتمية ..

ومن الممكن طبعا تعقب كل هذه الحجج واحدة بعد الأخرى . ولكنه قد يكون من الأسهل هنا أن نريح السيد أبا ايبان .. ونقول له : ثم ماذا .. بعد هذه الحجج كلها ؟ .. لنفرض ان العرب لم يتحدوا حقا منذ ألف سنة . هل تشك حقا فى انهم (يريدون) اليوم أن يكونوا متحدين ؟ وأنهم يرون مصلحتهم فى هذا الاتحاد ؟ ..

ثم .. هل كان لليهود دولة واحدة منذ آلاف السنين بل .. هل عاشوا معا منذ آلاف السنين ؟ .. هل تشترك فى عمليات احضار اليهود من كل أنحاء الأرض .. من اليمن الى روسيا الى أمريكا الى ألمانيا .. ناس لم يلتقوا قط ، ولم تتصل الأرض بينهم قط ، ولم يكونوا قومية واحدة قط .. هل تقوم بهذا كله ، وتبرره ، ثم تريدنا أن نصدق ان العرب .. بكل هذه الظروف التى تجمع بينهم ، لا يصلحون لأن يتحدوا !؟

ان هذا الثوب العلمى لا يخفى الدعوة السياسية السافرة . اسرائيل

نريد أن تبقى الدول العربية ممزقة لأن هذه هى مصلحتها الأساسية ..

وأبا ايبان بعد كل هذا المجهود يحس انه ما زال يقف ضد التيار .. وان حججه واهية كسدود الطين التى يجرفها النهر ، فيلجأ الى الدفاع قائلا : ان هناك نغمة شائعة الآن فى كل مكان من العالم تقول : يجب أن نتفاهم مع القومية العربية ! يجب أن نعترف بالقومية العربية ! واذا كان هذا معناه أن تبقى البلاد العربية متمتعة بحق الانفصال فليس على هذا أى غبار ، أما اذا كان معنى هذا « الاعتراف بحق احدى الدول العربية فى أن تضم اليها الدول العربية الأخرى بوسائل مختلفة .. فهنا الخطأ والخطر » ..

وأبا ايبان يعرف طبعا أن مسألة « ضم » احدى الدول العربية بالقوة غير واردة . وهو يعرف جيدا ان مصر وسوريا مثلا حين اختارتا الوحدة ، كان اختيارهما حرا حرية كاملة . ولكنه هنا فى الواقع ، انما يحارب متقهقرا . انه يشعر انه خسر نصف المعركة ، اذ أن العالم قد اعترف فعلا بأن هناك شيئا اسمه القومية العربية . ولو أن أبا ايبان كتب كتابه هذا منذ عشر سنوات مثلا لقال انه لا يوجد شىء اسمه القومية العربية . ولكنه الآن ، وقد أصبح عاجزا عن محو فكرة القومية العربية ، يحاول ألا يخسر نصف المعركة الآخر .. يحاول أن يوقفها فى أذهان الناس عند هذا الحد .. يحاول أن يحول بينها وبين أن تتطور الى فكرة الوحدة

***

القومية العربية شىء .. وأى وحدة عربية شىء آخر ، هذه هى الفكرة التى يدور حولها بألف وسيلة ووسيلة !

وبعد أن يشن أبا ايبان حملة على عبد الناصر ، يقول : ان هناك فى العالم من ينتصرون لعبد الناصر فى خلافه مع بعض خصومه فى البلاد العربية بسبب ان خصومه رجعيون . ثم يستطرد قائلا : ان القوانين الدولية ومواثيق الأمم المتحدة تحمى كل الحكومات ، سواء أكانت رجعية أم غير رجعية !

طبعا القوانين الدولية تحمى كل حكومة سواء أكانت رجعية أم غير رجعية ، ولكنه بقوله هذا انما يستند الى حجة واهية جديدة ..

الخلاف هنا أيضا يرجع الى أن أبا ايبان لا يريد أن يعترف بوحدة الأمة العربية التى نؤمن بها نحن ، وايماننا بوحدة الأمة العربية معناه أننى هنا فى القاهرة مثلا أشعر اننى أنتمى الى نفس الشعب الذى يسكن فى أى قطر عربى . الاحساس الذى يربطنى بالمواطن الذى يسكن الخرطوم مثلا أو بغداد أو عمان ، لا يختلف عن الاحساس الذى يربطنى بالمواطن الذى يسكن طنطا أو الاسكندرية . الحظ الذى ينتظرنا واحد والمستقبل الذى نصنعه واحد . وبقاء الرجعية أو الاستعمار فى قطر عربى معناه بالتالى ان الرجعية أو الاستعمار ما زالا موجودين فى « الوطن » العربى وما زال يقاسى منهما « الشعب » العربى !

وانه لمن الغريب حقا أن يصدر هذا الكلام عن اسرائيـــل بالذات . اسرائيل التى لديها قانون يبيح لها أن تحاكم كل من أساء الى يهودى فى أى بقعة من العـــالم ! فاسرائيل تعلن انهـــا وكيلة من يعتنق الديانة اليهودية سواء أكان انجليزيا أم أمريكيا أم يابانيا !!

ويجب أن أذكر بهذه المناسبة أن «أبا ايبان» يبنى كتابه طبعا على أساس ان اليهودية قومية . وهو افتراض خاطىء تماما ، وافتراض رجعى الى أقصى الحدود . فما كان الدين أبدا قومية . فالأديان تتجــه الى جميع القوميات . وكل قومية تشتمل على أكثر من دين . وافتراض اسرائيل ان اليهودية قومية معناه اعتراف منها بأن مئات الألوف من العرب الذين يعيشون فى فلسطين لايمكن أن يحملوا نفس قومية دولة اسرائيل ، لأنهم مســلمون ومسيحيون . وهو بالتـــالى اعتراف بأن الدولة التى يقيمونها تنطوى على تفرقة عنصرية صريحة وصارخة !

وان برنامجها بالتالى ينطوى ولا بد على واحــد من أمرين اما طرد العرب من بلادهم مرة أخرى ، واما ابقاؤهم على أساس وجود درجتين من المواطنين ..

الى هنا ينتهى كلام أبا ايبان عن أول أسباب التوتر فى رأيه ، وهو « التوتر داخل العلاقات العربية »

السبب الثانى من أسباب التوتر فى رأى أبا ايبان هو : توتر العلاقات بين العرب وبين الدول الغربية ..

وهنا أيضا ، يريد «أبا ايبان» أن يقول شيئا هاما : يقول ان هناك فكرة بدأت تشيع فى دوائر الغرب تقول ان اسرائيل هى السبب الوحيد لسوء العلاقات بين العرب والدول الغربية .. وان علاقات العرب بالدول الغربية يمكن أن تتحسن كثيرا .. لولا اسرائيل !

ويحاول أبا ايبان أن يعمل على تقويض هذه الفكرة بكل ما يملك من قوة . لأنه لا يريد أبدا أن تفكر الدول الغربية لحظة واحدة فى أن تختار بين اسرائيل والأمة العربية التى تزداد قوة وأهمية ! وهو من أجل هذا يدخل فى بحث تاريخى ليثبت ان علاقات العرب بالدول الغربية سيئة من الأصل ، وأن اسرائيل ليست السبب فى هذا أبدا !

فهو يقول ان نظرة العرب الى الغرب مرت بثلاث مراحل : فى المرحلة الأولى كان العرب ينظرون الى أوربا نظرة ازدراء واستهزاء ، وذلك أيام تفوق الحضارة العربية ، فى حين كانت أوربا غارقة فى الظلام . ويقول أبا ايبان ان العرب معهم حق فى هذه النظرة .. وهو ينقل فقرة من كتاب « المسعودى » المؤرخ العربى القديم يقول فيها عن الأوربيين ما معناه : « ان دمهم بارد ، أجسادهم ضخمة ، أجلاف ، عاداتهم خشنة ، فهمهم غبى وألسنتهم ثقيلة ! » ، والمرحلة الثانية كانت بالعكس ، مرحلة خضوع العرب لأوروبا واعترافهم بسيطرتها وتفوقها خلال فترة انهيارهم . ثم المرحلة الثالثة التى نعيشها الآن .. ويقول عنها أبا ايبان : ان العرب فيها لا يشعرون نحوها بالخضوع . ولكن المشكلة أن البعض منهم يصر على أن النفوذ الاستعمارى لم يندثر بعد . ان هؤلاء البعض من العـــرب لا يكتفون بأنهم حققوا المساواة مع الغرب ، بل يصممون على « تسوية الحساب » والانتقام من أخطاء الماضى . المهم فى هذه النقطة هو ما ينطلق

أبا ايبان الى محاولة تأكيـــده حين يقول : ان الأزمة بين العرب وبين اسرائيل أزمة سطحية عابرة بسيطة اذا قيست بالأزمة الأصيلة العميقة بين العرب والدول الغربية ، فلا تصدقى أيتها الدول الغربية ان اسرائيل هى سبب غضب العرب عليك .. بدليل ان علاقات الدول الغربية سيئة مع عدد كبير من الدول الافريقيـــة والاســـيوية ، لأسباب لا علاقة لهـــا باسرائيل ! ..

ولا شك أن أسباب خلافاتنا مع الغرب كثيرة ، ولكن من الواضح طبعا أن اسرائيـــل سبب رئيسى . وهو بعد أن ادعى أنه لم يعد هناك أى استعمار ، ذكر بنفسه اندونيسيا حيث كان الاستعمار ساعة صدور كتابه يحتل أجزاء من البلاد ، وذكر الجزائر حينما كان الاستعمار يذبح المواطنين العرب ويشردهم ويريد سلخ هذا القطر من الوجود العربى (كأن أبا ايبان أيضا لا يعترف بأن الجزائر عربية) فهو بذلك قد رد بنفسه على ادعائه ان الاستعمار قد انتهى ولم يبق منه الا حساب الماضى فحسب . ولكن كلامه عن الغرب والعرب يكشف لنا جانبا رئيسيا فى تكتيك اسرائيـــل السياسى ، وما تبذله من مجهود لاقناع العرب بأن اسرائيل لا علاقة لها بمشاكل الغرب معنا !

بقى السبب الثالث للتوتر وهو : العلاقة بين القومية العربية واسرائيل !

ومرة أخرى يحاول أبا ايبان أن ينفى ما يقال من ان اسرائيل هى سبب المرارة التى يحملها العرب نحو البلاد المسئولة فى نظر العرب عن وجود اسرائيل ، وهو يقول : انه لا اعتراض لديه على القومية العربية ما دامت لا تغير من الوضع القديم ، وهو تعدد الحكومات العربية وتنوعها «طبعا» وان عيب القومية العربية الثانى فى نظره « بعد عيب السعى الى الوحدة » هو انها لا تريد لغيرها ما تريده لنفسها .. فهى لا تريد للقومية الاسرائيلية ما تريده لنفسها !

وقد شرحت فيما سبق لماذا لا يوجد شىء اسمه قومية يهودية ..

وحتى اذا افترضنا جدلا ان هذه القومية موجودة فان الاعتراف الذى

يريده أبا ايبان معناه ان أى قومية أخرى تستطيع أن تأتى من أى مكان فى العالم ، ثم تذبح مئات الألوف من أبناء قوميتى ، وتطرد مليونا منهم ، وتحتل أرضهم بالقوة .. لأنها تريد أن يكون لها قطعة أرض فى هـذا المكان بالذات !

***

ان أبا ايبان يختم كلامه بالحديث عن ميثاق الأمم المتحدة ، وكيف أن كل التصرفات يجب أن تكون بناء عليه ، وفى مقدمتها احترام الشعوب والحكومات المستقلة ..

ونحن نوافقه طبعا على احترام ميثاق الأمم المتحدة وضرورة السير على أحكامه ..

ولكن من أى تاريخ يبدأ هذا الاحترام ؟

هل يبدأ من لحظة وضع هذا الميثاق ؟ .. اذن فان ايجاد اسرائيل فى حد ذاته كان أكبر عدوان على ميثاق الأمم المتحدة الى الآن ..

أم ان أبا ايبان يريد أن يبدأ احترام ميثاق الأمم المتحدة من لحظة وجود اسرائيل ، أى من لحظة فوز المعتدى بنتيجة عدوانه ؟

الفصل الثانى عشر

أقدار متصادمة

عنوان هذا الفصل « أقدار متصادمة » أستعيره من كتاب بهذا العنوان للمؤلفين الصهيونيين : جون ، ودافيد كيشى ..

ويقصد المؤلفان بالأقدار المتصادمة ، أقدار العرب .. وأقدار اسرائيل : فكأن الأمانى القومية العربية والأمانى القومية الاسرائيلية قد بعثت فى وقت واحد تقريبا .. لكى يقع بينهما هذا الصدام الذى ما زال قائما ، كل من الطرفين كامن متحفز للآخر على أحد جانبى الجبل ..

واذا كنت أريد من وراء هذا الكلام شيئا ، فهو : أن ينظر قومى الى المسألة بأعمق مما ينظرون ، وأن يستخلصوا من البحث نتائجه العميقة بأشجع مما يفعلون الآن ..

واذا كان عجزنا ازاء اسرائيل فى الماضى سببه هو اننا كنا «متخلفين» فلا بأس من أن نعترف بهذه الحقيقة . لأننا بهذا الاعتراف وحده ، يمكن أن نصل حقا الى علاج صحيح ..

انها أقدار متصادمة بالفعل ..

ونتيجة هذا الصدام ستؤثر فى حياتنا الى مدى أطول وعلى نحو أعرض وأعمق مما يتصور المتصورون ..

ولقد دق القدر أبواب هذا الشرق العربى مرتين أساسيتين يفصل بينهما أكثر من مائة وخمسين عاما :

المرة الأولى — حين جاء نابليون على رأس الجيش الفرنسى ليحتل مصر ، وليغزو هذا الشرق كله .. فكانت أول مرة منذ أجيال سحيقة من الظلام ، يكتشف فيها أهل هذا الشرق وجود الحضارة الغربية الحديثة

الطاغية : ويعرفون ان ظلام الامبراطورية العثمانية ليس كل شيء ..

والمرة الثانية ــ حين جاءت اسرائيــل ، منبثقــة ومندفعة من أوربا نفسها ، على النحو الذى سوف تتأمله بعد قليل ..

ونحن الآن نضحك ونتعجب ، حين نقرأ فى تاريخ « الجبرتى » وصفه لقاء المماليك والشعب لنابليون والجيش الفرنسى . نضحك حين نقرأ ان المماليك خرجوا بالجياد المطهمة والسيوف المذهبة ليقاتلوا مدفعية نابليون الثقيلة . وحين نقرأ ان الدراويش خرجوا بالرايات يرددون الأذكار ليقهر الله جند نابليون ، الزاحفين فى مربعات من النـــار . وربما يغلبنا الأسى ونحن نقرأ « للجبرتى » وهو يصف الواقعة فيقول : « فلما سقط عليهم القنبر ــ أى القنابل ــ وعاينوه ، ولم يكونوا قد رأوه أو شاهدوه ، صاحوا : ياسلام ياسلام منهذه الآلام ، ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف »

ما معنى هذا ؟ ..

معناه ان دورة الحضـــارة التى ماتت فى بلادنا قرونا طويلة ، بينما انطلقت تدور وتهدر فى أوربا ، كانت قد خلقت هذا الفارق السحيق المخيف ..

شعبنا لم تكن تنقصه البسالة ، فقد هرب المماليك بذهبهم وحريمهم ، وبقى الشعب يثور مرة بعد أخرى ، انما كانت تنقصه الحضارة . الحضارة التى هى العلم ، والخبرة ، والثقافة ، والبارود ، وادراك روح العصر بسياساته وأفكاره وعناصر الصراع فيه . وليس أدل على ذلك من أن نابليون ، مبعوث أوربا وممثلها القوى ، جاء بأول مطبعة وجاء بعلماء وخبراء يكتشفون بلادنا ، ويرسمون خرائطها ويدرســون مواردها ، ويستكشفون حتى آثارها وتاريخها . ذلك ان المجتمــع الراكد المظلم المتخلف كان يعيش فوق هذا كله دون أن يعرفه أو يهتم به . كان مجتمعا جف ماء الحياة فيه ، وماتت خلاياه ، وضمرت أطرافه ، وانطفأ سراج عقله .. وان ظل يقاوم ويقدم الضحايا عاما بعد عام .. دون أن يصل الى شيء ..

كانت الحملة الفرنسية هى التحدى الخطير والصدمة الكبرى . بعدها لم تعد الامبراطورية التركية أبدا كما كانت . ولم يعد الشرق العربى أبدا كما كان . بدأت الخلايا تتنبه ، والعقل يتحسس ، والقلب ينتفض . بدأت المقاومة هنا وهناك ، تضىء وتخبو ، تحبو وتتعثر ، ولكن فى الطريق الصاعد دائما ، حتى الفصل الأخير ، الفصل الطويل الذى بدأ بالحرب العالمية الأولى والثورة العربية وثورة عام ١٩١٩ ، وانتهى بالحرب العالمية الثانية ..

***

وقد بدا ، فى غمرة الآمال التى شملت العالم كله بعد الحرب الثانية ، وفى موجة ثقة الشعب العربى بما حققه وتفاؤله بمستقبله ، ان نهاية هذه الحرب ستغسل معها آخر آثار الاستعمار فى الشرق العربى وستزيل آخر العوائق التى تمنع العرب من الانطلاق . ولكن أوربا كانت تعد للعرب الصدمة الثانية الهائلة : صدمة اسرائيل ! .. صدمة طرد الشعب العربى طردا ، من جزء هام عزيز من بلاده ، واقامة دولة وشعب غريب دخيل مكانه . والاحتلال العسكرى اهانة . والاستعمار الاقتصادى اهانة . والتفرقة العنصرية اهانة . ولكن لا أظن أن هنـاك اهانة تعـادل طرد الشعب طردا من بلاده وتحويلها الى دولة أخرى

ولكن ما هى اسرائيل ؟ ..

من الزاوية التى تحدثت عنها فى هذا الكتاب ، يهمنى أن أسجل من ملامح اسرائيل ما يلى :

* ان الصهيونية ، فى أساسها ، حركة سياسية « دنيوية » وليست حركة دينية . هكذا كانت منذ أوجدها وأسسها «هرتزل» الى أن توارثها « وايزمان » ثم « بن جوريون »

وقد سبق سرد الأدلة على هذه الحقيقة . فالصهيونية ولدت كحركة سياسية للرد على اضطهاد اليهود فى شرق أوربا . كانت الفكرة من البداية ان أحسن حل لهذا الاضطهاد والاحتقار أن يتجمع اليهود ــ أو بعضهم ــ

فى دولة وجنسية فيكسبون الاحترام والمساواة مع الآخرين . أما الدين فكان لا بد أن يمتزج بالدعوة لسببين : الأول ، هو ان الاضطهاد المنصب عليهم كان له طابع دينى ، والثانى : هو أن الدين يصلح شعارا عاطفيا لاقناع اليهود بتأييد الحركة الصهيونية السياسية . وأما فكرة العودة الى فلسطين بالذات ، فقــد اتخذت شعارا لاثارة الحماســة العاطفية والدينية . بدليل ان بعض القائمين بالحركة ناقشوا مرة فكرة اقامة دولتهم فى تنجانيقا ، كمستعمرة بعيدة خالية

والدليل الأهم على ذلك هو أنه حتى بعــد أن أقيمت دولة اسرائيل فعلا ، لم يهرع اليهود اليها كما كان الناس يظنون ، انما ذهب اليها فقط الذين يعيشون فى بلاد اضطهدوا فيها أو فى بلاد ذات مستوى منخفض من المعيشة . أما يهود غرب أوربا مثلا ويهود أمريكا ، فلم يذهب منهم أحد الى أرض الميعاد رغم صيحات بن جوريون التى وصلت به ــ من شهور ــ الى حد اتهام كل يهودى يرفض الحياة فى اسرائيل بأنه خارج على الديانة اليهودية . وهى التصريحات التى أثارت ضجة ما زال الجميع يذكرونها ..

* ان اسرائيــل هى بنت أوربا ، وان كانت بنتها غير الشرعية . فاضطهاد اليهود فى أوربا أمر صحيح تاريخيا . وكونهم ذبحوا بالآلاف ــ وبمئات الآلاف ــ حقيقة واحدة . والذى ارتكب هــذا الجرم هو حضارة أوربا . الأمر الذى دفع مئات الآلاف منهم الى الفرار ، فى أعداد قليلة قبل النازية وفى أعداد كبيرة بعدها . ولكن هؤلاء المهاجرين كلهم أوربيون بغير شك . ومن هنا تنشأ علاقتهم المعقدة بأوربا ، علاقة ابن السفاح بأبيه . ان الأب فى هذه الحالة يخجل من ابنه الذى أنجبه سفاحا . انه لا يحب أن يراه الناس أو ينسبونه اليه . انه لا يستطيع أن يجعله يعيش معه فى بيته تحت سقف واحد ومع أولاده الشرعيين . ولكنه مع ذلك لا ينسى انه ابنه وانه ينتمى اليــه ، فهو يحرص على مســاعدته والاهتمام بأمره ، عن بعد !

أوربا خجلى من حضارتها التى أثمرت ـ فيما أثمرت من خير وشر ـ مذابح اليهود . ولكنها ليست مستعدة أن تجعلهم يعيشون تحت سقفها . والا لتدفق اليهود الى غرب أوربا ولم يبرحوها . فلا بأس بأن يذهبوا الى مكان آخر ، على أن تعولهم أوربا وترعاهم

والغريب ان الصهيونيين المتعصبين يساورهم نفس الشعور . فاذا كان كثير من اليهود يفضلون لو بقوا فى أوربا ، فلا شك ان فيهم الذين يؤمنون بأن أوربا يمكن أن تضطهدهم فى أى وقت وأنهم لذلك يجب أن تكون لهم دولة مستقلة فى مكان ما . ولكن حتى هؤلاء لم يتحولوا مثلا الى اقامة مجتمع معاد لأوربا ناقم على اضطهادها له . انهم حريصون ـ بعد أن أقاموا دولتهم ـ على أن ينتموا لأوربا ويظلوا جزءا لاصقا بها .. ابن السفاح يبعد عن أبيه واخوته الذين لم يولدوا سفاحا ، ولكن يحاول أن يكوّن نفسه وينجح ، ثم يعود للانتساب لهم كما يعود الند للند

اسرائيل اذن تكونت بفعل الحركة الصهيونية لاقامة دولة يهودية من جهة ، وبفعل أوربا من جهة أخرى . وهى تعيش بالدافعين معا . ولكن الخلاصة ان اسرائيل هى نطفة من أوربا تنمو حيث تلامس جلدنا

وما هو وضع أمريكا ، وهى صاحبة الدور الأول فى اقامة دولة اسرائيل ؟ ..

دورها يمكن شرحه فى كلمة واحدة : ان كل الأسباب التى تجعل أمريكا مرتبطة بأوربا ، تجعلها بالتالى مرتبطة باسرائيل !

وقد سمعت من يهودى غير صهيونى فى أمريكا منذ عام ، ان من أسباب حماسة أمريكا بعد الحرب لاقامة اسرائيل ، ألا تتجه هجرة اليهود الهاربين من النازى .. الى أمريكا نفسها !

أوربا اذن .. أو الغرب .. أو الحضارة الغربية .. هى التى أرسلت اسرائيل فى النصف الأول من القرن العشرين الى الوطن العربى ، كما أرسلت نابليون فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر.. لنفس الأهداف الاستعمارية مع الفوارق المعروفة طبعا فى سائر الظروف ..

فكيف لقينا هذا الزحف الجديد ؟ ..

اننا الآن ــ لأننا قريبون من المأساة ــ لا نسترجع القصة الا بالحزن والأسى . ولكن الناس بعد مائة عام لن يجـدوا هذا الذى حدث أقل غرابة مما حدث حين التقى المماليك بالحملة الفرنسية منذ أكثر من مائة وخمسين عاما ! ..

فالصــدام الذى وقع على أرض فلسطين عام ١٩٤٨ ، وما قبلها وما بعدها ، لم يقع بين كذا ألف جندى عربى وبين كذا ألف جندى اسرائيلى . كلا .. انما كان الصدام بين : أوربا بقوتها الحضارية والمادية .. بسلطتها السياسية وخبثها الدولى من جهة ، وبين العرب بنظمهم المفككة ، ونظمهم الاقطاعية ، وفقرهم المادى من جهة أخرى ..

كان المماليك فى أواخر القرن الســابع عشر أحسن من حكام العرب ومنوكهم عام ١٩٤٨ . فالمماليك على الأقل قاتلوا قبل أن يهربوا بحريمهم ومجوهراتهم تاركين الشعب الذى سرقوه وأجاعوه بمفرده . أما فى عام ١٩٤٨ فقد كان بعض الساسة العرب يلتقون بجولدا مايير ، وموشى ديان فى السر لكى يخطط معهما المعركة التمثيلية التى سيموت فيهــا آلاف الجند . وكان فاروق يتاجر فى الأسلحة . وكان نورى السعيد ، وعبد الاله يأمران الجيش العراقى بألا يتحرك على الاطلاق .. الى آخر القصص التى أصبحت حقائق معروفة ذائعة !

فهنا أيضا وجد الشعب نفسه متروكا أمام أداة ضخمة حديثة هائلة .. وكان الشعب أيضا لا تنقصه الشجاعة ولا البسالة .. ولكن تنقصه الأداة !

كانت الصهيونية ــ باختصــار شــديد ــ تمثل الغرب بكل قوته ، ومعرفته بأدوات العصر الحديث السياسية والعلمية والحضارية .. بينما كان الشعب العربى مختنقا من الاستعمار الغربى ، ومن الأذناب المحليين ، ومن مماليك القرن العشرين فى صور جديدة ..

ثم ماذا ؟ ..

الذين يحبون جمال عبد الناصر فى هــذا العالم ، والذين يكرهونه

على السواء ، لن يجدوا مفرا ، وهم يؤرخون ويحللون الصدام بين أقدار العرب واسرائيل ، من أن يقسموا قصة هذا الصدام قسمة حاسمة الى مرحلتين :

قبل عبد الناصر ، وبعد عبد الناصر ..

لقد نبت من هذا كله جيل جديد كافح على مستويات مختلفة وبامكانيات متباينة فى شتى الأقطار العربية من أجل نقلة جديدة فى حياة العرب ، جيل لاشك ان عبد الناصر هو أكبر رموزه ، وأكبر من وضع هذه الآمال موضع التنفيذ

قبل عبد الناصر ، فى حدود الزاوية التى أعالجها فى هذا المقال ، ماذا كان هناك ؟ ..

من ناحية الصهيونية ، نجد انه من أهم الدراسات التى يجب أن نعرفها حقا تاريخ تلك الحركة وعملها الدائب فى قلب أوربا وأمريكا منذ ولدت . كيف كانت تستخدم الضغط والمساومة ، والرجاء والاملاء . كيف كانت تضع فى قلب الشرق الاقطاعى مزارع صهيونية تعاونية مؤسسة على أن تكون كل منها وحدة انتاجية واستهلاكية وعسكرية محاربة معا ، تكون نقطة للهجوم كما تكون قلعة تصمد للحصار فى نفس الوقت . وكيف كانت تؤسس نقابات عمالية قوية تمسك بأعصاب المرافق وتتغلغل وتقيم الصلات فى شرايين الحركات العمالية العالمية من جهة أخرى .. وكيف أنها تدرك فى خلال الحرب ان بريطانيا التى منحتها وعد بلفور لن تصبح القوة البازغة فى نهاية الحرب ، فتنقل ـ الصهيونية ـ نشاطها الى نيويورك ، ويكمن وايزمان هناك ليمارس كل أنواع الضغط والاقناع والمساومة مع روزفلت ثم ترومان ، ليجد ترومان فى نهاية الحرب فى مركز من يصدر الأوامر الى آتلى فى لندن . وكيف انها حتى فى هذا كله لم تغفل عن ان روسيا هى القوة الأخرى البازغة ، فهى تحوم حولها ، وتقنعها بأن العرب هم برادع الانجليز ، وانهم غير موجودين كقوة فعالة ، فتحقق ما لم يحققه أحد ، وهو اجتماع أصوات أمريكا

وروسيا على انشاء دولة اسرائيل . وكيف كانت الصهيونية تقيم مصانع السلاح والذخيرة فى قلب فلسطين .. مصانع كاملة نقلتها سرا قبل المعركة التى كانت تعرف أنها آتية .. الى آخره .. الى آخره .. كانت « أوربا تمارس كل خبرتها وقوتها وسلطتها ودهائها معا »

وفى مقابل ذلك ، من ناحية العرب .. ماذا كان هناك ؟ ..

ملخص الأمر كله أن نقول : ان كل الطبقات الحاكمة فى البلاد العربية كانت لا تخرج عن دائرة بريطانيا ولا ترى سوى شمسها ، منذ أعاد الانجليز خديو مصر الى العرش بقوة السلاح بعد أن أخمدوا الثورة العرابية .. ومنذ لبس لورانس العقال فى قيادة الثورة العرابية خلال الحرب العالمية الأولى .. منذ ذلك الوقت لم تر الفئات الحاكمة فى كل البلاد العربية شيئا الا انجلترا . ولم تعترف بشىء الابسلطة الانجليز وسطوتهم وقدرتهم . وهكذا .. فبالنسبة لفلسطين كان كل الجهد هو رجاء الانجليز ، ومفاوضتهم ، والغضب منهم يوما ، لمهادنتهم يوما آخر .. وانجلترا وأوربا كلها تبيعهم يوما بعد يوم .. وهم يقبلون منها هذا يوما بعد يوم ! ..

***

ولقد كانت الشعوب تقاوم هذا كله . وتحاول أن تتغلب على تخلفها الرهيب : تارة بانتفاضات شعبية باسلة تسفح الدم ، وتارة بمحاولات فردية باسلة لنشر نور الوعى أو لاقامة منشآت اقتصادية وانتاجية وعلمية حديثة . ولكن هذا الانطلاق الى العصر الحديث والى الحضارة لم يكن أبدا جهدا قوميا شاملا تشترك فيه الحكومة مع الشعب ، والمال مع العمل والعلماء مع البسطاء فى حركة عضوية واحدة ..

... الا حين بدأت المرحلة التى يرمز لها ويمثلها عبد الناصر

والأحداث القريبة معروفة ومذكورة يكفى هنا ذكر بعضها :

* فصفقة الأسلحة ، وتحطيم الأحلاف العسكرية ، وتمصير المؤسسات القومية والمالية والانتاجية ، وتكتيل الرأى العام العربى

الشعبى فى لحظات خارقة يضغط فيها الشعب العربى بأكمله على العدو ضغطة واحدة رغم أنف حكوماتها ، والانطلاق فى رحلة الحياد الجسور حين كان طريقها ما يزال شائكا وعرا مهلكا .. كل هذا أدى الى وضع جديد تماما ، هو : ان قوتنا الذاتية وارادتنا الذاتية فى مقاومة اسرائيل لم تعد متوقفة على رغبة أوربا أو الغرب كله ، أى على آباء اسرائيل الطبيعيين ، كما كان الحال من قبل

ويكفى للدلالة على عمق التحول ، اننا بعد أن كنا معزولين تائهين ، وبعد أن كان ساستنا يذهبون الى الأمم المتحدة مثلا أشبه بالقرويين الضائعين فى مدينة صاخبة ، بينما الشرق والغرب معا يؤيدان اسرائيل .. أصبح الآن نصف العالم ـ المعسكر الشرقى ـ يعادى اسرائيل ويساندنا تماما ، وأصبحت كتلة كبرى من دول آسيا وافريقيا تدير ظهرها لاسرائيل بينما المعسكر الغربى نفسه يتردد طويلا قبل أن يجاهر بمساندتها على حسابنا كما كان يفعل من قبل ..

***

ولم يتم هذا التحول بخطب منبرية فى الأمم المتحدة ، أو بمذكرات قانونية ترسل الى وزارات الخارجية فى لندن ، أو موسكو ، أو واشنطون . انما تم ببناء قوة ذاتية مرهوبة الجانب ، وبوجود من يدرك أدوات السياسة الدولية الحديثة ودقائقها ، وبخلق مفاهيم عربية جديدة وحمايتها وسحق أعدائها ..

ثم هناك رفع شعار الثورة الاجتماعية ، وهى فى الواقع حجر الأساس لبناء أى مستقبل ناجح لنا فى هذا الصدام الطويل ..

انها ثورة لتحقيق العدل من جهة ، وللحاق بالعصر الحديث وامتلاك أدواته من جهة أخرى ..

والثورة الاجتماعية تبدو الآن وكأنها محور الجدل والصراع فى العالم العربى . والهياكل الرجعية التى اندحرت وأثبتت افلاسها أمام اسرائيل عام ١٩٤٨ وما بعدها تشن اليوم حملات ضارية على الثورة الاجتماعية

وحين تعجز هذه الهياكل الرجعية عن مهاجمة الثورة الاجتماعية مواجهة ، ومن الأمام ، تعمد الى محاولة ايهام الشعب العربى بأن انجاز هذه الثورة الاجتماعية يبعدنا عن ساحة الصراع ضد اسرائيل ..

وهذا هو التضليل بعينه .. وهو أخطر تضليل يجب علينا أن نكشفه فى هذه الفترة ونفضحه بشجاعة ..

لقد قادتنا هذه الهياكل الرجعية مرة ضد اسرائيل .. ونحن نعرف ماذا كانت النتيجة ..

هذه الهياكل الرجعية التى هى رمز تخلفنا القديم ، تكتشف اليوم ان استمرار تخلفنا ضرورى لبقائها . ولكن استمرار تخلفنا ضرورى لبقاء اسرائيل أيضا ! .. « ان التخلف هو الشىء الوحيد الذى يضمن لاسرائيل أن تبقى فى أرضنا الى الابد »

وليس أمرا خاليا من الدلالة ان متوسط دخل اليهودى فى فلسطين قبل حرب فلسطين كان ١٤١ جنيها فى العام ، بينما متوسط دخل العربى كان ٥٠ جنيها .. وان مجموع انتاج اليهود فى فلسطين ــ الأقلية ــ كان ٨١ مليونا ، بينما كان مجموع انتاج العرب ــ الأغلبية ــ فيها ٦٢ مليونا

المعركة لا يحسمها كذا ألف جندى ، وكذا وكيت من السلاح . ان هذا هام وحيوى الى أقصى الحدود ، ولكن أى جيش لا يؤدى مهمته الا اذا كان مستندا الى مجتمع قوى متقدم سليم . قدرة أى جيش مرتبطة ارتباطا عضويا بقدرة المجتمع نفسه وفاعليته ..

***

الثورة الاجتماعية اذن .. والثورة الصناعية .. والثورة الثقافية .. واقامة مجتمع سليم عصرى متحضر ، هى المعركة الجدية التى تحسم معركة هذه الأقدار المتصادمة فى مداها الطويل ..

بعد

عداوت

۵

یونیو

كيف تهب ..
عواصف الدعاية الصهيونية ؟

لا يمكن للانسان أن يتصور ، من بعيد ، مدى الحمى الصهيونية التى لفحت وجه باريس ــ مثلا ــ قبيل العدوان .. وأنا أتحدث عن باريس كنموذج للغرب .. لأننى كنت فيها خلال تلك الساعات العصيبة

لو أن باريس ذاتها هى التى يحاصرها العدو ، لما استطاعت الصحف الفرنسية أن تصرخ بأعلى مما تفعل الآن !

وعندما كانت الطائرة تهبط بى فى مطار أورلى ، والصحف بعناوينها المرعبة فى يدى .. تصورت أننى سأجد أهل باريس وقد حفروا الخنادق فى الشوارع كما كانوا يفعلون أيام ثوراتهم القديمة ، وأن وجهى المصرى لابد سيستفز كل من تقع عينه على .. وأننى سأجد من يمسك بخناقى كل خمس خطوات !

ولكن .. لاشىء من هذا . الربيع فى باريس هو الربيع . والفرنسى العادى يتأمل صحافته فى دهشة أكثر مما يتأملها فى نجاوب .. وان كان هذا لاينفى بالطبع حدة المعركة التى يواجهها أى عربى فى باريس .. والتحدى السافر المستمر له ..

على أن هذه الحمى الرهيبة .. لها أكثر من معنى .. أو لها أكثر من سبب ، يهمنا منها فى الدرجة الأولى سببان :

السبب الأول : ان الحكومة هنا بالذات ، حاولت أن تسير على غير الهوى الصهيونى .. فجاء حتى موقفها المعتدل ، الذى ليس معنا وليس معهم ، كاشفا فاضحا للزيف الصهيونى العريض ..

السبب الثانى : هو أن أمريكا تدخل بكل قوتها وأسلحتها وأموالها فى أوربا هذه المعركة ضدنا

السبب الأول ، الذى يجعل هذا الصراخ أكثر لزوما لهم ، فى باريس بالذات ، هو موقف ديجول من الأزمة

وليس معنى ذلك أن ديجول معنا مائة فى المائة . أو أنه من أنصار القضاء على اسرائيل أو ضد اقامة علاقات حسنة بينها وبين فرنسا . ولكن ، كأنه كان المفروض فى المنطق الصهيونى والاستعمارى أن يقف ديجول من اللحظة الأولى مع اسرائيل وضد العرب ، مهما كانت الظروف والأحوال ..

كل مافعله ديجول انه احتفظ برأسه هادئا وسط العواصف المشبوهة . أراد أن يكون منطقيا فى موقفه الدولى المستقل الذى يحاول أن يفهم ويكسب دول العالم الثالث ، وقد رأى فوق ذلك يد أمريكا فى تسيير السياسة الصهيونية وتدعيمها وفى الضغط المستمر على الدول العربية المتحررة وخصوصا الجمهورية العربية المتحدة ..

وقد قال لى شخص قريب من الحكومة الديجولية .. ان ديجول قال مرة ، منذ وقت قريب : ان عبد الناصر لا غنى عنه مطلقا بالنسبة لمستقبل دول العالم الثالث وبالتالى للتوازن الدولى بوجه عام ..

من هذه الاعتبارات اتخذ ديجول موقفا مستقلا خلاصته : ان فرنسا ضد من يبدأ بالقتال .. وانه يجب البحث عن حل للمشكلة عن طريق التفاوض .. وأشار الى مشكلة اللاجئين الى جانب مشكلة خليج العقبة ، أى انه وسع دائرة البحث فى القضية ، وأخيرا اقترح مؤتمرا رباعيا من انجلترا وفرنسا وروسيا وأمريكا ..

هذا الموقف أثار اسرائيل من عدة نواح

فهو يشير الى « من يبدأ القتال » واسرائيل بالذات ، بعد خطوة اغلاق خليج العقبة ، هى التى تريد أن تبدأ القتال

وهو يشير الى جانب آخر من جوانب القضية ، هو مشكلة اللاجئين وهو جانب يحاول الصهيونيون طمسه والفرار من بحثه لأنه نقطة الضعف الخطيرة ضدهم ، والشاهد الماثل على فضيحتهم ، وعلى وجودهم

بالقوة ، وعلى وحشيتهم النازية ، وعلى رفضهم قرارات الأمم المتحدة .. فى الوقت الذى يبحثون فيه عن وثيقة غير موجودة تعطيهم حقا فى العقبة

وهو — ديجول — باقتراحه الاجتماع الرباعى يلغى نهائيا ماتبقى من أسطورة البيان الثلاثى ويجعل روسيا طرفا فى القضية

وفوق هذا فقد رفض ديجول الدخول فى مشروع « الدول البحرية » الذى تحشد له أمريكا وانجلترا كل قوتهما فى الضغط ..

هذا الموقف الديجولى الذى يقصم ظهر « الاجماع الغربى » ويكشفه للناس ، كان سببا آخر لكى تختار العواصف الصهيونية الأوروبية باريس بالذات مكانا لكى تهب فيه كالاعصار

وقد وجدت أمريكا فى هذا الاعصار فرصة لمحاربة ديجول فى أوروبا بوجه عام وفى فرنسا بالذات .. فأضافت قوتها المالية والسياسية ، وتغلغلها فى دوائر المال والاقتصاد والصحافة والأحزاب .. الى قوة الصهيونية وتغلغلها فى نفس الدوائر

على أن هذا الحلف الصهيونى ، الأمريكى ، حين اختار باريس ليخوض فيها معركة الرأى العام الأوربى ، استطاع أن يستقطب حوله عناصر كثيرة شديدة التباين والتنافر ، ولكن جمعت بينها مصالح ومواقف غريبة

فكل من يعارضون سياسة ديجول من عناصر اليمين المرتبطة بأمريكا صناعيا وتجاريا واقتصاديا ، وجدوها ساحة مناسبة لخوض معركة أخرى ضد العرب ، وضد ديجول بشكل غير مباشر ..

وكل الفاشيست الفرنسيين ، ممن اشتهروا بمعاداة اليهود والسامية ، والوقوف مع هتلر خلال الحرب الماضية ، ذرفوا دموع التماسيح فجأة على اسرائيل .. لماذا ؟

لأن هؤلاء أنفسهم هم الذين استبدلوا « معاداة السامية » القديمة بـ « بمعاداة العروبة » .. ففيهم الذين يحملون جراح الحروب الاستعمارية الفاشلة من الهند الصينية الى السويس الى شمال أفريقيا .. والذين حاربوا ثورة الجزائر بالذات .. والذين يكرهون التقدم العربى ويرونه

ـ فى صورة سلفية ـ تحديا حضاريا متجددا لهم على الضفة الأخرى من البحر المتوسط .. هؤلاء لايفهمون ان العالم مقبل على عصر من التعدد والمساواة . انما يرون التاريخ صراعا بين حضارات فاذا لم تسحق أوربا اليهود ، سحقها اليهود ، واليوم : اذا لم تسحق أوربا العرب ، سحقها العرب ، وبهذا المنطق التقى الصهيونيون بمنظمة الجيش السرى الفرنسية ضد ثورة الجزائر فى شهورها الأخيرة .. وبهذا المنطق ، كما قال بحق « اتيين فاجون » رئيس تحرير الأومانيتيه : التقى بتكسبير فينانكور رجل حكومة فيشى المعادى للسامية مع اليهود ضحايا معسكرات الاعتقال النازية فى الهجوم الحالى على العرب .. والتقى روتشيلد صاحب أكبر بيت مالى يهودى فى فرنسا مع « داسوى » صاحب مصانع الطائرات التى خرج كل سلاح الطيران الاسرائيلى تقريبا من مصانعه » ..

على أن الفضيحة الكبرى كانت فضيحة اليسار الفرنسى ، والاشتراكيين بالذات ، وعدد من كبار الكتاب والفنانين ..

ان اليسار الفرنسى الذى تجمع بينه معارضة ديجول ، يضم الآن جناحين أساسيين : الحزب الشيوعى الفرنسى من جهة ، والحزب الاشتراكى « جى موليه » ومنظمات متشابهة يرأسها فرانسوا ميتران الذى يقدمه اليسار بديلا لديجول ..

والحزب الشيوعى الفرنسى ، هو أكبر منظمة سياسية فى غرب أوربا وقفت معنا فى هـذه الأزمة فى وجه عواصف الصهيونية العاتية ، ومن اللحظة الأولى سجلت ولا تزال تسجل الاستراتيجية الاستعمارية بوجه عام والأمريكية بوجه خاص التى تمثلها اسرائيل وتتحرك فى نطاقها ، وهذا موقف شجاع يستحق منا أن نقدره . وهو موقف يكلفهم غاليا ، لأنه كان أول شقاق جدى بينهم وبين سائر قوى « اليسار » : وتحالفهم مع سائر اليسار الفرنسى مطلب عزيز يعملون له منذ سنوات ، ويريدون له بشدة أن ينجح . فهم حين يقفون موقفا مخالفا حاسما يعرضون هذا المطلب الهام للخطر ، وهم منذ انفجار الأزمة لايفتئون يتعرضون لضغط

شديد لتغيير موقفهم ..

***

أما الحزب الاشتراكى والمنظمات المشابهة فالى جانب أنه حزب حرب الجزائر ، وحزب مؤامرة السويس ، وحزب تسليح اسرائيل ، فهو حزب لايفهم حتى الآن مطلقا ثورة العالم الثالث وقد خسر بتحامله على مصر هذه المرة فرصة أخرى لكى يحترمه العالم الثالث ، انه حزب مريض بعقدة العرب . مريض بعقدة اليسار الثورى . مريض بعقدة التبعية لأمريكا ، مريض بعقدة خيانته للاشتراكية

وليس أبأس بعد ذلك من منظر جان بول سارتر وجماعته من المثقفين الفرديين التقدميين ..

فهؤلاء الذين يحاربون جونسون ويحاكمونه ، ويؤيدون ثورات كوبا وفيتنام وغيرها .. لا يترددون لحظة فى الوقوف المطلق الى جانب اسرائيل دون أى استقلال أو تأمل أو دراسة وليقولوا بعد ذلك مايشاءون .. كاشفين عن الأزرار التى تضغط فتحركهم كالدمى ..

وقد صفعهم جميعا تأييد كوبا وفيتنام الشمالية لمصر والعرب ..

صفعهم تبرع شباب فيتنام وآسيا وأفريقيا بالدم مع شباب العرب

.. ووقف كلود لانزمان الصهيونى نائب سارتر وأقرب مساعديه يقول وقد طاش صوابه : اذا كان جونسون يحمى اسرائيل فليحيا جونسون !

وهكذا سقط قناع افتعال التقدمية لخدمة اسرائيل لا لخدمة التقدمية مرة واحدة ..

من الذى بدأ العدوان ؟
ليست قضية نظرية !

يهز بعض ساسة الغرب وكتابه أكتافهم هذه الأيام ويقولون صراحة : مسألة من الذى بدأ العدوان أصبحت الآن مسألة نظرية . لا يهم الآن ما اذا كانت اسرائيل أم مصر هى التى بدأت العدوان . علينا فقط أن ننظر فى نتائج الموقف الراهن .. يقولون ذلك طبعا بعد أن افتضح تزييفهم الأول وزعمهم أن مصر هى التى بدأت القتال ..

ولكننا نقول لهم : كلا .. هذه ليست مسألة نظرية . انها مسألة شديدة الأهمية ، لا بالنسبة للأزمة الراهنة فى الشرق الأوسط ، ولكن بالنسبة للعالم كله ! ..

ان الخديعة والمفاجأة تعطيان أحد الطرفين فى القتال ميزة كبرى . ولو شاع القول بأن مسألة البادىء بالعدوان مسألة نظرية ، فسيكون سهلا أن يتكرر هذا فى أماكن كثيرة من العالم : أن تجمع احدى الدول كل قوتها . تركزها فى توجيه ضربة عنيفة مفاجئة الى عدوها ، ثم تحاول الهرب بغنيمة العدوان ! .. لو استقر هذا فلن ينام الليل أى شعب له مشكلة مع دولة أخرى !

لقد عاشت الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها زمنا طويلا مصابة بعقدة الهجوم المفاجىء الغادر ! .. كانت اليابان تفاوضها وتوهمها بأنه لا حرب فى ذلك الوقت « تماما كما سبق الهجوم الاسرائيلى ايحاء بأن المباحثات السلمية ستبدأ » وفجأة انقضت اليابان فى الهجوم الجوى الشهير على « بيرل هاربور » وعلى شتى قواعد أمريكا البحرية والجوية فى المحيط الهادى . وكانت الضربة مفاجئة وقاصمة لدرجة جعلت أمريكا هى

وحلفاءها تحارب متقهقرة حتى فقدت الشرق الأقصى بأكمله وانسحبت من بورما والملايو والفيلبين واندونيسيا والهند الصينية .. قبل أن تسترد قوتها وترد الضربة

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كان الفكر السياسى والعسكرى فى العالم كله مركزا على : طريقة الوقاية من الهجوم المفاجىء

مسألة من البادىء بالعدوان المفاجىء اذن ليست مسألة ثانوية أو نظرية . انها مسألة أساسية . والعقاب عليها واتخاذ موقف حاسم منها أمر يمس نظام العالم كله !

واذا لم يحل العالم مشكلة الغدر بالقانون .. فسيكون عليه أن يدخل فى سلاسل من معالجة الغدر بالغدر .. أو الغدر بالثأر !

ومن أغرب وأطرف النغمات التى عزفت عليها صحافة الغرب وساسة الغرب عندما حقق الهجوم الاسرائيلى المفاجىء الغادر أهدافه : مناشدتهم الاتحاد السوفييتى ألا يتدخل ، ولا يقف الى جانب العرب ، لأن هذا معناه تدويل الأزمة ، وايجاد مواجهة جديدة بين روسيا وأمريكا ، وتهديد السلام العالمى !!

يريدون بالطبع أن يطمسوا حقيقة كبرى فى الموقف : ان تدويل القضية قد تم من طرف أمريكا بالفعل . وهم بهذا المعنى يحبذون التدويل من جانب واحد .. التدويل بمعنى تدخل الغرب وحده . والتدويل حيث يخدم اسرائيل وحدها !

والرد هو : متى كانت اسرائيل ، منذ خلقت ، بنت الظروف المحلية فى المنطقة العربية وحدها ؟ وكيف كان يمكن أن تنشأ اسرائيل من الأساس ، أو كان الأمر للظروف المحلية وحدها ؟

أمريكا وانجلترا خلقتا اسرائيل . وأمريكا بالذات تسلح اسرائيل وتمولها وتتآمر معها وتساعدها بوسائل المخابرات الخفية لكى تحقق أهدافا عسكرية وسياسية معينة ضد البلاد العربية ، وتدخل الاتحاد السوفييتى ليس الا رد فعل لهذا التدويل الذى فرضته أمريكا ..

أمريكا تريد أن يكون تدخلها فى أى منطقــة من العالم أمرا عاديا وتدخل غيرها يتنافى مع « المحلية » !

أمريكا تريد أن يكون كل مكان فى العالم بيتها .. مباحا لها وحراما على غيرها !!

اسرائيل هى التى تعيش بتدويل القضية .. وتموت بعدم تدويلها ! ولكنها تريد فوق ذلك .. أن يكون التدويل من جانب واحد !

قال كاتب انجليزى منصف : مشكلة أسرائيل مع العرب ليست فى كونها مجتمعا يهوديا يريد أن يكون جزءا من الشرق الأوسط ، ولكن فى كونها مجتمعا غربيا ، يريد أن يكون رأس جسر للغرب فى الشرق الأوسط !!

الورقة الأولى ..
فى المرحلة الراهنة

منذ أول صفحة فى هذا الكتاب ، وفى طبعته الأولى ، كنت أحاول أن أقول : ان قضيتنا مع اسرائيل ليست قضية عسكرية . قد نشتبك مع اسرائيل عسكريا مرة ومرات ، من حين لآخر . ولكن هذا جانب فقط من الصورة الشاملة للصراع . وانمعركتنا مع اسرائيلمعركة «حضارية» . معركة مع الغرب المتقدم القوى . وان اقامة « مجتمع سليم عصرى متحضر ، ودولة عصرية حديثة ، هى المعركة الجدية التى تحسم هذا الصراع فى مداه الطويل » .

هل كنا محتاجين الى دليل يثبت لنا ان اسرائيل هى الغرب وأمريكا ؟ ها قد جاءنا ــ بالتدخل الأمريكى فى الحرب الأخيرة ــ دليل جديد

هل معنى ذلك أننا يمكن أن نضع الصدام العسكرى جانبا ؟ كلا .. فالعدو نفسه ــ لأنه اسرائيل والغرب والاستعمار ومصالحه الاستراتيجية الدولية ــ لاينحى الصدام العسكرى جانبا . واذا لم نفرض عليه هذا الصدام العسكرى فهو يفرضه علينا . لهذا فلابد أن يكون العنصر العسكرى فى حسابنا دائما . ولابد أن نعيد بناء جيش قوى مهما كانت الظروف . لأن الغرب القوى القادر المتقدم ، كلما أعيته الحيل فى الضغط على العالم العربى وكلما عجز عن التأثير عليه من الداخل ، لجأ الى سلاحه الأخير : اسرائيل ..

اسرائيل تحارب للغرب ، وتحارب لنفسها أيضا

تحقق للغرب بعض أهدافه ، وتحقق هى فى ظله ، وبالمناسبة ، وكثمن للقتال ، أهدافا خاصة بها ..

على أن الحديث فى هذه الآفاق الواسعة للصورة قد يطول . ونحن الآن أمام موقف قاس محدد . وازاء وقت ضيق . والسؤال الملح المباشر

هو : ما العمـــل ؟ أو ماهى الأوراق التى فى يدنا الآن بعـــد النكسة القاسية ؟..

ان أول ورقة هامة فى يدنا هى : الجبهة الداخلية ..

انَّ الاخطاء كبيرة وكثيرة . ونحن فى تقدمنا السريع الشامل خـــلال السنوات الماضية وعلى جميع الجبهات السياسية والاجتماعية والصناعية والعسكرية والدولية ، غفلنا عن فجوات وتخلخلات خطيرة . خرجنا من دائرة القطر الزراعى الراكد المحتل المحدود الى دائرة البلد الكبير النامى المتحرك المناضل المؤثر فى العالم ، ولكننا فى هذه الرحلة حملنـــا معنا الكثير جدا من عيوبنا القديمة .. الفردية والشللية والحساسية الشخصية والتسلق الاجتماعى والاهتمام بأداء الواجب مظهريا دون أدائه واقعيا وبحذافيره . نقلنا معنا من عالمنا القديم عيوب عدم التنظيم وعدم الدقة العلمية الى عالم أصبح التنظيم فيه والدقة العلمية أشياء تحسب بواحد على ألف من السنتيمتر وواحد على ألف من الدقيقة والثانية

الأخطاء اذن كثيرة . والناس يريدون أن يعرفوا أن الأخطاء يحاسب عليها بالفعل ، لأن هذا هو الطريق الوحيد لتلافيها فى المستقبل . وهذا مطلب عادل وواقعى ومشروع ، دون أن نقع فى دوامة مبالغ فيها من الندم ولوم النفس يجعلنا نتكفىء على وجوهنا ونصـــاب بالشلل ازاء موقف خطير لا يحتمل منا أى جمود

ونحن مهما ساعدنا الأصدقاء فأهم شىء أن نساعد أنفسنا . بل ان الأصدقاء سوف يساعدوننا بقدر ما ننظم أنفسنا ونصـــعد . والأعداء سيحسبون حسابنا بقدر ما ننظم أنفسنا ونصعد ..

والى جانب اعادة بناء القوة المسلحة ، والبدء فى رصد الأخطاء .. تبرز قضـــية هامة ذات أثر كبير على الجبهة الداخلية وهى القضـــية الاقتصادية ..

ان من أكبر أسلحتنا فى معركة تصفية آثار العدوان هو قدرتنا على الصبر ، والصبر والصمود يكلفنا فقد مورد قناة السويس وفقد مورد

السياحة وربما موارد أخرى لفترة من الوقت قد تطول . وعلامة عزمنا على احتمال هذا الثمن هو أن نبدأ فورا فى اتخاذ الاجراءات اللازمة لمواجهة هذا العبء . وكل تأخير فى اتخاذ هذه القرارات يجعل ثمنها أكبر . لابد لنا اذن من « اقتصاد حرب » حتى يعرف الأعداء اننا سوف نحفر خنادقنا ونصمد فيها . والشعب ازاء الموقف الخطير مستعد للتضحية اذا وجد أنها تضحية تشمل الجميع ، تشمل القادر قبل غير القادر ، وأن حصيلة هذه التضحية تستخدم بحرص وفى مجالها الصحيح . ولن نجد فرصة مثل هذه للقضاء على كافة صور الاسراف الداخلى والخارجى

شىء آخر أعتقد أنه بالغ الأهمية فى بناء الجبهة الداخلية ، هو أن نعيد النظر فى سياستنا نحو الرأى العام المحلى ، والعربى ، والعالمى أيضا ، وان كان هذا بحثا آخر

لقد كنا فى معظم الأحوال نحاول من حيث لانشعر أن نقدم للرأى العام الجوانب المشرقة للصورة ، وأن نعبئه بمزيد من الأمل المطلق ، ونطلق العنان لمن يكتبون ويدعون ويذيعون ، يتصاعدون فى فصاحتهم وفى وعودهم بشكل مقلق . وكأننا نشعر ان الرأى العام هش قابل للكسر لايتحمل تقبل الحقائق بتعقيداتها وبظلالها الحقيقية . وهذا تصور غير دقيق . ان الرأى العام يجب أن يواجه بالحقائق وبالمعلومات الصحيحة وبالآمال والمحاذير فى أحجامها الحقيقية . هذا الجو الذى يضيف انتباه العقل الى قوة العاطفة ، هو الذى يربى الرأى العام تربية صحيحة ، وهو الذى يجعله ــ نفسيا ــ فى موقف المشترك فى المسئولية لا المتفرج ..

ولنضرب مثلا صريحا على ذلك بشعار : تدمير اسرائيل

ان هذا الشعار ليس موضع التحقيق خلال هذه المرحلة لكل الأسباب الدولية والاقتصادية والاستعمارية المعروفة . ومع ذلك فرفع هذا الشعار والحديث عنه وكأنه يمكن أن يحدث غدا يجعلنا ندفع ثمنا فادحا من اعتراض الرأى العام العالمى ، دون أن يكون فى مقابل هذا الثمن امكان تحقيقه . المرحلة الحالية مرحلة تقوية وتنمية وتجميع وتموين امكانيات

العالم العربى . ومرحلة العمل لكى تضعف كفة الاستعمار بكل صوره فى المنطقة أساسا وفى العالم بوجه عام . بوصف ان الاستعمار هو سند اسرائيل الحقيقى . ومرحلة تعرية وجه اسرائيل الحربى العنصرى العدوانى المرتبط بالاستعمار . ومرحلة عزلها وهى على هذا النحو عن كافة القوى التقدمية ، ومرحلة استخدام المصالح الدولية المرتبطة بالعرب لتكون مع العرب لا ضدهم ..

لا أحد فى العالم ـ الأصدقاء والأعداء والمحايدون ـ يوافق على محو اسرائيل . فهم جميعا يفهمون الأمر فهما تاريخيا خاطئا ، على درجات بالطبع . فليست هذه نقطة البدء السليمة معهم الآن . وليس هذا الشعار كما قلت موضع التحقيق فى هذه المرحلة . ولكن رفع هذا الشعار جعل اسرائيل تكسب أول معركة دعائية ضدنا ، قبل أن تنطلق رصاصة واحدة . احتاج العالم الى وقت حتى يفيق الى أن اسرائيل هى الترسانة العسكرية ، وهى التى تعمل يدا بيد مع قوى أجنبية ، وهى التى بدأت بالعدوان العسكرى . هذا فضلا عن أن رفع هذا الشعار فى غير أوانه يعبىء الرأى العام العربى الداخلى تعبئة خاطئة ، تصور له ان المشكلة كلها يمكن أن تحل بضربة واحدة ..

بقى شىء آخر يخطر على البال فى الحديث عن ورقتنا الأولى فى المعركة ، أى الجبهة الداخلية ..

تلك هى التدريب العسكرى ..

ان الانطباع الذى يتكون لى من قراءة الصحف ـ وقد يكون انطباعا خاطئا ـ هو اننا ندرب أكبر عدد من الناس ، كل من يتطوع ، تدريبا سريعا بسيطا ... فى حين ان الواجب فى هذه المرحلة وازاء الموقف الراهن ان نحدد هدفا عدديا معينا ، ثم نختار له من بين المتطوعين أنسبهم فى السن والوعى والقابلية ، وندربهم تدريبا حقيقيا عنيفا على أسلحة متنوعة متقدمة ..

فى اسرائيل ، فى الحرب والسلم على السواء ، كل فرد حتى سن

الخمسين يتدرب يومين كل شهر ، وشـهرا كل سنة ؛ لكى يكون على الدوام جنديا حقيقيا متكاملا متطـورا على أحدث الاسـلحة وأحدث التكتيكات . لا على مجرد ضرب النار ..

ونحن فى حاجة الى أن يعرف الجميع ان وراء الجيش المقـاتل شعبا مستعدا للقتال لا بالحماسة وروح التضحية والفـداء فحسب ، ولكن بالحساب والخطـة والدراية العسكرية لمثل هـذا النوع من حروب المقاومة ..

مطلوب دولة عصرية

عندما نمعن النظر فى أحوال البلاد العربية كلها ، بنظمها الاجتماعية المتعددة ، وبمواقعها المختلفة قربا وبعدا عن خط النار ، نجد أنها محتاجة كلها ، بدرجات متفاوتة طبعا ، الى شىء أساسى هو : أن تكون « دولا عصرية »

منطق الدولة العصرية أو الحديثة ، منطق تحتـاج اليه الدول العربية اشتراكية كانت أو رأسمالية ..

فالدولة الاشتراكية الآن لا تستغنى عن أن تكون عصرية والدولة الرأسمالية لا تستغنى عن أن تكون عصرية ..

والخلاف بين الاشتراكية والرأسمالية لن ينقطع . سنظل نحن مثـلا نقول : ان الاشتراكية هى الاجابة الصحيحة لمشاكل العصر خصوصا فى البلاد المتخلفة ، وسيظل غيرنا يقول بعكس ذلك ، والتحول الاجتماعى الشامل على المدى البعيد سوف يحسم هذه القضية . ولكن الأمر الذى ليس فيه خلاف وليس فيه شك هو اننا جميعا محتاجون الى الأسلوب العصرى والمنطق العصرى . بل اننا فى هذا المجـال نشدد الطلب على الدول التى تتجه الى الاشتراكية لأنها هى التى يجب أن تكون أكثر استعدادا وتهيؤا لهذا المنطق العصرى

واثارة هذه القضية الآن وفى هذه الظروف بالذات ، ليس ترفا . بل انه ضرورة حاسمة . صحيح انه أمر لا يؤتى أثره فى أشهر قليلة ، ولكنه أمر حاسم فى المدى الطويل ، ومهما كان مطلوبا منا من عمل ونضال فورى ومباشر ازاء الموقف الراهن فهذا لا يغنى عن سياسات وشعارات المدى الطويل . وما لم نبدأ بحسم وجدية فى اكتشاف هذا الطريق منذ الآن ونحن لا نزال نشعر بلسعة النكسة ، فقد يكون مشكوكا فيه أن نندفع

بنفس الحماس حين تنقشع النكسة وتزول آثار العدوان ..

ان الدولة المحاربة فى حد ذاتها هى الدولة التى تستطيع أن تصل فى ساعة الصدام الى أقصى درجات التنظيم ، بحيث تستطيع أن تضع أكبر قدر من طاقتها بأقل درجة من الارتباك فى كفة القتال ..

والطاقة على القتال هى امتداد طبيعى للطاقة الطبيعية لكل شعب : خصوصا فى الحرب الحديثة . لا يمكن أن نطلب من شعب اعتاد عدم التنظيم فى حياته العادية أن ينقلب بين يوم وليلة الى شعب مهيأ لقبول نظام صارم حاسم .. لا يمكن أن نطلب من شعب لا يعرف فى حياته العادية قيمة الآلة وثمن الوقت أن يكتشف فجأة فى ساحة القتال قيمة السلاح وثمن الدقيقة والثانية ..

العمل اذن من أجل مجتمعات عصرية ودول عصرية ، ليس ترفا ، وليس أمرا مؤجلا ، بل انه أمر ضرورى وحاسم لأنه يتحكم الى حد بعيد فى مستقبلنا فى أوقات السلم والحرب على حد سواء ..

ومن الأوهام التى انتشرت بيننا جميعا ونحن نسعى للحاق بالعصر الحديث وتحدياته انه يكفى أن نشترى « معدات » العصر الحديث .. من آلات ومصانع وأدوات ، لكى نصبح دولا حديثة ومجتمعات حديثة. ومن المهم جدا أن نعرف الآن ان « اقتناء » هذه الأدوات ليس كل شىء . ان هذا يذكرنى بخيمة فاخرة يمتلكها بدوى عربى ثرى ، زرتها منـذ عشر سنوات فى الخليج العربى : اذ دخلت الخيمة فوجدت فيهـا كل أدوات العصر الحديث .. أكثر من ثلاجة وأكثر من جهاز تكييف وأنواع الراديو الترانزيستور وأجهزة العرض السينمائية وكل ما يخطر على البال من معدات وأدوات أخرجتها مصانع أوروبا . دخل هذا كله على حياة البدوى صاحب الخيمة التى أصبحت خيمة فاخرة مصنوعة بدورها فى الخارج .. ولكن البدوى صاحب الخيمة نفسه كما هو ، لم يتغير عقلا ولا منطقا ولا أسلوب حياة ..

ليست القدرة على « اقتناء » أدوات العصر الحديث المادية المصنوعة

اذن هى العصرية .. فهناك قبل ذلك سؤال : «ماذا تقتنى وماذا لا تقتنى» .. ثم هناك قبل ذلك : أن تتحول الأدوات فى الأيدى العربية الى أدوات خالقة ، لا أدوات صماء ..

« العصرية » اذن هى فى الانسان . فى العادات والتقاليد والاخلاقيات. فى العلاقات الاجتماعية وفى تنظيم العمل وفى دفع ضريبة التنظيم العصرى ..

والتنظيم ليس معناه كما يفهم أحيانا من الكلمة حشد الناس فى صفوف وطوابير بل ان معناه توزيع المسئولية وتحديد الاختصاص واعطاء حق المبادرة فى دائرة هذا الاختصاص ، على أن يدور العمل كله بعد ذلك فى انسجام تلقائى

والتنظيم بهذا المعنى ليس بديلا عن الأسلوب الديمقراطى فى العمل : فجزء من التنظيم الحى أن تنظم عملية التعبير عن الآراء وتلاقى الخبرات لاستخلاص أسلم الآراء من مزيجها جميعا .. دون أن يغفل هذا سرعة البت والحسم اللازمة فى المجتمع العصرى

ان المواطن العربى الآن ، فى حالة استعداد للتضحية من أجل تجاوز النكسة والانتصار عليها . ولكن التضحية ليست فقط بجزء من المال ، أو بالاستشهاد والموت ..

أحيانا تكون التضحية بالموت أسهل من التضحية بقبول شروط العصرية والعلمية ومتطلباتها ودفع ثمنها . وهذا ما نحتاج اليه أيضا ..

التضحية بقبول منطق المجتمع العصرى والدولة العصرية ، قد يكون أصعب من التضحية بالنفس .. لأنها تضحية مستمرة بطيئة ، يومية ، يدفعها المرء من تغير أفكاره وعاداته ، ومن وضعه الشخصى ، ومن امتيازاته التى يود الاحتفاظ بها ، الى آخره ..

ان بقاء أوضاع تقوم على الطائفية أو خلافات مع أقليات قومية كما فى بعض البلاد العربية ــ مثلا ــ ليس مما يناسب الدولة العصرية والمفاهيم العصرية

ان ما نراه من تبعثر وتشرذم جماعات سياسية اذا قرأت برامجها وأفكارها لم تجد بينها خلافا ، انما الخلاف شخصى يذكيه الطموح الشخصى أو عدم الرغبة فى التفاهم والتنازل ، ليس وضعا عصريا يناسب حياة سياسية عصرية : عليها أن تتخطى العقد والرواسب القبائلية لتتفرغ لما هو أهم ..

ان ما يسود فى الحياة العربية من تقديم الشخصية على الموضوعية ، ومن الدور الكبير الذى تلعبه المعرفة والعلاقة الشخصية والالفة الفردية فى وضع الناس فى هذا المكان أو ذاك ، قبل الصفات الاجتماعية والموضوعية ومدى الالتزام بالقضية ، ليس جوا يناسب دولة عصرية . فهو لا يضع الفرد حيث يقدر وحيث يستحق ، وبالتالى لا يجعل البلاد العربية تستفيد من كفاياتها الحقيقية ، فوق أنه ينمى صفات الزلفى والملق وحاجة كل فرد الى أن يحمى نفسه باتصالاته لا بعمله ، الأمر الذى ينطوى على انعكاسات سلبية خطيرة

ولو تأملنا ، مثلا ، هذا « الفاقد » الهائل فى الخبراء والفنيين فى شتى الفروع السياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية ، ممن أخرجتهم من بلادهم أو أعمالهم آراء نادوا بها أو موجات السياسة فى شتى البلاد العربية ، وكل منهم أنفقت عليه بلاده آلاف الجنيهات وعشرات السنين حتى يتكون .. لو تأملنا هذا العدد الهائل لتصورنا هول الخسارة ..

وبعد ..

فهذه أمثلة عامة جدا ، أسردها لا لأنها الأهم ولكنها أشهر وأبسط ما يخطر على البال .. ويبقى السؤال قابلا للبحث والجدل : ما هو المطلوب لكى تتكون لدينا دول عصرية ؟ ..

من في المصيدة ؟

من يقف فى « مصيدة » الموقف الراهن ؟ العرب أم اسرائيل ؟ الروس أم الأمريكان ؟ الدول المنتجة للبترول أم الدول المستهلكة له ؟ مصر التى تفقد رسوم القناة أم الدول التى تفقد مزايا المرور منها ؟

أظن أن الاجابة الصحيحة عن هذا السؤال هى : الجميع !

والقول بأن العرب ، لأنهم خسروا المعركة العسكرية ، يقفون بمفردهم فى المصيدة غير صحيح ، وخطر هذا الشعور هو أنه قد يؤدى الى انتشار روح انهزامية لا يبررها تأمل كل الظروف

صحيح — مثلا — ان اسرائيل تحتـــل مساحات حيوية من الأرض العربية عقب نصر عسكرى سريع . وان العرب لم يفيقوا بعد تماما من هول الضربة . وان محاولاتهم لتجميع قواهم ما زالت « قيد المحاولة » حتى الآن

ان اسرائيل ، المنتصرة عسكريا ، فى المصيدة أيضا . صحيح ان باب المصيدة ليس محكم الاغلاق عليها ، بل هو « موارب » فقط ، ولكن اغلاقه ممكن . وهذا يتوقف على العمل العربى

اسرائيل تحتل مناطق حيوية من بلادنا ، وهذه ورقة هامة فى يدها ، ولكن هذه ورقة « ضغط » لا ورقة « تثبيت وضع دائم » . الأمر الذى يضعف الورقة الى حد بعيد

وبشىء من التفصيل .. نجد ان اسرائيل — لو دخلنا عقلها — ترى انها تحتل ثلاثة أنواع من الأرض العربية : أراض تعلم تماما أن عليها أن تنسحب منها ذات يوم بأى شكل وتحت أى وضع ، هى سيناء ومناطق الحدود السورية ، النوع الثانى أراض تعتقد اسرائيل انها يمكن أن تدخل عليها تعديلات جوهرية قبل أن تنسحب منهـــا ، هى الضفة الغربية للاردن

وقطاع غزة ، كأن تعمل على تهجير الأهالى من هنا أو هناك أو تحاول الحصول على تعديلات فى الحدود لمصلحتها فى هـذه المنطقة أو تلك .
والنوع الثالث هو الذى تطمع اسرائيل جديا فى الاحتفاظ به نهائيا ، وستكون مقاومتها للانسحاب منه أعند وأشرس ، وهو منطقة القدس بالذات ..

تشبث اسرائيل اذن يختلف من جزء لآخر ولكنها تعلم فى قرارة نفسها انها لا تستطيع أن تحتفظ بهذه الأوراق نهائيا أو أن تستمر فى حملهـا طويلا ..

هل معنى ذلك أن ليس على العرب الا المكوث والانتظار ، واستخدام لعبة الصبر ؟

كلا ..

ولكن معناه أن نجعل هذه الورقة التى تمسك بها اسرائيل ، أثقل على يدها وأشد عبئا

ذلك بأن يتحرك نوع من النضال الجدى فى المناطق المحتلة . وما حدث من تحركات بطولية حتى الآن يثبت ان الامكانية موجودة . وان العرب فى الأراضى المحتلة لم يفقدوا روحهم المعنوية

والذى يسهل هذا الأمر ، ويجعله ممكنا بل وضروريا ، هو العنصر الآخر فى موقف اسرائيل الذى يجعلها فى « مصيدة » من نوع معين ..

ان العمل الفدائى داخل حدود اسرائيل قبل حرب ٥ يونيو ، كان يلقى معارضة من العالم كله ــ خارج العالم العربى ، ذلك انه كان يصطدم « بالشرعية الدولية » ، بصرف النظر عن رأينا فى هذه الشرعية . كان العالم لا يرى فى الأمر الا : قوات « أجنبية » تتسلل من « دول » مجاورة الى أرض « دولة » معترف بها دوليا للقيام بعمليات تخريب ..

ولكن اسرائيل الآن بالتحديد ، من حيث أرادت أن تحارب لتكسب حدودها شرعية نهائية ، باعتراف العرب بها ، قد أنهت هذه الشرعية خلال المرحلة الراهنة

امام العالم الآن : المقاومة والعمل الفدائى داخل الأراضى المحتلة ، ليس له صورة ولا وصف الا مقاومة شعب محتل لجيش أجنبى . العالم لم يكن يرى هذا الوصف منطبقا على المقاومة داخل حدود اسرائيل . حسنا . انه الآن لا يمكن أن يرى غيره داخل الأراضى التى احتلتها اسرائيل مؤخرا ..

ان اسرائيل تبحث عن الشرعية كأعز ما يمكن أن تريد ، ولكنها الآن واقفة فى مصيدة عدم الشرعية وهذا ما يجب أن يستغل بشتى الوسائل والى أقصى الحدود : عسكريا ودبلوماسيا ودعائيا

وتصاعد العمل ضد الاحتلال الاسرائيلى من الداخل ، فى شتى المناطق ، هو الذى يفضح عدم الشرعية يوما بعد يوم ، ويجعل الوقت ضدها ، لا فى مصلحتها ، ويجعل ما تحتله ورقة ضغط لنا لا علينا

نفس القول ، ينطبق على أمريكا ..

ان أمريكا تحاول أن تبدو واقفة خارج المصيدة ، وهذا غير صحيح ..

لا يبرح ذهنى قول جيمس رستون أكبر المعلقين الأمريكيين بعد توقف القتال بأيام : ان أمريكا لم تؤيد اسرائيل فى الحرب « هذا رأيه » ولكن لا شك أن واشنطن الرسمية لم تشعر بالسعادة منذ سنوات بعيدة كما شعرت بعد انتصار اسرائيل العسكرى »

لماذا ؟ ..

توقعت أمريكا أن تحل كل مشاكل الشرق الأوسط حلا حاسما يناسبها بضربة واحدة . تحصل على صلح دائم بين العرب واسرائيل . تسقط النظم والحكومات المشاكسة . تعيد كل ما فقد من السيطرة الغربية فى المنطقة . تعيد فرض الحصار والعزلة فى هذه المنطقة على الاتحاد السوفييتى ..

ولكن هذا لم يتم ..

الآن يبدو مؤكدا أن حلا أمريكيا على هذا النطاق الشامل مستحيل . واذا كنا لا نستطيع القول واقعيا بأنه يمكن تحويل الموقف الى نصر شامل على أمريكا . فان المؤكد اننا نستطيع أن نجعل أمريكا ترى ان

انتصارها الشامل أيضا مستحيل . وانه لن يترتب على عنادها فى تأييد اسرائيل أقل من الفوضى الشاملة التى تهدد ما تبقى من مصالحها ومصالح أصدقائها ..

وعقيدتى أن أمريكا لا تتمكن من أن تواجه نزيفا جديدا مستمرا متفاقما فى الشرق العربى فى الموقف الراهن الذى يهدد بمضاعفات جديدة فى آسيا وأوربا وأمريكا ذاتها ..

وهذا أيضا لا يكون بالقعود واستخدام لعبة الصبر ..

انما يكون بتحرك عربى شامل ، مهما كانت تعقيداته ومشاكله وبطؤه ، لا ترى أمريكا عاقبة له سوى قضم مصالحها يوما بعد يوم ، وهى المهمة التى ناقشها مؤتمر وزراء الاقتصاد العرب فى بغداد ..

لمـاذا..
الفشل العربي في الدعاية ؟

نموذج صارخ من نماذج الخطأ العربى .. لأنه حين تكون القضية مطروحة منذ أكثر من عشر سنوات ، وحين تتوالى عليها اللجـان بعد اللجان ، وتتدفق عليها الاعتمادات بعد الاعتمادات وتدور عجلة التعيينات والتنقلات ، ثم لا تسفر هذه الجعجعة كلها عن أى طحن . فمعنى ذلك أن فى الأمر شيئا !

فى الأمر مرض دفين اسمه : الحل البيروقراطى للمشاكل ! ..

أى الرد على كل مشكلة بلجان واجتماعات وتعيينات واعتمادات مالية .. دون أن تصل الى ساحة العمل الحقيقى طلقة واحدة ! ..

فكل قضية أو مشروع أو حملة .. تسفر عن مستفيدين ، لا عن مقاتلين ومنفذين ! ..

***

من ذلك : مشكلة الدعاية العربية فى الخارج ! وملايين الجنيهات التى تحولت الى مرتبات وايجارات شقق وتذاكر سفر وسيارات مرسيدس وتعيين للاقارب والمحاسيب . أى ملايين الجنيهات التى لم تسفر عن شىء ينصب فى عقل الرأى العام العالمى ، ولكنها انصبت فى جيوب أصحاب العمارات فى نيويورك وشركات السيارات فى ألمانيا وانجلترا ودكاكين التحف فى باريس ! ..

لماذا ؟ ..

لأكثر من سبب . فالاعلام أو الدعاية أو تقديم الصـورة العربية فى الخارج يحتاج أولا كأى شىء آخر الى فكر .. ثم الى تخطيط .. ثم الى تنفيذ ..

تحتاج أولا الى فكر .. وبالتالى فأول أسباب فشلنا هو : غياب الفكر .. وغياب العلم ! ..

ان الدعاية السياسية ليست هى الفهلوة . وليست المطبوعات الأنيقة ولا حفلات الاستقبال ولا الابتسامات الرقيقة . وهى قبل كل شيء ليست عملية بيع أى سلعة عن طريق تغليفها فى ورق مفضض ..

فقبل أن نقدم دعوة الى العالم يجب أن تكون فكرتها وفلسفتها مدروسة وصحيحة وصالحة للقبول ..

وهنا لا يمكن أن تكون لنا سياستان .. أو صوتان .. صوت تتحدث به فى الداخل وصوت آخر تتحدث به فى الخارج . قد يجوز هذا فى التفصيل ولكنه لا يجوز فى الأساس ..

ذلك لأننا لا نعيش داخل ستار حديدى ..

ما نقوله هنا فى أى عاصمة عربية ـ ونظن أنه للاستهلاك المحلى ـ تلتقطه وتسجله كل الصحف والسفارات ووكالات الأنباء .. ليقرأه ويسمعه العالم كله بعد ساعات ..

وأعود الى المثل الصارخ الأساسى الذى ضربته منذ أسابيع وأزعج ـ وقتها ـ الكثيرين : شعار تدمير اسرائيل ! ..

يقف السياسى العربى ، وكل همه أن يزداد حجمه فى السياسة الداخلية لبلاده ، لا أن يخدم القضية فى مداها الطويل ، يقف فى غزة أو فى غيرها ويقول بشكل عام مبهم مجرد : سندمر اسرائيل! سنلقيها فى البحر!.. وذلك دون قدرة ، بل دون صيغة أو خطة . ثم يكون على رجل الدعاية العربى فى الخارج أن يقول للناس هناك : هذا كلام للاستهلاك المحلى ! هذا كلام لا يقصده قائله حرفيا ! هذا كلام لا يستطيع سياسى أن يقول للناس هناك غيره ! .. الى آخر هذه الاعتذارات التى لا تثير الا السخرية ، ولا تصحح شيئا بهذا الهمس ازاء ضجيج ما نشر فى وكالات الأنباء والصحف والاذاعات ! ولا يكون لنا حتى شرف من يقف الى جانب كلامه ويقول انه يقصده حقا مهما كانت النتائج ! ..

لا يمكن أن تقدم قضيتنا ضــد اسرائيل بأسوأ وأخطر من هــذا التقديم ! ..

هذا الشعار ، ازاء الجماهير العــربية ، فيه تبسيط يصل الى درجة التضليل والخداع . انه كلمة خطابية سهلة ، ولكنها لا تضع أمام الجماهير الحقائق والمراحل المتعددة والطرق المعقدة التى لابد من ســلوكها حتى تصل الى انتزاع شوكة الخطر الصهيونى والاســتعمارى المغروزة فى جنب العــالم العربى ، بدلا من هذا نقدم للجماهير العربية شــعارا مبهما يجعل الجماهير فى حالة تصور ان ثمة لحظة فى ظرف ما يحــدث فيها حادث تختفى به اسرائيل فى غمضة عين ، وهــذا « ميتافيزيقية » سياسية خطيرة . وليس بعيدا يوم قال رئيس دولة عربية ان لديه خطــة لتدمير اسرائيل فى ثلاث ساعات !

وهذا الشعار نفسه ، ازاء العالم الخارجى ، الصديق والعدو ، لايمكن ان يجلب لنا ذرة من التأييد

ما لم نقل للعالم : ان قضيتنا هى قضية دفاع قومى ضد غزو خارجى استعمارى . واننا نتســلح ونجيّش الجيوش لنوقف موجة غــزو متزايدة تستهدف أغراضا سياسية واقتصادية فى المنطقة . واننــا مستعدون للوصول الى كافة الحلول الانسانية والبناءة فى اطار عــالم عربى متحضر يقبل وجود اقليات لها حقوق .. ولكن هناك فرقــا بين جماعة انسانية ذات دين مختلف تريد ان تعيش فى أمن وكــرامة ومساواة قد تكون لها خصائص خاصة ولكنه لا يضر بالاطار العــربى الحضارى العام وجماعة تتبنى دعوة عنصرية ، ونزعة ثأرية من آلاف السنين ، وتستعين على ذلك بمحالفة أى استعمار له مصلحة فى اضعاف المنطقة وضرب طموحها وكبت تقدمها ..

مالم ننطلق الى العالم من هذا المنطق العام .. فلا مبرر لان نخاطب العالم على الاطلاق ..

والعالم ــ بعد ذلك ــ يحترم القوة ، فاذا ذهبنا اليه باكين شاكين فهو

لن يستمع الينـا ، انما يجب أن يشعر ــ الى جانب عدالة القضيـة ومنطقيتها ــ ان هناك شعبا مستعدا للقتال الحقيقى من أجلها

ولست أزعم ولا احاول ان اقدم هنا بالتفصيل « الفكرة العربية عن حل مشكلة اسرائيل » فهذا بحث يجب ان يتكاتف عليه الفكر العربى فى صراحة وشجاعة وعمق وثقة بالنفس .. ولكننى فقط اسجل انه قبل « الدعوة » تأتى « الفكرة » .. فى حين ان الدعاية العربية فى العـالم الخارجى كانت دائما بلا فكرة .. انما مجرد ردود فعل .. وتردد بين الحماسة والاعتذار .. بين « لا معقول » الحل السحرى الذى يقع فى لحظة .. و « لا معقول » عدم الحل !

نقص خطير آخر فى « فكرة » الدعاية العربية فى الخارج هو : أنها ــ أى الدعاية العربية ــ هدفها الوحيد مهاجمة اسرائيل او الرد عليها

وهذا نقص خطير جدا لانه يسىء الى « الصورة العربية » فى حـد ذاتها من جهة ، ويضعف قضيتنا ضد اسرائيل من جهة أخرى

ان قضية اسرائيل قضية خطيرة تواجه الوجود العربى وتتحـداه وتهدده ولكنها ، فى حجمها التاريخى الصحيح ، لا تستنفد الوجـود العربى ولا تستهلكه ..

الوجود العربى التاريخى والمستقبلى .. الحضـارى والانسـانى والثقافى والعلمى .. هذا الوجود هو الحقيقة الكبرى فى المنطقة ، هو الذى يجب ان يقدم الى العالم . واسرائيل مشكلة خطيرة من مشـكلات الوجود العربى ، ولكنها لا يجب ان تكون ــ فى الصورة العربيـة ــ أكثر من ذلك ..

حين نقدم للعالم الفكر العربى القديم والحديث .. العلم العـربى القديم والحديث .. الفن العربى القديم والحديث .. والمشـاكل العربية الراهنة ومحاولات العرب للتغلب عليها وللمشاركة فى الحضارة الانسانية الحديثة ..

حين نقدم هذا كله للعالم سنجد ان هذا هام جدا لتغيير « صـورة

العرب » فى العالم من جهة انه هام بنفس المستوى فى قضـــية دعايتنا ضد اسرائيل

حين نقدم هذا كله ، معناه اننا نريد ان ندخل قضيتنا فى ذهن العالم من كل فتحاته : فتحات الفن والعلم والصناعة والفكر والاجتماع . لا ان نحتشد عند فتحة واحدة هى : الرد على اسرائيل . فتكون لها دائمـا المبادرة ويكون لنا دائما الصدى ورد الفعل ..

كنت فى اليابان يوما ، منذ حوالى ست سنوات .. واصبحت على اسم اسرائيل يملأ الصحف يوما بعد يوم دون أن يكون فى أحداث المنطقة العربية البعيدة ما يبرر ذلك . كانت اسرائيل قد ارسلت فرقة موسيقية سيمفونية معروفة ، من ابرع يهود العالم العازفين على الالات الموسيقية لتقدم عروضا فذة فى اليابان . فاليابان بعيدة عن الشرق الاوســط ومشاكله ، وهى ليست أوروبا الوثيقة الصلة باضطهاد اليهود القديم وبالحركة الصيهونية والجاليات القوية . فالسياسة والحرب والمشــكلة الصيهونية ليست المنفذ السليم الى الاذن اليابانية النائية . ولــكن هذه الفرقة اليهودية ، غير الاسرائيلية ــ التى تتجول باسم اسرائيل وتحت رايتها ــ أعطت اسرائيل فى اليابان صورة ترسب فى الذهن العام ، وتصبح بمثابة رصيد تستخدمه اسرائيل حين تحل الازمات

ومن أخطر وانجح الخطط التى اتبعتها الصهيونية العالمية منذ قيـام اسرائيل ، تركيزها الهائل على تكبير الدور الحضارى لليهودية فى المنطقة العربية بالذات وفى العالم بوجه عام . الافلام والكتب والتنقيبات الاثرية والدراســات الفولكلورية وغيرها ، كلهــا حاولت أن تضــخم الدور الحضــارى لليهودية وكأنه كان يملأ المنطقــة عبر آلاف متصــلة من السنين . فى حين انها ــ كما يقول المؤرخ هـ . ج . ويلز فى كتــابه عن تاريخ العالم ــ ليست سوى سطور عابرة متناثرة فى كتاب حضارة الشرق الاوسط الضخم ، الذى سطره العرب

هذا كله ، لم تفكر فيه الدعاية العربية واجهزتها قط . وما حـــدث

فى هذا المجال حدث عرضا ومن قنوات أخرى ..

هذه الصورة السلبية للعرب .. صورة الذين تحولوا الى أسرى لقضية اسرائيل ومجرد رد فعل لها ، اساءت الى الصورة الاساسية للعرب واساءت الى موقفهم الاستراتيجى الدعائى ازاء قضية اسرائيل بالذات .. وجعل « فكرة » الدعاية العربية فى الخارج فكرة خاوية من زاويتها الايجابية ، زاوية المساهمة الضخمة التاريخية والحديثة فى حياة العالم

***

يأتى بعد تشكيل « فكرة » الدعاية العربية : التخطيط لها ! ..

لمن تتجه بوجه عام ؟ ثم أى مادة نوجهها لاى فئة بالتحديد ؟ .. ثم ما هى النغمة الصالحة فى كل مرحلة من المراحل ؟ ..

لو شئنا تقسيم دول العالم فى مجال السياسة فسوف نجد ان هناك دول المعسكر الشرقى ، ودول الغرب ، ودول العالم الثالث آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ..

وأبرز ملاحظة ان جهد الدعاية العربية الاكبر يكاد يتركز فى دول الغرب ، امريكا ، أوروبا الغربية ، هل لانها تمس مركز التأييد الرئيسى لاسرائيل ؟ أم لأن « الدعاة العرب » يحبون الحياة فى هذه البلاد بالذات ، فلا تفتح المكاتب ولا ترسل البعوث الا اليها ؟ أم مزيجا من الامرين معا ؟

المهم : ان ثمة غلطة سياسية كبرى

نحن فى دول المعسكر الشرقى مثلا ، نعتبر تأييد حكوماتها الرسمى لنا كافيا ، ويغنى عن جهد الدعاية المستمر . وهذا خطأ . فقد يكون تأييد بعض هذه الحكومات لنا مبنيا على أسباب سياسية أخرى ، قابلة للتعديل. وقد يكون التأييد الرسمى فى حاجة الى مساندة شعبية تملى علينا أن نساعد هذا التأييد بأن تتجه الى الرأى العام أيضا فى تلك البلاد . ومن الخطر على أى حال أن نكتفى بتأييد القيادات السياسية والرسمية العليا

وتترك اسرائيل تربى على مهل مايسمى بال Grass roots أى بالقواعد ، لأن هذه ستكون لها يوما قوة ضغط لو تكون فيها تيار شامل ، وهذا ما تمارسه اسرائيل بالفعل ..

وفى دول العالم الثالث ، نجد أن مايساعدنا هو دور الجمهورية العربية المتحدة التحريرى فى العالم الثالث ومساعدتها لحكوماته الوطنية وحركاته الثورية ، ولكن هنا أيضا نجد أن الفهم لقضية اسرائيل قليل والفهم لدور العرب الايجابى بوجه عام قليل

ثم الى أى الفئات تتجه ، سواء فى الشرق أو فى الغرب أو فى العـالم الثالث ؟..

ان هناك دائما مايتجه الى الرأى العام بغير تخصيص ، ولكن هناك ما يتجه الى المراكز العصبية والفئات ذات التأثير .. وهذه هى ماينبغى دراستها وفهمها والتركيز عليها ..

ومن المستحيل ترك المبادرات فى هذه المجالات لمكاتب الإعلام وأجهزتها تختارها بالمصادفة أو بالحدس أو كيفما اتفق . انما يجب أن يكون هذا محل دراسة خاصة فى كل قطر ذى أهمية خاصة ، على الاقل ..

هناك ــ مثلا ــ الأحزاب السياسية ، وهذه تحتاج الى دراسة لأجنحتها وتياراتها والقضايا التى تؤثر على جماهيرها ..

وهناك الجامعات والمعاهد العلمية ومراكز البحوث . وهـذه ذات تأثير خطير فى بلاد مثل فرنسا وأمريكا وانجلترا ، وما تحتاج اليه هذه المراكز هو عمل فى مستواها العلمى وفى اهتماماتها المتعلقة بالعالم الاسلامى أو العربى أو الشرق الأوسط بالتحديد

وهناك قطاعات الفنون والإعلام بشتى أنواعها ..

كما فى السياسة يوجد الاقناع والتأثير ، توجد أيضا « المصلحة » ويوجد « لوى الذراع » وهذه سياسة لا نأخذ بنتائجها قط

فالعالم العربى يمثل مصالح اقتصادية كبرى لقطاعات قوية فى الحياة الاقتصادية للعالم الغربى بالذات . البترول . ودوائر البنوك . وتجـارة

الاستيراد والتصدير بوجه عام

هذه المصالح الاقتصادية ، ذات قوى ضاغطة كبيرة فى بلادها .. على البرلمانات ، وعلى أجهزة الاعلام ، وعلى الحكومات بشكل مباشر . ومن المؤسف أن هذا سلاح لم نحسن استخدامه قط ان لم يكن لمصلحتنا فعلى الأقل « لتحييد » بعض من يقفون ضدنا

ان صناعة السلاح فى فرنسا تؤيد اسرائيل لأن اسرائيل ، من بين عدة أسباب ، زبون أساسى لها . ولكن بلدا مثل ايطاليا تنمو مصالحه مع العرب نموا كبيرا وبالذات نتيجة لتدهور العلاقات مع انجلترا وأمريكا وألمانيا الغربية ، دون أن يكون لهذا أثر فى موقفها : ان لم يكن فى موقف حكومتها ففى موقف صحافتها أو دعايتها أو أى شىء آخر ..

ان مصالح اقتصادية كبرى ترتهن حياتها بنا ، وهذا سلاح قد لايجب أن يستخدم استخداما فظا أو خاطئا ولكن من المؤكد أنه يجب استخدامه لو درس وركز وطلب منه الممكن القابل للنمو بالتدريج ..

والتنسيق الاقتصادى العربى هنا ، والقدرة على اتخاذ مواقف مساومة موحدة ، أمر بالغ الأهمية ..

***

يأتى بعد ذلك دور التنفيذ ..

وهنا تطرح فى الدرجة الأولى قضية : من الذى ينفذ ؟

أقصد : من الذى يفكر .. ثم من الذى يخطط .. ثم من الذين يقومون بالتنفيذ .. سواء مركزيا فى الجامعة العربية والعواصم العربية .. أو « ميدانيا » فى أنحاء العالم ..

ان أبرز ملاحظة هنا ، ان « البيروقراطية العربية » هى حاليا التى تفكر ثم تخطط .. ثم تنفذ .. وليست « الانتلجنسيا » العربية ، ولا العناصر السياسية العربية ، كما يجب أن يكون .. الا فى القليل النادر من الحالات ..

مستحيل أن تتصور أن البيروقراطية الوظيفية العربية ، هى التى يمكن

أن تقود وتحقق هذا العمل الفكرى السياسى النضالى ..

البيروقراطية الوظيفية تتقن فنا واحدا هو فن التـدرج فى الوظيفـة والوصول الى مستوياتها العليا والاحتفاظ بها ..

يضاف الى ذلك أن الحكومات العربية جرت على أن « تسقط » بعض عناصرها غير المرغوبة فى هذه المناصب ، فتحل الحكومات بعض مشاكلها الوظيفية أو الاقليمية بذبح قضية « الصورة العربية » فى الخارج ..

وهذا دليل على أن الأمر هزل ، لا جد فيه ..

وكما قلت فى أول هذا الحديث : يتحول العمل العربى الى حـلول بيروقراطية .. أى مكاتب وشقق وموظفين نحل بها مشاكل بعض الناس ..

وانني لاتساءل ..

اذا كان فى كل عاصمة أجنبية حوالى ١٣ سفارة عربية ، بثلاثة عشر سفيرا ، وعشرات من المستشارين والملحقين .. اذا كانت ١٣ سفارة تعجز عن هذه المهمة ، فهل ينجح فيها مكتب للجامعة العربية يضاف الى ١٣ سفارة ، وليس له امكانيات سفارة واحدة منها ؟

لو وفرت هذه النفقات لكى تنفق على « موضوع العمل » ذاته .. سواء مركزيا هنا ــ لا لخلق « أجهزة » ولكن لخلق « انتاج » يكون بمثابة ماء الحياة والفكر لهذا العمل .. أو بالعمل ميدانيا فى مواقع العمل .. لكان ذلك أفيد ألف مرة ..

ولو جاز لنا أن نضيف مكتبا يحمل رقم ١٤ بعد ١٣ سفارة عربية .. فالأولى أن يحمل اسم فلسطين لا اسم الجامعة العربية .. فيكون له طابع نضالى مباشر خاص بفلسطين ، وتكون فلسطين هى المطالبة بأرضها أمام العالم ، لها مجموعة « دول أخرى » كما يظن الرأى العام العالمى

ان الفرصة الراهنة فرصة مواتية جدا لطرح القضية الفلسطينية بشكل جديد وأسلوب جديد . واسرائيل تعرف ذلك فتصب فى سـاحة المعركة الدعائية جهودا جبارة غاية فى الحيوية وسرعة الحركة والذكاء ..

اكتب هذا .. ثم اضرب المثل بساحة من هذه الساحات وبظاهرة من

هذه الظواهر ، لا أعرف اذا كانت وزارات الإعلام العربية على علم بها ، وعلى استعداد للاستفادة منها والتجاوب معها ..

فقد تلقيت فى الأسابيع الأخيرة بريدا غـزيرا من باريس .. نشرات ومطبوعات تصدر من منظمات ولجان وحركات جديدة ، فرنسية تماما ، وبعضها يهودى بالذات . وجدت من واجبها أن تتحرك ازاء هذه القضية .. وتفضل بعض القائمين على هذه الحركات والمنظمات فأرسلوا لى بعض نشراتهم وندواتهم ومطبوعاتهم ..

ففى الوقت الذى ترتعد فيه فرائص كاتب كبير مثل جان بول سارتر ، بنى مجده لا على مؤلفاته الفلسفية والفنية فقط ولكن على وقوفه الى جانب « الحقيقة » مهما كانت .. وفى الوقت الذى يفشل فيه سارتر عن فهم القضية ، وينكص عن اتخاذ موقف صريح منها خارج دائرة المنطق الصهيونى ويرفض رفع صوته بادانة صريحة للعدوان .. فى هذا الوقت ظهر فى فرنسا ، حيث هبت على الرأى العام عاصفة من أعتى عواصـف الدعاية والاثارة الصهيونية . ظهر رجال شجعان مثل المستشرق والأستاذ الكبير جاك بيرك والأستاذ اليهودى اليسارى العظيم ماكسيم رودنسون والكاتب الصحفى الوزير السابق ايمانويل داستييه والزعيم الاشتراكى والوزير السابق اندريه فيليب وخبير التخطيط العالمى شارل بتلهيم وغيرهم وغيرهم ..

ومن النشرات « نشرة مركز البحـوث والوثائق عن أزمـة الشرق الأوسط » ونشرات « لجنة البحث والعمل من أجل حل مشكلةفلسطين» وهى أنشط الجماعات الجديدة ونشرات « لجنة مقاومة العنصرية » وأخيرا نشرات « لجنة الطلبة اليهود المعادين للصهيونية فى فرنسا ! »

وهذه الجماعات واللجان لها بالطبع مواقف غير موحدة .. فيها الأقرب الينا .. وفيها الأقل قربا وتفهما لنا .. ولكنها تتفق فى شىء أساسى هو : رفض الأفكار الصهيونية الثابتة التى غرستها الدعاية الاسرائيلية غرسا فى العقل الأوروبى ، ورفض سياسة اسرائيل العدوانية والتوسـعية ،

وادانتها بالعدوان ، ورفض الفلسفة الصهيونية كفلسفة عنصرية ، ورفض دولة اسرائيل بوضعها السياسى الراهن ، أى كرأس حربة غربية فى جسد الشرق الأوسط العربى

وهذه كلها تكون أرض حوار والتقاء خصبة تعطينا فرصة ضخمة للحركة : اذا أردنا أن نتحرك حقا .. واذا توفرت لحركتنا الشروط والمواصفات التى سبق الحديث عنها

وليس عندى بعد ذلك سوى أن أقدم مقتطفات من نماذج الكتابات الواردة فى بعض هذه النشرات .. بما لها وما عليها ..

مثلا بيان لجنة الطلبة اليهود المعادين للصهيونية يقول بالحرف الواحد :

« تم تكوين لجنة للطلبة اليهود المعادين للصهيونية فى فرنسا ، وعنوانها المؤقت هو « سالومون اسيدوا ، ٢٧ شارع فينيون » . وقد تكونت اللجنة على أساس المبادىء التالية :

١ ــ ان الصهيونية لا تقدم الا حلا وهميا لمشكلة معاداة السامية

٢ ــ ان الصهيونية ، لكى تحقق غرضها فى اقامة دولة يهودية ، قد وضعت نفسها فى خدمة القوى الاستعمارية ، والسياسة العدوانية الراهنة لدولة اسرائيل ليست الا جزءا من مخطط هذه القوى

٣ ــ ان انشاء دولة يهودية قد حرم الشعب الفلسطينى من حقوقه

٤ ــ انه يجب الاعتراف فى نفس الوقت بالحقوق القومية لوطن يهود فلسطين ، ونحن نطالب زملاءنا التقدميين العرب بطرح أفكارهم فى هذا المجال ..

وكان الوزير الفرنسى السابق دانييل ماير ، اليهودى الصهيونى أيضا ، ورئيس لجنة حقوق الانسان فى فرنسا قد كتب مقالا فى جريدة لوموند قال فيه انه يشعر بالخجل من موقف ديجول فى عدم تأييد اسرائيل .. وفى احدى النشرات يرد الكاتبان اليهوديان ج و ف . شابير على دانييل ماير فيقولان :

« حيث أن رئيس جمعية حقوق الانسان قد أعلن عن « خجله » ،

فاننا نحن أيضا نحب أن نسجل أسباب خجلنا ، بوصفنا مثقفين ، اشتراكيين فرنسيين ، ويهودا :

« نحن نشعر بالخجل لأن بعض اليهود الفرنسيين تصرفوا وكأنهم وضنيون اسرائيليون يحملون جنسية دولة أخرى هى اسرائيل

« نحن نشعر بالخجل لأن بعض « المناضلين » صفقوا للحرب الخاطفة « بلتز كريج على الطريقة الألمانية » ، المصحوبة باستخدام النابالم

« نحن نشعر بالخجل لأن عددا كبيرا من المثقفين الفرنسيين ساهموا فى خلق أكذوبة الحرب والعدوان . ولكننا فخورون لأننا بقينا أوفياء لمبادئنا »

ورد فنسان مونتيل الفرنسى الذى كان عضوا فى لجنة الهدنة الأولى مع الكونت برنادوت على دانييل ماير أيضا فقال :

« اننا نذكر جميعا أن اسرائيل فى سنة ١٩٥٦ كانت هى المعتدية ، بالاشتراك مع فرنسا وانجلترا . لقد اعتدى على مصر ولكن مصر لم تقبل أبدا الأمر الواقع . وهى لم توقع قط على أى اتفاق حول حرية الملاحة فى مضيق تيران ، الذى يقل اتساعه عن ميل واحد ، فى مياهها الاقليمية . وقد ظهر أن ٥٪ فقط من تجارة اسرائيل تصل اليها عن طريق ميناء ايلات وانه لاشىء يمنع الصهيونيين من التزود بما يحتاجون اليه من بترول عن طريق ميناء حيفا على البحر الأبيض

« ومن جهة أخرى ليس صحيحا من الناحية التاريخية أن تستمر خرافة أن الصهيونيين موعودون بالعودة الى هذه الأرض منذ أقدم الأزل

« أن أبسط مايقال هو أن فلسطين كانت دائما عربية منذ ثلاثة عشر قرنا : مسيحية ثم مسلمة

« حتى عندما صدر وعد بلفور ، لم يكن فى فلسطين سوى ٥٦٫٠٠٠ يهودى . وفى خلال ٣٠ سنة من الانتداب البريطانى ، لم يتمكن الصهيونيون من امتلاك أكثر من ٦٪ من الأراضى الفلسطينية ، رغم تحيز الادارة البريطانية الكاملة لهم .. ورغم هذا لم تستنكف الأمم المتحدة

من أن تعطيهم بمشروع التقسيم ٥٤٪ من فلسطين ، ولكن اسرائيل لم تكتف بذلك واستولت على ٨٠٪ من البلاد

« لقد وصلت الى القدس يوم ٥٥ يونيو ١٩٤٨ مع أول فرقة من مراقبى الأمم المتحدة بناء على طلب الكونت برنادوت . يومها كان العرب ما زالوا تحت التأثير الرهيب لمذبحة دير ياسين ، التى وصفها كاتب صهيونى معروف هو جون كيمشى فى كتابه « الاعمدة السبعة المنهارة » فقال « .. لا شىء يبرر قتل ٢٥٠ عربيا بريئا ، معظمهم من النساء والأطفال، ان مذبحة دير ياسين هى أكثر النقط سوادا فى تاريخ اليهود خلال هذه الفترة ، وقد أقدموا عليها لخلق حالة ذعر بين العرب تدفعهم الى الهجرة» . وفى هذه الظروف لا يمكن تفسير عمليات الفدائيين العرب عبر الحدود الاسرائيلية الا على أنها رد فعل عنيف لفلسطينيين أخرجوا بالقوة من بلادهم ، ولا يجب أن ننسى أنه منذ ١٩٤٩ كانت اسرائيل ، واسرائيل وحدها ، هى التى أدينت من الأمم المتحدة احدى عشرة مرة لخرقها اتفاقيات الهدنة . فهذا الذى يسمونه الأمر الواقع ليس سوى تثبيت للظلم عن طريق القوة ولا يمكن أن تتصور أن مصر والبلاد العربية ستقبل هذا نهائيا

« تبقى نقطتان هامتان . الأولى أن اسرائيل التى يسمونها قلعة الديمقراطية ، تضطهد العرب المقيمين فيها ، حوالى ربع مليون بين مسلم ومسيحى ، بل وتطبق أنواعا من التفرقة العنصرية نحو بعض اليهود أنفسهم .. الشرقيين والاسيويين . النقطة الثانية أن الخلط بين اسرائيل رأس الجسر للاستعمار وبين مالرتكب ضد اليهود من مذابح على يد هتلر ، خلط لا معنى له .. اذ لاتوجد أى صلة بين العرب وبين معسكرات « أوشفيتز وتربلينكا »

وكتب أندريه فيليب الزعيم الاشتراكى الفرنسى والوزير السابق وأستاذ الاقتصاد والعلوم السياسية المعروف فى احدى النشرات يقول :

« الان وقد هدأت المشاعر ، نسأل انفسنا ماهى حقائق الموقف فى

الشرق الاوسط الان ..

١ ــ ان اسرائيل أحرزت انتصارا عسكريا ، قد يدخل كتب الحرب فى باب الحملات النابليونية

٢ ــ ان هذا الانتصار العسكرى عديم الفائدة فهو لم يمنع العرب من أن يفكروا فى استئناف القتال بصورة او بأخرى . فالنتيجة الوحيدة للنصر الاسرائيلى هى تقوية فكرة الوحدة العربية وجعل استمرار النظم الاقطاعية فى المنطقة أكثر صعوبة

٣ ــ ان النفوذ الانجلو أمريكى قد تقلص وانه رغم هزيمة الاتحاد السوفييتى دبلوماسيا فقد قوى مركز روسيا فى المنطقة باستمرارها فى مساعدة العرب

٤ ــ ان دول العالم الثالث وقد رأت أى فجوة تفصلها عن البلاد الغنية ، لا يمنعها الآن من الارتماء تماما فى أحضان روسيا أو الصين ، الا موقف فرنسا المتزن من النزاع ..

٥ ــ ان أزمة الشرق الأوسط قد وحدت صفوف دول المعسكر الشرقى بعد أن كانت بعض عوامل الفرقة قد دبت بينها « واذا كانت رومانيا قد ابتعدت ، فان يوغوسلافيا التى كانت مبتعدة ، قد اقتربت ! »

« والان كيف يمكن البحث عن حل ؟..

« لكى يمكن البحث عن حل يجب هدم عدة أوهام عاشت فى المنطقة وتعمقت زمنا طويلا :

« ١ ــ منذ عشرين سنة ، كان أمل العرب تدمير اسرائيل كدولة على أن يحل محلها مجتمع مسلم مسيحى يهودى على الطراز اللبنانى . ولكن تحقيق هذا الهدف اصبح متأخرا ، فقد أصبح لاسرائيل مؤسسات وصناعات ومجتمع حى . والغاء هذا معناه آلام جديدة هائلة . بل انه ليس من مصلحة العرب أن يعيشوا فى مجتمع مختلط مع الاسرائيليين بتفوقهم التكنيكى والمادى الذى سيجعلهم بمثابة أرباب عمل والعرب أجراء ..

« ٢ ــ يجب أن تحل نهائيا مشكلة اللاجئين التى تعد عارا على الضمير الانسانى . والحل هو خلق دولة فلسطينية ، سواء مستقلة أو مرتبطة بالأردن . مع ايجاد ممر بين الأردن وغزة تتنازل عنه اسرائيل طبقا لمشروعات سنة ١٩٤٨

« ٣ ــ ان قبول العرب لهذا مستحيل مالم تتخل اسرائيل عن أحلامها الصهيونية وشخصيتها العنصرية . طالما أن اسرائيل تزعم لنفسها حق تمثيل كل يهود العالم والسلطة القضائية على كل يهود العالم ، وحق تجميعهم كلهم الأمر الذى لامعنى له الا البحث عن توسع جديد ، والا تعتبر اسرائيل نفسها رأس حربة للغرب فى قلب المنطقة بل جزءا من مجتمع شعوب الشرق الأوسط »

انتهى كلام اندريه فيليب .. وهو قابل للمناقشة من ناحيتنا ولكن فيه نقط التقاء هامة مع الفكر العربى حول هذه القضية

وقد أعجبنى قول احدى النشرات تعليقا على تحيز الصحف الفرنسية لاسرائيل : انه بعد الكلام عن حرية الصحف أصبحنا محتاجين الى البحث فى موضوع تحرير الرأى العام من الصحافة ! ..

وقد صدر أيضا هذا البيان الهام تحت عنوان « بيان من اليهود غير الصهيونيين » :

« على من يشعر من قراء هذه النشرة أن هذا الاعلان يمسه فاننا نرجوه بحرارة أن يقدر ظروف النشر الطارئة وأن يكتب الى « ماكسيم رودنس » ٢٧ ش فانو باريس ٧ وألا يتردد اذا كان لديه مايقترحه من تعديلات

« نحن الفرنسيين من أصل يهودى الذين اعتادت لغة عنصرية على تسميتنا « اليهود » فقط ..

اننا من أصل ومن تكوين مختلف ولنا آراء مختلفة ولا يجمعنا الا رباط الاضطهاد الذى عانينا منه نحن وآباؤنا وأصدقاؤنا

نحن نحتج ساخطين على الاستغلال الدائم لنا ولآلامنا أو لآلام أقربائنا

الذى تقوم به جماعات وهيئات « يقصد الصهيونية » ودولة « يقصد اسرائيل » فى حين أن واحدا منا لم يعطهم توكيلا عنا فى هذا الشأن

« منذ زمن بعيد ونحن لا نريد التجمع بصفتنا يهودا .. لأننا لا نعترف بالصفة الأساسية لهذا التحديد لأصلنا ، لقد تركنا اليهود المتدينين أو القوميين يتكلمون باسمنا ويقومون بنشاط ولكنهم استغلوا سكوتنا الذى فسروه على أنه موافقة ، فحصلوا مثلا على تعويضات لم يعطهم ضحايانا أى حق فيها ..

« ومادام العالم كله قد استطاع أن يحكم أننا نعتنق أفكارا ونشاطا آراؤنا تجاهها على الأقل تعتبر متباينة فنحن نعتقد أن الوقت قد حان لكى نعلن عدم مسئوليتنا الا فيما اخترنا أن نفعله بحرية ..

« نحن لا نعتبر أنفسنا فئة من الناس وهبت ميزات معينة تبعا لاختيار الهى وقع علينا أو بسبب آلام تحملناها ــ ونحن لا نطالب بأى امتياز ولا بوطن اضافى للجوء أو لتبديل وطننا الراهن ، وليس لدينا أى استعداد لتكوين جماعة مميزة ــ ونحن لا نستعطف أى تقدير خاص ولا نريد أى تعاطف مميز فذلك غالبا مايكون مريبا . ونحن لسنا وحوشا ولسنا ملائكة . نحن ببساطة ــ رجالا ونساء ــ قررنا أن نؤدى واجبنا كمواطنين فرنسيين وكأفراد فى الانسانية ..

« ونحن نرفض أن نلعب على وجهين فنحن متضامنون مع كل اليهود المضطهدين فى أى مكان بصفتهم يهودا « أو لأنهم يهود » ــ ونحن نصر على أن ندافع عن أنفسنا وأن نكافح ضد أعداء السامية ــ ولكننا نرفض أن نشعر اننا مرتبطون آليا بكل ماتقرره جماعة ما من اليهود أو تفعله فى أى مكان

« نحن لا نمثل جزءا من أى هيئة دولية سرية أخذت على عاتقها الدفاع فى كل مكان وزمان عن مصالح مجموعات من اليهود سواء كانت هذه المصالح شرعية أم لا ــ ونحن نؤمن بواجب التضامن ولكننا نرفض أن نرغم على التواطؤ ..

« هناك مجموعات من اليهود لاتزال وفية لدين أجدادها .. ونحن نحترم هذه العقيدة حتى ولو لم نشارك فيها ــ ونريد لليهود أن تكون لهم الحرية فى كل مكان كى يباشروا دياناتهم هذه . ولكننا لا نعترف بأن يكون لهم حق التكلم باسمنا ونأسف لان رجال الدين اليهود فى بعض البلاد يخلطون بطريقة غير سليمة وخطرة على الديانة نفسها بين العقيدة الدينية والعصبية القومية ــ نحن لانعتبر أن لنا علاقة مباشرة بما يحدث من تقارب أو تباعد بين اليهودية والديانات الأخرى

« هناك جماعات من اليهود يريدون الحياة مع اليهود فقط ــ ويمكننا أن نفهم هذا الاختيار الذى لانشارك فيه ــ ولكننا نرفض مرة أخرى أن يكون لهم حق التكلم باسمنا وأن يعلنوا فى كل مكان أننا متضامنون معهم فى عقيدتهم وأعمالهم ..

« وبالذات فان دولة اسرائيل ليست دولتنا وليست وطننا .. انها دولة قد خلقتها جماعة من اليهود القوميين انتقدها منذ البداية أغلبية اليهود.. ان الحركة الصهيونية والدولة الصغيرة التىأسستها هذه الحركة قد قامتا بتفويضات تمت دون استشارتها وكانت فى أحيان كثيرة ضد رأى الهيئات اليهودية غير الصهيونية والذى أعلنته فى وضوح ــ واذن فليس علينا أى التزام تجاهها كدولة ..

« ان لدولة اسرائيل سياستها التى يقررها مواطنوها وحكومتها .. ويمكن أن يكون لنا آراء متباينة عن الأوجه المختلفة لهذه السياسة

« ولكننا نرفض أن نكون مرغمين على مساندتها فى كل الظروف ..

« ان انتصارات اسرائيل ليست انتصاراتنا وهزائمها ليست هزائمنا ــ ان المعركة بين اسرائيل وبين الدول العربية هى معركة بين دول ذات بناء حكومى وعسكرى قوى ، وذلك فى سبيل أرض معينة ، كما تتبع كل دولة منها سياسة معينة يمكنها أن تأخذ على الأخرى انتقادات لها أو ليس لها أساس ..

« بما أن امتناعنا قد أدى الى نتائج مؤسفة وذلك باشراكنا فى عقائد

وأفعال دون موافقتنا فاننا نلتزم بأن نحاول منذ اليوم بأن نجعل صوتنا مسموعا وألا تترك أنفسنا نلتزم رغما عنا بأى شىء ..

« ماكسيم رودنسون »

***

وبنفس المنطق كتب اليهودى الفرنسى الدكتور فانى شابيرا :

« ان قانون العودة الاسرائيلى ينص على أن كل يهودى فى العـالم ، عندما يطلب ذلك ، يصبح على الفور مواطنا اسرائيليا فى حين أن العربى الفلسطينى الذى ولد هناك والذى رحل بالقوة لا يعود الا بصعوبة جمة ..

« اذن فان قانون العودة هذا ليس الا قانونا عنصريا فى جوهره .. وطالما أن هذا القانون لم يلغ فانه يمكن للعرب أن يقولوا ان العشرة أو الخمسة عشرة مليون يهودى الذين يعيشون فى العالم يمكنهم العودة الى اسرائيل ويمكنهم على الفور أن يصبحوا مواطنين ــ وبما أنه ، كما هو معروف ، لن يكون هناك مكان متسع فى الدولة الصغيرة كمـا هى الان فان على اسرائيل بطبيعة الحال أن تتوسع »

إعادة دولة فلسطين

هذا الشعار هو بغير شك الشعار المنطقى والمناسب للمرحلة التى نحن فيها . انه يحدد حجم « الخطوة الأولى والضرورية » التى لابد لنا من انجازها أولا وهى اعادة قوى العدوان الى خطوط ٥ يونيو قبل أن نفكر فى خطوة أخرى ..

ومع ذلك ، فان تصور أن « ازالة آثار العدوان » معناها عودة كل شىء فى الواقع العربى الى ماكان عليه تماما وبالضبط ، تصور خاطىء !..

كثير من الأوضاع سوف تتغير ، وكثير من الأفكار والأساليب سوف تتغير ..

ولهذا يجب أن نفكر ، من الآن ، فى بعض هذا الذى يجب أن يتغير .. خصوصا بعض مايتعلق بقضية فلسطين بالذات ..

أبسط ما يجب أن نتعلمه من النكسة هو أن نسأل انفسنا ، هل كانت الطرق التى سلكناها لمحاولة تحريك قضية فلسطين ، كانت طرقا سليمة أم أن هناك طرقا ومبادرات اخرى يجب أن نفكر فيها .. للحصول على الحق العربى الكامل ؟

ان كثيرا من الأوضاع العربية بين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٦٧ ، أدت الى تجميد الموقف العربى ازاء قضية فلسطين ، كانت الحصيلة التى خرج بها العرب بعد مايقرب من عشرين سنة هى مجرد « الرفض » اللفظى للوضع الذى تخلف عن سنة ١٩٤٨ ، حتى كسرت اسرائيل بعدوانها هذا التجميد وأصبحنا الآن أمام واقع ساخن جدا ..

وفى هذه الأيام التى نسمع فيها أنباء المقاومة الفلسطينية الباسلة فى الأراضى المحتلة — أول شىء جدى يجب أن يتم ويتدعم — يجب أن نستخلص من هذه الحقيقة أهم درس من دروس النكسة ..

ان أبسط وأهم شيء « للدفاع » ضد اسرائيل ، قبل أن تتمكن فى ظروف أخرى من الخروج من خنادق الدفاع ، ولإحياء قضية فلسطين هو : أن تكون هناك أولا فلسطين ..

الغزو الصهيونى سنة ١٩٤٨ نجح فى اقتطاع جزء من فلسطين . ولكننا بدلا من أن نبقى ما تبقى من فلسطين متماسكا وصامدا ومطالبا ، قمنا نحن العرب بتفكيك ما تبقى فى أيدينا من فلسطين ..

الغزو الصهيونى سنة ١٩٤٨ ، بدأ فى تجميع المهاجرين واللاجئين اليهود من شتى أنحاء العالم ليحولهم الى مواطنين : مزارعين وصانعين ومحاربين والعرب قبلوا تحويل المواطنين الفلسطينيين الى مهاجرين ولاجئين ..

وعندما مرت السنين بعد السنين ، وبرزت فكرة أيجاد كيان فلسطينى وتنظيم فلسطين ، وجدت المنظمة ، وهى فاقدة أهم شرط من شروط التعبير عن شعب وعن وطن : الأرض ! هذا مع أن الأرض ، مهما كانت قد تقلصت ، موجودة .. فأصبح « النضال » الفلسطينى يدار من القاهرة وبيروت وغيرهما من البلاد العربية .. الا فلسطين ! ..

وقد كان هذا كافيا لأن يعطى العالم احساسا عاما بأنه لم تعد فلسطين ولا شعب مطالب بأرضه هو شعب فلسطين .. انما هى دول عربية مجاورة تقاوم دولة أخرى اسمها اسرائيل !!

لقد فرضت الظروف الدولية والاستعمارية أوضاعا أخرى مشابهة — مع الفوارق العديدة طبعا — فى بلاد أخرى ، فرضت التقسيم فى كوريا .. ولكن كل جزء يدعى أنه هو الأصل لم يحل وجوده لأن الاستعمار اغتصب جزءا آخر . وفى فيتنام فرضت القوى الخارجية التقسيم ، استسلمت لانتصار الثورة الوطنية فى فيتنام الشمالية واحتفظت بقاعدة استعمارية فى الجنوب . ولكن الوطن الناقص الذى لم يتمكن من كسب حقه كاملا لم يحل نفسه بل دعم وجوده وجعل من نفسه قاعدة لتحرير الجزء المستعمر المغتصب ..

اذن ؟ ..

اذن فنقطة البدء البديهية والضرورية التى لابد أن تدرس بل وتقرر من الآن هى : أن تعود الى الوجود دولة اسمها فلسطين !

دولة تضم الأردن ، بالضفة الغربية للنهر والضفة الشرقية له ، وتضم قطاع غزة .. أى تضم كل ما تبقى من فلسطين زائدا ما كان يسمى شرق الأردن واندمج فى السنوات الماضية بفلسطين ..

***

قد يقال : ولكن هذا اقتراح لايغير شيئا .. فهو مجرد تبديل اسم باسم ..

والرد على ذلك : أن أى مبادرة سياسية يمكن أن تقف عند العنوان فقط وتبقى كالاناء الفارغ من محتواه ، ويمكن بالعمل الدءوب أن تصبح تغييرا جوهريا ، يملأ الإناء الفارغ بمحتوى جديد ..

ان اعادة اسم فلسطين فى حد ذاته وكمجرد اسم ، سوف يكون له أثر معنوى وبالتالى سياسى كبير ازاء العالم وفى المراحل التالية للقضية : فها هو الاسم الأصلى القديم للبلاد قد عاد . هاهى دولة فلسطين التى اغتصب منها جزء تقف صامدة فى الخط الأول أمام الاغتصاب تطالب بحقها المشروع ...

يأتى بعد ذلك أن اعادة اسم فلسطين الى أرض فلسطين ، يجب أن يستتبعه اعادة شعب فلسطين الى أرض فلسطين ..

ماذا كان يحدث بصراحة فى السنوات التسع الماضية لشعب فلسطين ، باستثناء من بقوا فى ديارهم الأصلية فى الضفة الغربية ؟ ..

لم يكن أمام الفلسطينى الا أحد أمرين : اما أن يكون لاجئا عاجزا فى الخيام .. واما أن يتحول الى فلسطينى سابق . يهاجر الى افاق الدنيا كلها من كندا الى أمريكا اللاتينية الى البلاد العربية كلها من الجزائر غربا الى الكويت شرقا ..

ومن الذين كانوا يهاجرون ؟ .. أكثر أبنـــاء فلسطين قدرة أو كفاءة وموهبة . الذين تحولوا الى رجال ناجحين .. كرجال أعمال أو مهندسين

أو أطباء أو اقتصاديين أو صحفيين ..

كل العناصر المتقدمة من هذا الشعب الكفء الذكى لم يكن أمامها الا الهجرة ، والعمل خارج فلسطين ، والتجنس بجنسيات غير جنسية فلسطين ، فمن بقى له أهل فى الأرض الأصلية بقى على صلة بها ومن لم يعد له أهل انقطعت بينه وبين الأرض الأصيلة كل الصلات ..

هكذا .. بينما كانت اسرائيل لاتترك بابا الا وطرقته لتجتذب يهود اليمن أو أوروبا أو المغرب ، لكى تحولهم الى مواطنين ، ولكى تكثفه، فى وجودها البشرى والحضارى والاجتماعى .. كان العرب يتركون الكيان البشرى والحضارى الفلسطينى يتفرق ويتبعثر ويخسر أغلى كنوزه من الكفاءات البشرية بالتدريج ..

اعادة اسم فلسطين ودولة فلسطين اذن لا تكون له قيمة كبيرة ما لم يصحبه عمل حقيقى لكى يتحول الموج من اتجاه الهجرة والتبعثر الى اتجاه العودة والتكثف ، وهذا هو الأمر الطبيعى ، فقبل أن نتحدث عن « العودة » الى الأرض الفلسطينية المحتلة يجب أن نحقق العودة الى الارض الفلسطينية التى لا تزال فلسطينية . والجدار العربى المواجه لاسرائيل لا يمكن أن يكون منطقة من الفراغ ، ومخيمات اللاجئين ، والمجتمع الذى يتزايد فيه الفاقدون يوما بعد يوم .. انما يجب أن يكون جدارا حضاريا قويا : اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وبالتالى عسكريا ..

لا بد أن تقوم فى وعاء « فلسطين » هذا حياة تستوعب كفاءات الشعب ولا تغريهم بالهجرة ، حياة تغرى من هاجر بالعودة .. من باب الواجب والوطنية والرغبة فى دفع القضية الى الامام ، وان كان يلزم أن يكون هناك أيضا باب للعمل والحياة والنمو مفتوحا ومتسعا للجميع ..

هذه الدعوة الى العودة الى فلسطين التى فى أيدينا ليست قضية جانبية ولا ثانوية . فمع كل الظروف الدولية والسياسية المحيطة يجب أن تكون هناك فلسطين . صاحبة القضية يجب أن تكون حاضرة موجودة ماثلة مطالبة ضاغطة . ولا شك أن الاحساس بأهمية هذا العنصر هو ما دعا

مؤتمرات القمة الى ايجاد كيان فلسطينى ممثل فى منظمة التحرير .. ولكن ما هو مقتل المنظمة وعنصر ضعفها ؟.. انها منظمة من غير أرض وغير شعب متكامل . منظمة أضعف كيانا من الوكالة اليهودية نفسها قبل قيام دولة اسرائيل : فالوكالة اليهودية والحركة الصهيونية ذاتها لم تكتسب فعالية الا من الالتصاق بالارض . بالتمركز فى آرض فلسطينية هى مستعمراتها الزراعية ثم مدنها وتجمعاتها السكانية التى كانت تسيطر عليها ..

وهذه الدعوة الى العودة ليست مسألة ثانوية . ان العنصر البشرى هو العنصر الحاسم فى هذا الصراع القومى .. هذا التصادم الحاد بين أقدار قومية أصيلة ، وأقدار شعوب غازية ، تريد آن تخلق قومية جديدة . العنصر البشرى هو السلاح الحاسم فى النهاية . والعنصر البشرى الفلسطينى أولا ، ثم معتمدا على العنصر البشرى العربى كعون له وجزء منه وعمق استراتيجى له .. والعنصر البشرى الفلسطينى ليس فى العدد ، ولكن فى النوع أيضا . فى التعليم والكفاءة والانتاجية والمؤسسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية للوطن ..

لا يهم بعد هذا نظام الحكم ، ملكى أو أى شىء آخر . الوطن قبل نظام الحكم . الناس يختلفون فى نظام الحكم وشروطه ولكن الناس لا يختلفون فى الوطن . لا أحد يشترط لكى يعيش فىوطنه ويعمل ويناضل فيه أن يكون نظام الحكم فيه على هواه ، أولا وقبل أن يتحرك ، وشعور الفلسطينى بالعودة والعمل والنضال ومواجهة القضية لا يجب آن يكون أقل من شعور اليهودى الذى يهاجر من آخر أطراف المعمورة الى وطن لم يره ولم يعرفه وحتى لا يتكلم لغته . والشعور الفلسطينى بالتأكيد ليس أقل ..

لتكن أمام الفلسطينى الذى يحمل اليوم جنسية لبنانية أو كويتية أو أرجنتينية فرصة أن يحمل جنسيته الفلسطينية ، ولا شىء غيرها ..

الفلسطينيون لفلسطين ، وبعدها ستكون فلسطين للفلسطينيين !

والذين يحملون أرواحهم على أكفهم ، ويناضلون اليوم فى الاراضى المحتلة فى أقسى الظروف ، يبرهنون على آن هذا الترتيب ممكن تماما !

هـــذا الاقتراح يلمس ، فوق ذلك ، موضوعا دقيقا حســـاسا هو : اللاجئون الفلسطينيون .. أقصد الذين ظلوا يسكنون المخيمـــات حول حدود اسرائيل .. فى غزة وفى سوريا وفى لبنان وفى الاردن ..

منذ سنة ١٩٤٨ ، أى منذ حوالى من عشرين سنة ، عاش ما يقرب من مليون فلسطينى فى مخيمات اللاجئين .. يعيشون على دقيق هيئات الاغاثة الدولية . ولا يشكلون أى حياة مدنية كاملة من أى نوع : لا يزرعون ولايصنعون ولا يتعلمون بالدرجة الكافية ..

عاشوا فى المخيمات ، لانهم يشكلون الكتلة الكبرى من الذين طردوا طردا من أراضيهم وبيوتهم . ولأنهم رمز تصميم الشعب الفلسطينى على العودة الى دياره .. أو على الأقل تطبيق القرارات المتتالية للأمم المتحدة فى شأنهم ..

ولا أحد يريد أن يصفى مشكلة هؤلاء اللاجئين بالشكل الذى يؤدى الى اسقاط حقهم فى العودة أو الغاء وضعهم فى موضع المطالب بذلك ..

ولكن الســـؤال هو ، هل تبقى هذه الكتلة الكبـــيرة من الشعب الفلسطينى ، وبعد عشرين سنة فى المخيمات ، زمنا آخر فى نفس المخيمات ، زمنا لا أحد يعرف بالضبط متى ينتهى وهل سيقصر أو يطول ؟ ..

أعتقد أن هذا مستحيل ، وأنه غير منصف لهم ، وأنه غير مفيد ..

وأعترف هنا اننى لا أملك اجابة محددة ازاء هذه القضية ، فى اطار هذا الاقتراح الشامل الذى أتحدث عنه عن احياء « دولة فلسطين » ..

ولكننى أســـتطيع أن أحـــدد هدفا ، أطرحه على الكتاب والخبراء والمفكرين والسياسيين للمناقشة فى طريقة تحقيقه ..

والهدف مزدوج :

● أن تتحول هذه الكتلة السكانية حيثما كانت الى أرض فلسطين التى بين أيدينا ، وأن تتحول فى أرض فلسطين الى مجتمع قوى يتعلم

ويتصنع وينمو ويستزرع ويتسلح .. ليكون « بيئة قوية » على الخط المواجه لاسرائيل .. لا ليبقى هكذا فى اسار العجز والأمية وعدم القدرة وعدم النمو ..

● وألا يتم شيء ينهى حقهم فى المطالبة بالعودة أو يكون فيه مساس بأصل قضيتهم وأساسها ..

ولا أظن أن هذا مستحيل ..

من المهم جدا أن تبقى قضيتهم ماثلة ، لأن قضيتهم هى « رأس الحربة » فى القضية الفلسطينية بوجه عام

ولكن من المهم أيضا أن يتحولوا الى قوة ذات فعالية وأثر . أن يكونوا طاقة فلسطينية عربية ، ومرة أخرى لنتذكر أن اليهود يستقدمون المهاجرين وينشئون لهم المعسكرات . ولكنها معسكرات العمل والتدريب والتسكين والانتاج ..

هذا هو الاقتراح الذى أطرحه ..

وأسمح لنفسى أن أكرر مرة أخرى ان قضية سكنى الأرض والالتصاق بها ، وتحويلها الى قاعدة قوية ، قد تبدو غير حاسمة وغير مؤدية الى حل حاسم وسريع . ولكن القضايا الكبرى ليس فيها عادة حل سهل حاسم سريع . انما فيها مبادرات وقرارات وتصرفات تخلق مع الزمن واقعا قويا مؤثرا ..

واسرائيل تدرك هذا تماما ، وقد تصرفت دائما بناء عليه . ما تكاد تتمكن من شبر من الأرض الا ويسرعون الى اقامة مستعمرة فيه . أى وحدة سكانية انتاجية مقاتلة ، تلتصق بالأرض التصاقا حيا . أى يسرعون الى خلق حقيقة بشرية جغرافية سياسية جديدة

هكذا كانوا يفعلون منذ ما يقرب من قرن ، عندما بدأت الهجرات اليهودية الأولى الى فلسطين .. وهكذا فعلوا منذ أيام عندما بدأوا يقيمون مستعمرات جديدة بالقرب من مدينة القدس

فهرس

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال
١٩٦٩


مؤسسة
دار الهلال